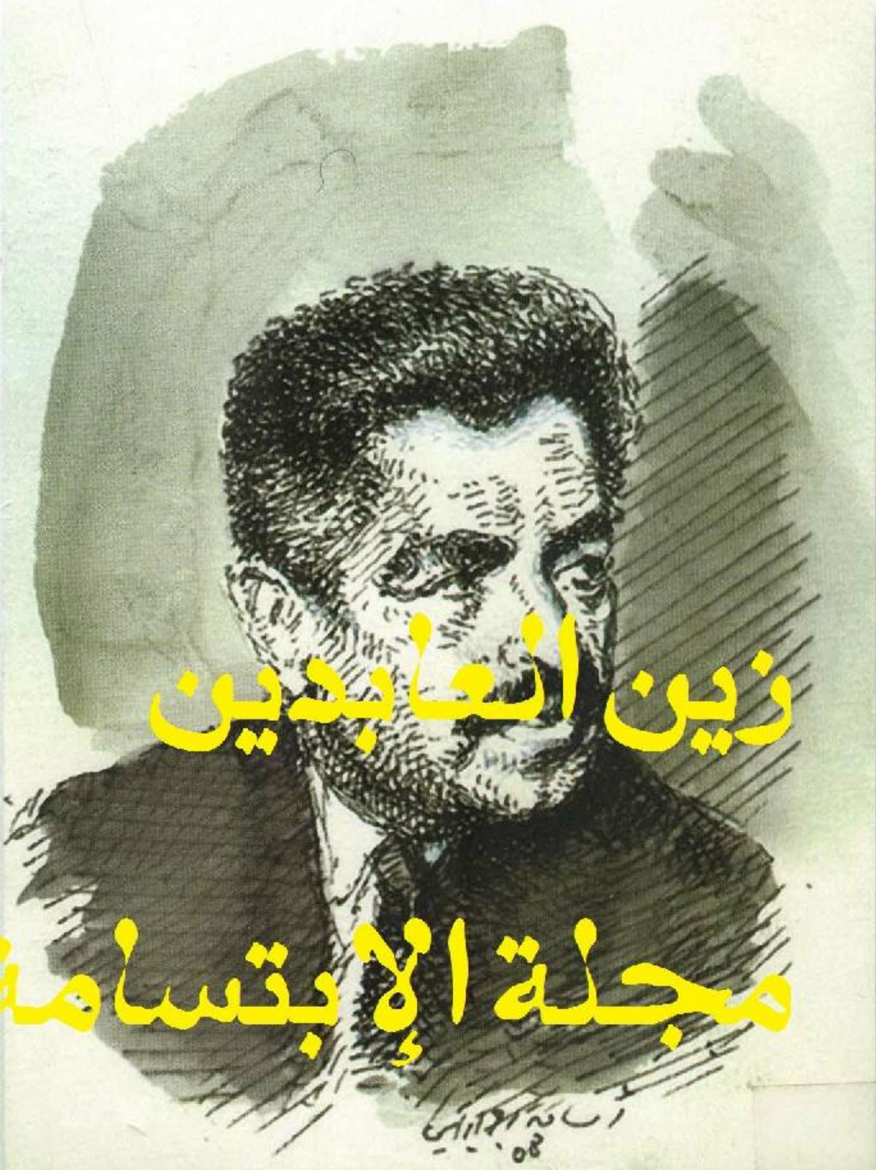
وصفي التل

في مجابهة الغزو الصهيوني



إعداد وتحرير: ناهض حتّر

إعداد وتحرير: ناهض حتّر
كاتب من الأردن

وصفي التل
في مجابهة الغزو الصهيوني

الانتشار العربي
Arab Diffusion Company

وصفي التل
في مجابهة الغزو الصهيوني

إعداد وتحرير: ناهض حتر

الإخراج الفني: تغريد التويمي

الانتشار العربي

E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت - لبنان
هاتف: 961-1659148
فاكس: 961-1659150
ص.ب: 113/5752
ISBN 978-9953-507-95-8

لوحة الغلاف: أسامة البعلبكي

نشر بدعم من البنك الأهلي الأردني Jordan Ahli Bank الأهلي | ahli

الطبعة الثانية 2008

المحتويات

إهداء ________ ٧

توطئة ________ ٩

هذا الكتاب... بقلم المحامي سلطان حتر ________ ١١

بدلاً من مقدمة... أكتب لك من فلسطين ________ ٢٣

القسم الأول

نضال وهزيمة في فلسطين ١٩٤٨

الفصل الأول: قصة جيش الانقاذ ________ ٢٩

الفصل الثاني: الجيوش العربية وفشلها في الحرب الفلسطينية الأولى ________ ١٠١

الفصل الثالث: الأسباب الحقيقية لهزيمة ١٩٤٨ ________ ١٢٩

القسم الثاني

الهزيمة الثانية ١٩٦٧

الفصل الرابع: حرب ... قبل أوانها! ________ ١٤٧

الفصل الخامس: وقائع حرب حزيران على الجبهة الأردنية ________ ١٥٣

القسم الثالث

رؤية في المجابهة

الفصل السادس: الحل السلمي تكريس للاحتلال ________ ١٧٥

الفصل السابع: النضال والذاكرة السياسية ________ ١٨١

الفصل الثامن: سياسيات اللهاث وراء الحل السلمي ________ ١٨٩

الفصل التاسع: حقائق المعركة ________ ١٩٥

الفصل العاشر: الجبهة الرابعة ________ ٢١٣

إهداء

كان الأستاذ جورج حداد، الكاتب الصحفي اللامع والإعلامي القومي المخلص، أول المثقفين الأردنيين اهتماماً بتراث وصفي التل، وإدراكاً لمغزاه القومي العميق وأهميته الفكرية. وقد بادر، بإحساسٍ عالٍ بالمسؤوليّة، إلى جمع كتابات التل من مظانها، وأرشفتها، وإعدادها للنشر، في الأشهر الاولى بعد استشهاد صاحبها. وكان عمله هذا بمثابة الأساس المتين لكلّ الجهود اللاحقة في هذا المجال. فإليه يعود الفضل، وإليه نهدي هذا الجهد المتواضع.

توطئة

انتخبنا المواد، التي تشكل قوام هذا الكتاب، من أوراق الشهيد وصفي التل، قاصدين لفت الانتباه إلى التحليل الاستراتيجي اللامع الذي قام به التل، -بوصفه عسكرياً محترفاً- للأعمال الحربية في فلسطين عام ١٩٤٩/٤٧؛ وعلى الجبهة الأردنية في حزيران عام ١٩٦٧، إن هذا التحليل ما يزال يحتفظ بوهجه، هذا التحليل ما يزال مفيداً، سواء لجهة إقناع الأجيال الجديدة، بأن هزائمنا المتكررة في مجابهة الغزو الصهيوني، لم تكن قدراً لارادّ له، أم لجهة إقناع الوطنيين الأردنيين والعرب، بأن تحقيق نصر عسكري حاسم على "إسرائيل"، ليس حلماً أسطورياً، بل هدفٌ قابلٌ للتحقيق، إذا ما توفرنا على الإرادة السياسية، وعلى الاستراتيجية العسكرية الملائمة، علماً بأن استراتيجية كهذه ليست -عند التل- مجرد شأن علمي تقني، فحسب، بل هي -بالأساس- تعبير عن نمط حياة كامل.

لقد انطلق وصفي التل، دائماً، من إيمانه العميق باستحالة التسوية مع الغزاة الصهاينة، وبحتمية المجابهة العسكرية مع الكيان الغريب الغازي "إسرائيل". وكان التل يعتقد بالأولوية المطلقة لهذه المجابهة، على جميع المجابهات والتناقضات الأخرى، بحيث طالب، دائماً بإخضاع كل "نبضة جهد" للمعركة مع "إسرائيل" وبتسوية كل المتناقضات: الاجتماعية والسياسية والدولية، لصالح حسم التناقض مع الكيان الصهيوني وقد رأى التل أنه، في أتون المعركة مع "إسرائيل"، سوف يستطيع العرب، التغلب تلقائياً، على التجزئة والتخلف والاستغلال والرجعيّة، وسوف يستطيعون تأكيد ذاتهم القومية في الميدان الدولي، ونعتقد

أن التل، في خطه هذا، كان مخلصاً، حتى النهاية، للقناعات التي كانت سائدة في أوساط حركة القوميين العرب، إبان انتمائه إليها.

لقد أسمينا هذا الكتاب: "في مجابهة الغزو الصهيوني". والقسم الأول منه وهي (الفصول الأول والثاني والثالث) يستعرض النضال البطولي والهزيمة المحتومة للعرب في الحرب الفلسطينية الأولى؛ بينما يستعرض القسم الثاني (الفصلان الرابع والخامس) وقائع هزيمة ١٩٦٧ على الجبهة الأردنية، ويُبرز القسم الثالث (الفصول السابع والثامن والتاسع والعاشر) رؤية الشهيد للمجابة مع الكيان الصهيوني، بعد هزيمة حزيران، وأهم ملامح هذه الرؤية:

(١) اعتبار الحل السلمي تكريساً للاحتلال:

(٢) ضرورة الاشتباك المستمر مع المحتلين لمنعهم من تثبيت أقدامهم في الأرض المحتلة:

(٣) ضرورة إخضاع كل الجهود الأردنية لمتطلبات المعركة مع "إسرائيل":

(٤) وأخيراً، ضرورة فتح الجبهة الرابعة (جبهة الانتفاضة الشعبية داخل الأرض المحتلة).

لقد انتخبنا، هنا الموادّ الدالّة فقط، وأعطنيا بعضها عناوين أكثر اتساقاً مع مضمونها. وقمنا بتحرير النصوص وتدقيقها. بتحفظ أحياناً وبتوسع أحياناً أخرى، حسب الضرورة الفنية؛ إلا أننا حافظنا، على أسلوب الشهيد، ومضامين نصوصه.

وبمناسبة صدور الطبعة الثانية من هذا الكتاب، نستذكر الأيادي البيض للراحل الأستاذ مريود التل، شقيق الشهيد ووريث نهجه، في انجاز هذا العمل وذلك بإطلاعنا على المواد الأصلية، وسماحه لنا باستخدامها، ومساعدتنا على التنبه إلى أهمية بعضها وعلى إجازته مشروع هذا الكتاب ورعايته لعملنا.

هذا الكتاب

بقلم المحامي سلطان حتر

هذا كتاب جدير بالقراءة المتعمقة. ومن المفيد للغاية، ان يطلع عليه صُنّاع السياسة، والذين يصنعون الملاقات الإقليمية العربية والدولية، والذين يهتمون بأمور الأمن القومي والاستراتيجية الشاملة، فضلاً عن الاجيال الجديدة من الشباب العرب، الذين يجب أن يعرفوا ما جرى وما يجري، فيما اصطلح على تسميته بالمجابهة العربية مع الصهيونية؛ هؤلاء الشبان الذين لم يعودوا ينتظرون الحقيقة من أحد، لأن جراحهم هي الحقيقة.

وأهمية هذا الكتاب تجيء من أربعة عوامل:

العامل الأول شخصية وصفي التل السياسي منذ نعومة أظفاره، والعسكري في شبابه، ورجل الدولة والسياسي المفكر، الذي كرّس معظم نشاطه السياسي والعسكري طيلة حياته لمجابهة الصهيونية ومحاربتها. عن علم ومعرفة بأخطارها الحقيقية على الوجود العربي. وهو أحد القلائل الذين صنعوا تاريخ الأردن الحديث، وشاركوا المشاركة الفعّالة، في إرساء دعائم وجود الدولة الأردنية، وفي تجديد طموحها القومي. عرفته في مركز المسؤولية، وعرفته بعيداً عنها، ووعيت السنوات العشر الأخيرة العاصفة من عمره. الأعوام والتي حفلت بالأحداث الجسام، التي عصفت بالمشرق العربي. كان وصفي مولعاً بالأدب والفكر، وأحَبُّ الهوايات إلى نفسه، القراءة والعمل الزراعي. أكثر ما يقرأ كتب السياسة والتاريخ والفلسفة. لقد عرف، رحمه الله، في التاريخ وأخبار القدماء

وآدابهم، فوق ما يعرفه المتخصصون أنفسهم، وآمن بأن اليوم الذي تنقطع فيه الصلة بين جديد الأمة وقديمها، هو اليوم الذي تهون فيه، ويحال بينها وبين الإبداع. وكان يؤمن بأن التجديد لا يتم إلاّ بإحياء القديم، والأخذ بما يصلح منه للحاضر والمستقبل.

كان وصفي يسلك في تصوير عواطفه، الطريق نفسها التي يسلكها الشعراء، طريق العبارة القوية المؤثرة، التي تستثير إعجاب الجليس، لاستثارها بعقله وحسه وشعوره معاً. كان مجاهداً وفياً، قوي الحجة، بعيد النظر، شجاعاً، لا يستكين للأحداث، أو يستسلم للصعاب، بل يتحداها بطاقة جبارة، لا تعرف مللاً او كللاً. وكان يؤمن بالعمل الهادف، المترفّع عن الفوغائية التي سادت وسيطرت على العمل السياسي العربي في عصره. وكان يؤمن بالدور الأساسي للفكر والعقل، في معالجة شؤون الأمة وقضاياها. وما كان يوماً الشراع الذي تسيرّه الريح، بل كان دائماً الريح التي تسّير الشراع.

العامل الثاني: فهم وصفي للحركة الصهيونية

كان وصفي يرى أن الصهيونية -تاريخياً وواقعياً- حركة قام بها كبار رجال المال والصناعة اليهود، للتوطن في فلسطين، ليجعلوا منها قاعدة للاستغلال الاقتصادي، وبنكاً للعالم كله، يباشرون بواسطته نشاطهم الاستغلالي في جميع أنحاء الأرض عامة، وفي المنطقة التي تضم ما يسمونها -بأرض الميعاد- بصفة خاصة؛ فالوطن القومي لليهود، ما هو إلا تطوير وتحسين عنصريان، لفكرة وواقع الفيتو اليهودي القديم، وإسرائيل والصهيونية الغالمية، وجهان لقطعة نقدية واحدة؛ لأن مصدر القوة الذاتية لإسرائيل هو الامكانيات والقوى الصهيونية العالمية أينما وجدت، والصهيونية العالمية، هي السلطة التي حشدت يهود العالم، وعبأتهم وزودتهم بالمال والسلاح، ودعمتهم بالقوة السياسية والدعائية. وسخرت لهم الكثير من أدوات السلطة، العلنية والمستترة، المنتشرة في كثير من

بقاع العالم، وأقامت لهم إسرائيل، وللصهيونية العالمية تنظيمها الخاص، أي لها حكومتها الخاصة. التي تحكم الصهاينة في جميع انحاء العالم، وتوجههم. ويُمارس هذا التنظيم كثيراً من الاعمال والواجبات التي تمارسها الحكومة، فهو يعقد الاحلاف السياسية، ويصادق ويعادي ويتبادل المنافع، ويخوض المعارك، ويُرغّب ويرُهّب، وينبذ ويعقد القروض، ويستدرج المساعدات، ويستعمل جميع الوسائل التي تستعملها الدولة علناً، أو التي تستعملها بعض أجهزة الدول السرية خفية. وهذا التنظيم يضع كامل إمكانياته وقدراته في خدمة إسرائيل، لتكون في نهاية الأمر، تجسيداً للحكم الصهيوني، اي دولة تضم معظم اليهود، وتقوم على رقعة شاسعة من الأرض، تمتد من الضفة الشرقية للسويس، حتى الضفة الغربية للفرات، متوغّلة في الجنوب، إلى أبعد نقطة تستطيع الوصول إليها في شبه الجزيرة العربية، وفي الشمال إلى أقصى نقطة تستطيع الوصول إليها في بر الشام.

وليست إسرائيل بالنسبة للصهيونية العالمية، إلا كالحكومة المحلية بالنسبة للحكومة المركزية. فهي من ناحية تعبير الصهيونية العالمية عن نفسها، وبالتالي رأس الجسر الذي أقامته هذه الحركة، في اندفاعها المستميت نحو هدفها. وهي، من ناحية ثانية، معتمدة في وجودها على الصهيونية العالمية. أي على ما تعبئة لها الصهيونية العالمية من دعم سياسي ومالي وتسليحي وبشري. واذا ما وجدت بعض الاختلافات في وجهات النظر، بين إسرائيل والحركة الصهيونية العالمية، فتلك الخلافات راجعة إلى اختلافات زاوية النظر إلى نفس الهدف، فإسرائيل أكثر تأكيداً على عناصر الميدان المحلي، والصهيونية العالمية، أكثر إدراكاً لوضع الميدان العالمي الشامل، الذي تعمل فيه، غير أن وجهات النظر تناقش دوماً بين الجهتين وتُنسق في مؤتمر سنوي للصهيونية العالمية، توزع بموجبه الأدوار.

العامل الثالث: توقيت صدور هذا الكتاب

من الواضح أن صدور هذا الكتاب، يأتي في الوقت الذي تكشف فيه خريطة

الشرقين الأوسط والأدنى وشمال إفريقيا، بكل وضوح، التناقض العدائي، الذي لا خفاء فيه بين الأمة العربية والحركة الصهيونية العالمية ممثلة بإسرائيل؛ بعد أن أخذت هذه الحركة، بالعمل على تحقيق أهدافها السياسية والاقتصادية بشكل سافر وعلني؛ وبواسطة ما يسمى "العملية السلمية" والكشف عن ظاهرة التناقض هذه لا يكفي من أجل فهمها وعلاجها علاجاً موضوعياً سليماً، وحسب، وإنما ينبغي أيضاً أن يتعمق البحث فيها بمنهاج علمي، حتى نلمس جذور وأبعاد هذا التناقض المصيري. فقد تحالفت الحركة الصهيونية العالمية والرأسمالية الغربية، منذ بدايات هذا القرن، لاحتلال فلسطين، وإقامة دولة إسرائيل، والعمل للتحكم في العالم العربي. ونهب ثرواته الاقتصادية. وقد واجهت حركة القومية العربية، منذ البداية، ولا تزال تواجه، حرباً ضروساً من الاستعمار والصهيونية؛ لأن هذه القوى، تعرف أن النتاج الطبيعي لانتصار القومية العربية، هو الوحدة والتقدم، اللذان من شأنهما أن يعيدا للعرب وهج ماضيهم الحضاري العالمي، ودورهم القيادي في المجتمع الدولي، فتسد الأبواب في وجه الاستغلال الأجنبي للثروات العربية، المادية والبشرية. لذا لم يكن عجيباً، أن تنشط هذه الأيام، القوى الصهيونية والاستعمارية، في محاولاتها للقضاء على مقوماتنا الأساسية، من اللغة والثقافة والفكر، وفي تشويه تاريخنا وحركات نضالنا الوطني، عبر العصور والأجيال، وفي أعمال التقسيم والتجزئة وتعميق الحدود المصطنعة، والفواصل الاقتصادية والسياسية والعسكرية الشاذة بين الدول العربية.

العامل الرابع: مضمون الكتاب

في عام ١٩٣٣، قال زئيف جابونتسكي: "إن الصهيونية هي استيطان، لذا فهي تحيا وتموت مع قضية القوة المسلحة"، هذه المقولة، كانت ولا تزال الأساس في عمل الصهيونية الحثيث لتحقيق أهدافها في المشرق العربي. وقد تم اعتماد العلم والعقل، لترجمة هذه المقول، إلى خطط استراتيجية، أدى تنفيذها

وتطبيقها المتواصل إلى نجاح الصهاينة في الوصول إلى غاياتهم. وقد اعتمدت هذه الخطط، على تطوير كفاءة القوات الإسرائيلية المحاربة، تعويضاً عن تفوق العدد العربي، وتطوير أسلحة أكثر ثورية من الأسلحة العربية، مع السعي لتأمين الوصول إلى السلاح النووي، والاعتماد في حال الاشتباك مع الجيوش العربية، على التحركات الداخلية السريعة والمفاجأة، والنهج غير التقليدي الذي تفترض القيادة العسكرية الإسرائيلية، دائماً، ان القيادات العربية ستنهجه.

ويبيّن لنا وصفي في هذا الكتاب، كيف أن العرب غيبّوا وما زالوا يغيّبون الفكر والعقل عن معركتهم مع الصهيونية. وقد وصل هذا التغييب إلى الحد الذي لو كُلِّف العدو نفسه بوضع خطة لهزيمة العرب، لما استطاع أن يبدع في وضع خطوات هزيمتهم مثلما أبدعوا في سوق أنفسهم للهزائم المخجلة التي منوا بها. ولهذا الموقف من العلم والعقل، أسباب موضوعية لا جدال فيها، لأن احترام العلم والعقل يرتبط أساساً بتصنيع المجتمع وتحضره، وبما ينتج عنه، ويتفاعل معه ونحن لازلنا حتى الان حتى الأن، رغم ما اجتزناه من مراحل، مجتمعاً متخلفاً، تمثل الزراعة غير المصنّعة فيه، أهم قدراته الانتاجية.

لقد جابه وصفي الصهيونية، كعسكري مقاتل في جبهات القتال. وشرح بأسلوب علمي منهجي، أسباب الهزيمة التي لحقت بالعرب في حرب عام ١٩٤٨، وأخذ يقرأ ويبحث ويكتب في شؤون العلم العسكري، ساعياً إلى استقصاء ما يؤهل العرب إلى مجابهة عسكرية أخرى ناجحة؛ لأن إيمانه كان يرتكز على أن صراعنا مع الصهيونية لن يُحلَّ الا المجابهة العسكرية.

لقد نشأ وصفي وترعرع، وهو في موقع المجابهة الفعلي مع الصهونية. وتمَّ سجنه في دمشق، لمحاولاته اليائسة لإقناع المسؤولين في سوريا ولبنان، بالاشتباك مرة أخرى بعد حرب عام ١٩٤٨ مع اليهود، في جولة حاسمة، كان مستعداً -رحمه الله- لأن يكون طعمها الأول، بالاشتراك مع بعض الوحدات الفلسطينية. ولكن محاولاته فشلت، لأنها كانت تعتمد على قيادات قتلها الخوف من العدو، ولم تعد

تفهم من قضية فلسطين، سوى السلامة ومحاولة الخلاص من القتال بأي ثمن، وهو يبيّن الجريمة العسكرية، التي اقترفت بحق فلسطين، لأن كل ما يؤدي إلى الهزيمة، هو -برأي وصفي التل- جريمة عسكرية. فالضعف والجبن والفوضى والعجز وسوء التدبير، أسباب أكيدة للهزيمة، كما أن الخيانة والتواطؤ تؤديان للهزيمة. وقد يكون هناك فرق بين الطريقين من الناحية الأخلاقية، أما من وجهة نظره كعسكري، فالحكم عليهما واحد.

لقد كتب وصفي عقب النكبة في (آذار ١٩٥٠) رسالة إلى صديق، يشرح له فيها عن شعور الاستعلاء الجارف، الذي ينتابه وهو يكتب إليه؛ ذلك لأنه يكتب من فلسطين، ولأن وجوده فيها، هو رسالة جهاد ونضال، لا يستطيع الذين ألقوا السلاح، وأقروا بالهزيمة، أن يفهموها. ويوم سافر وصفي في رحلته الأخيرة إلى القاهرة، ليسقط برصاص الغادرين، كان هدفه الأول، هو حمل مجلس الدفاع العربي المشترك، على وضع الخطط العسكرية المدروسة للمجابهة مع الصهيونية. فله الحق في أن يستعلي في حماسه على الذين ألقوا السلاح. وأقروا بالهزيمة، لأنه -في حياته ومماته- كان في خضم المجابهة مع الصهيونية.

مراسلات وصفي - ليدل هارت

قبل قراءة المراسلات بين الشهيد وصفي التل والمفكر الاستراتيجي الإنجليزي ليدل هارت، لابد من القول بأن هذه المراسلات تضع بين أيدينا المعلومات التالية:

١- أن الشهيد التل، كان في حوالي ١٩٥٠م، يركز نشاطه وقراءاته حول "مبادئ نظرية الحرب" ويشتغل على إعداد كتاب متخصص في هذا المجال.

٢- ولا نعرف إذا كان الكتاب قد تم إنجازه أم لا، ولكن من المرجح أن الخبرات والمعلومات والأفكار التي حصلها الشهيد وصفي -آنذاك- قد وضعها، مباشرة في دراساته عن حرب فلسطين، المنشورة في الفصول الأول والثاني والثالث، من الكتاب الذي بين يديّ القارئ، وبصورة غير مباشرة في كل كتاباته الاستراتيجية اللاحقة.

٣- من الجدير بالانتباه أن اهتمام الشهيد وصفي، -آنذاك- بالعلم العسكري، ونظرية الحرب كان عائداً بالأساس إلى أغراض سياسية أكثر منها مهنية، فنجده يقول في رسالته الأخيرة إلى ليدل هارت، إن هدفه من دراساته العسكرية هو "حرب صليبية" أخرى من الانتقام لاستعادة ماضاع في فلسطين. وفي ما يلي تلك المراسلات.

١. من وصفي التل إلى ليدل هارت

عمان في ٢٠/١٢/١٩٥٠

سيدي

لقد تشرّفت بالتعرف إليك، وإلى آرائك، من خلال عدد من كتبك ودراساتك حول التاريخ العسكري، والنظرية العسكرية، والحملات والقادة المختلفين. لقد تدّربت كضابط في الجيش البريطاني. وخدمت ثلاث سنوات في الجيش البريطاني خلال الحرب الأخيرة، ثم خدمت في جيش الإنقاذ العربي، والجيش العربي كقائد سرية وفرقة.

لقد عملت خلال السنتين الأخيرتين في محاولة كتابة كتاب بالعربية، حول مبادئ ونظرية الحرب، والذي أنوي نشره خلال الأشهر الستة القادمة. وأثناء دراستي للمراجع والكتب المختلفة عن الحرب، تعرفت، متأخراً، على كتابك المتميز "استراتيجية المعالجة غير المباشرة". وعليّ الاعتراف بأن بعض الاستنتاجات التي توصّلت إليها في كتابك، قد توصلتُ إليها أيضاً بشكل مستقل، وقبل الاطلاع على كتابك المشار إليه أعلاه، ولكن ليس بنفس الوضوح والإسهاب الذي شرحته أنت، بشكل مفصل وجميل.

الآن أنا أطلب سماحك لي بأن أستخدام كتابك، كمرجع، بشكل واسع في كتابي، كوني لا أعرف، حقيقة، الإجراءات الرسمية المعتادة للتعامل مع مثل هذه المقتطفات وأنا أغامر بطلب سماحك لي بعمل ذلك أو إرشادك لي في هذا الموضوع.

مع عظيم احترامي

وصفي التل

٢. من ليدل هارت إلى وصف التل

بكنجهام شاير في ٣٠/ ١٢/ ١٩٥٠

عزيزي الكولونيل وصفي،

لقد كنت مهتماً جداً بالتعرف على عملك وكتابك المنتظر، وسوف أكون سعيد جداً بالسماح لك باستخدام مقتطفات من كتابي "استراتيجة المعالجة غير المباشرة" إلى درجة معقولة، شريطة الإشارة إلى مصدر والاقتباسات في كتابك.

هل بإمكانك، إذن، أن تعلمني بالفقرات التي ترغب باستخدامها.

مع أطيب تمنياتي

ليدل هارت

٣. من وصفي التل إلى ليدل هارت

عمان في ٢٠ / ٢ / ١٩٥١

عزيزي الكابتن

إنني أعتذر لتأخري في الإجابة على رسالتك المؤرخة بـ ٣٠ ديسمبر ١٩٥٠، فقد وقعت رسالتك خطأ، من قبل مراسل المكتب، وكانت صدفة سعيدة بأن أجدها ثانية امس.

أشكرك جداً على اهتمامك بعملي، وتلطفك بالسماح لي باستخدام بعض المقتطفات من كتابك "استراتيجية المعالجة غير المباشرة" وسوف أشير، بالطبع، إلى مصدر كل مرجع في كتابي.

وسوف أستخدم، بعد إجازتك، المقتطفات التالية:

١. تأكيدك العام على ضرورة المعالجة غير المباشرة في جميع العمليات الناجحة والمثمرة.

٢. تعريفك "للاستراتيجية الشاملة"؛ الاستراتيجية، والتكتيك، وأهدافها كما شرحتها في الفصل XI من كتابك. "استراتيجية المعالجة غير المباشرة".

٣. موجز مختصر للفصل XII من كتابك.

كل هذه المقتطفات التي سيتم الإشارة إليها والإقرار بمرجعها، لن تزيد مساحتها عن خمس صفحات من أصل ٤٠٠ صفحة، وهو الحجم المقترح لكتابي.

ولن أنسى إرسال نسخة من كتابي المرتقب، الذي أتوقع أن يكون جاهزاً للتوزيع قبل تموز ١٩٥٠، لا أدري إذا كان من الممكن أن يكون مفيداً لك كون الكتاب بالعربية، لكنه سيكون تعبيراً عن العرفان من طالب إلى أكثر أساتذته احتراماً ومقدرة.

مع أطيب تمنياتي.

وصفي التل

٤. من ليدل هارت إلى وصفي التل

بكنجهام شاير في ٢٦/٢/١٩٥١

عزيزي الكولونيل التل.

شكراً جزيلاً على رسالتك في تاريخ ٢٠ شباط، إني موافق لك بشكل تام على استخدامك المقتطفات التي اقترحتها من كتابي "استراتيجية المعالجة غير المباشرة" وسوف أكون سعيداً جداً بالحصول على نسخة من كتابك عندما يكون جاهزاً، فبالرغم من عدم مقدرتي على قراءة العربية، فإن لدي أصدقاء عديدين يقدرون على قراءتها.

أقدّر عالياً ما ذكرته في فقرتك الأخيرة.

وفيما يتعلق بذلك، يمكن أن يكون مهماً لك أن تعرف بأن جودريان guderian أرسل لي نسخة من مذكراته مهداة إلي: "معلمي الأول في تكتيكات الدبابة.... لإعلامه بنجاح مدرسته". لقد عناها جيداً، ولكنها عكست بأنه كان من الأفضل للعالم لو أن هذه الدراسة لم تكن ناجحة، أو أن التلاميذ كانوا مختلفين، في معرفة الدروس الصحيحة. في تاريخ الحقل العسكري، احياناً كثيرة ما يظهر بأن الناس الخطأ هم الأسرع إلى معرفة الدروس الصحيحة في حالتك، أشعر متاكداً بأن "التعاليم" سوف تستخدم للنهايات الجيدة. أنا لا أعرف فيما إذا كنت تقرأ مجلة "استعراض الدفاع الوطني" الفرنسية شبه الرسمية. كانت هناك مقالة طويلة عن عملي في عدد أكتوبر، للجنرال شاسن (Chassin)، يمكن أن تنال اهتمامك.

النشرة المرفقة، أصدرها لي، مؤخراً، أحد الناشرين ورأيت أنها يمكن أن تنال اهتمامك أيضاً.

مع تمنياتي الجيدة لك.

ليدل هارت

٥. من وصفي التل إلى ليدل هارت

عمان في ١٩٥١/٣/٣

عزيزي الكابتن ليدل هارت.

أشكرك جزيل الشكر على رسالتك المؤرخة في ١٩٥١/٢/٢٦، وأستلطف منك إجازتك استعمالي مقتطفات من كتابكم "استراتيجية المعالجة غير المباشرة". إن إهداء جودريان لمذكراته لك، له ما يبرره. وأنا معتز إلى درجة الطموح أن أعمل في المستقبل على إصدار مماثل على أمل ألّا تصنفني ضمن "الناس الخطأ الذين يستعجلون تعلم الدروس الصحيحة" وأنا محتار فيما إذا كان واجباً عليٍ الخوض في التعليق أكثر على التأثير الذي تركه جودريان عليك. وأجدني ملزماً بالقول بأنني لا أستطيع إشعال نفس أهميته. أنا لا أشعر بأن أي نشاط مستقبلي من قبلي سيكون ذا تأثير على العالم. وإن من المستحيل علي أيضاً تعريف ما تعنيه بمصطلح "النهاية الجيدة". إن أهدافي هي، بالتأكيد، ليست "إنسانية" بالمعنى المثالي والأخلاقي للكلمة. لقد كنت مدركاً دائماً لشعور القرف والكره الذي يتملك الرجل الانجليزي العادي تجاه الحرب والعنف. وهذا الإحساس يعيش جنباً إلى جنب مع العبقرية والمقدرة العسكرية البريطانية، وهو شعور متميز لشعب لم يعانِ من الهزيمة مطلقاً. فأنت بريطاني وأنت تملك نفس الشعور.

أنا، كعربي، لا يمكن لي أن أرضى بهذا الشعور، لذلك فإن "النهاية الجيدة"، بالنسبة لي، هي حرب صليبية أخرى من الانتقام لاستعادة ما ضاع (في فلسطين) ومع ذلك فإنني أستطيع، كطالب قديم للعلوم والفلسفة، أن أرى النقص الأخلاقي لمهنة الحرب. أستطيع رؤيتها، ولكن لا أستطيع تجاهل ضرورة التفوق في هذه المهنة عندما تكون القضية أن "تكون أو لا تكون".

مع كل تمنياتي الطيبّة،

وصفي التل

Captain B.H Liddell Hart,
Wolverton Park,
Buckinghamshire,
England,

بدلاً من مقدمة
أكتب لك من فلسطين.

أخي*

لا أدري لماذا ينتابني شعور استعلاء جارف وأنا أكتب لك من فلسطين؟ أنت تعلم مدى صداقتي لك وإعجابي بك، وتعلم أنه ليس من طبعي أن أستعلي عليك وأتكبر على أي إنسان، وخصوصاً أنت. أما الآن. وأنا أكتب هذه الرسالة، فإنني متكبر ومستعلٍ عليك، وأشعر بأني أحدثك من فوق، ولا أملك أن أدفع عن نفسي شعور الخيبة فيك، ولا أستطيع سوى الإحساس بالألم والمرارة بسببك، وبسبب الكثير من الإخوان الذين نهجوا وسلكوا السبيل الذي أنت الآن سالكه.

أتدري لماذا أنا مستكبِرٌ مستعلٍ، أحدثكَ حديثَ متسلِّط آمر؟ أتدري لماذا أضع نفسي في مرتبة أعلى منك؟ أتدري لماذا أُعطي لنفسي الحق الأدبي بتوبيخك والحكم عليك؟ أتدري لماذا؟ لأني أكتب من فلسطين.

والكتابة من فلسطين لا تعني تعييناً جغرافياً لمكان كتابة الرسالة، كما أن الوجود بها لا يعني مكان الإقامة وتحديد المسكن. لا أعني كل ذلك، وما أقصده هو أن الوجود في فلسطين، بهذه الظروف وبهذه الوضعية، رسالة جهادٍ ونضال، لا أعرف هل في استطاعة المنهزمين الذين ألقوا السلاح مثلك أن يفهموها؟

---

* نشرت في مجلة "الهدف" العدد "٦" السنة "١"، ٢٤ آذار ١٩٥٠.

لقد كتبتَ في رسائلك إليَّ تحدثني عن عملك، وأنك مرتاح ومستقرّ. كتبتَ تحدثني عن راحتك المالية واستمرار عملك، وسعيك في ترتيب وتنظيم حياتك. كتبتَ تحدثني عن الحياة البهيجة المسلية في المدينة الكبيرة التي تعمل فيها.. لقد كتبتَ تحدثني عن كل شيء الا الرجوع لفلسطين. كأني بك قد نسيت؟ نسيتَ هذا البلد العزيز الغالي في غمرة هذه الحيوانية الجارفة، والتي جعلتها الانهزامية تطغى عليك.

أنا ما زالت: أحسُّ ببقية أمل فيك، ما زلت أرجو أن أغريك بالرجوع، وأحاول إنارة السبيل لبدايتك. سأحاول كل ذلك، ولكني لن أتنازل عن استعلائي؛ لن أتنازل، لأني أكتب لك من فلسطين.

ليس من بهيج عندي أغريك به. ومع هذا أدعوك للرجوع. قد تجوع مثل الآلاف من بني قومنا؛ وقد يقتلك الملل والضجر. وستشقيك وتعذبك مناظر الشقاء والتعاسة في كل ما ترى، وسيهوي قلبك منظر معسكرات اللاجئين الرهيبة تعصف بخيمها رياح الشتاء.

لقد تغير كل شيء، ولن تستطيع النزهة ليلاً في القطمون والطالبية والبقعة؛ وسوف لا تسمع الصبيان في باب الخليل يغنون "يا ابو العيون السود.. "وأم الكندرة الحمرة البنية ضَائعة الآن، ولم يعد شليلها "يكنس الحارة" لأنها عارية مهلهلة الثياب، والمجنون الذي كنت تعرفه في باب العامود، والذي كان يغني: "يللي جملكوا انكسر بالبَقّعة: لفّيني بحضنك كتلتني الصقّعة" قد انتقل الآن إلى أريحا؛ لأن البقعة في الطرف الآخر، والأسلاك الشائكة لا تسمح للجمل أن ينكسر هناك، المسكين ما زال مقرورا لا يجد من يلفّه ويقيه من برد القدس. ولهذا انتقل إلى أريحا، واستبدل الدفء بدفء آخر.

لقد تغير كل شيء حتى اسم هذا البلد، ولكن الأهل مازالوا أهلنا. وفلسطين ما زالت فلسطين، رغم تغيّر المظهر وضيق المساحة. عليك أن ترجع إلينا.. تعال وتلمّس النكبة بنفسك، ولا تيأس، ولا تُلق سلاحك، تعال؟ ولتكن أنت الدرع. مرة

أخرى، لصدّ العدوان واسترجاع ما ضاع من الديار. ألا تحسّ بالغربة حيث أنت؟ ألا تشعر بأنك غريب وسط المدينة التي نسيت فلسطين، ولا تفكر بفلسطين؟

أنت تعرف قصة الفئران في السفينة التي تبدأ بالغرق، هذه الفئران تقفز قبل الجميع بغية النجاة ولكنها لا تنجو بالنهاية، وتغرق بعد عذاب طويل. انا لا أريدك أن تكون مثل هذه الفيران، خصوصاً وإن السفينة وأن تغرق، وستصل إلى غايتها رغم الأنواء والأعاصير التي شعثتها وأصابت بعض أجزائها بالتكسير والتخريب. إن إصلاح السفينة غير ممكن إلا إذا بقي الملاحون، وتساعدوا وتعاونوا في إصلاح الخراب وجبر الكسور. هذه السفينة لو هجرها الملاحون كلهم مثل هجرانك؛ لكان مصيرها الغرق حتما.

أنا موافق معك أننا أضعنا القسم الأكبر من هذا البلد العزيز، وأعترف بأنه لم يبق في أيدينا سوى بقية عجفاء لا تغني من حيث المساحة والإمكانيات المادية.. ولكني أربأ بك عن الاعتقاد بأن هذا الحال دائم خالد.. الأرض على قداستها وعزتها تُفقد وتُسترجع، وتذهب وتجيء.. رجال هذه الأرض وسدنتها والذين يفدونها هم الذين يفقدونها وهم الذين يسترجعونها؛ وما دام للأرض المفقودة رجال، ليس من الصواب في شيء الاعتقاد بأنها ضائعة. أنا معك بأنّا أضعنا الأرض، ولكن هذا الفقدان مؤقت. وعلى أي حال لم نضع الرجال.. هؤلاء ما زالوا موجودين؟ ما زالت قلوبهم تخفق في عبادة تلك الأرض، ما زالت نفوسهم نفس النفوس التي قاتلت وضحَّت وتألَّمت وتعذبت. لو كنتَ أنت هنا للمستَ بنفسك أن وراء الحيرة والقلق الذي يعانيه اولئك الذين يعبدون فلسطين، أملا وعزماً وتصميماً. ولهذا أرجوك أن ترجع، وأنت تبثّ الدعوة للعودة لفلسطين التي لن نفقدها ما دام أهلها بها.

أرجو أن أكون قد أقنعتك. ليس عندي ما أغريك به سوى الدعوة للواجب والتذكير به. نحن هنا في فلسطين معذّبون شقيّون، ولكن وراء هذا العذاب وهذا الشقاء نحسّ بسعادة عميقة تنبعث من مجرد حقيقة أننا في فلسطين. ومن

أضواء الأمل الراسخ في نفوسنا بأن في قدرتنا السعي لبناء أنفسنا لاسترداد ما ضاع، واعتقادنا الراسخ في واجبنا ورسالتنا، وبذل جهدها في تجنيد الإمكانيات، والوقوف مرة أخرى. ما زالت القلوب نفس القلوب، والسيوف التي علاها بعض الصدأ ستُجلى مرة أخرى.

إذا اقتنعت، يا أخي، فأرجو منك أن ترجع. وإذا رجعتَ فسنذهب معك إلى رام الله، وقت الشروق وسنريكَ، من بعيد، البحر ويافا؛ وسنجعلك تسمع نداءها من بعيد كما نسمعه نحن، وسنريك تلال روبين البيضاء.. علّك تذكر الموسم ومواكب الأطفال المبتهجين بالعيد.

وإذا شئتَ سنأخذك إلى قلقيلية وطولكرم، ونريك من وراء أسلاك الحدود بساتين البرتقال والليمون. وقد يمَنّ الله عليك بنسمة معطرة من النسمات التي تعرفها.. سنريك كل هذا، لا لنجعلك تتحسر وتبكي على الطلول، ولا لنبعث في نفسك حنين الشعراء الباكين النائحين، لا.. ليس هذا قصدنا.. إنما قصدنا هو أن نزيد في لهيب الشعلة التي تستعر في قلبك.. أجل نريد إوارها أن يزيد، وأن يصبح لهبا لافحاً حرّاقاً يدفعنا للعمل والنضال. نريد هذااللهب ان يجلو الصدأ وينير الطريق، ويزيد من إيماننا بأنفسنا ومعنى وجودنا.

ولك في الختام التحيات

القسم الاول

نضال وهزيمة في فلسطين ١٩٤٨

الفصـــل ١

قصة جيش الإنقاذ

اطلعت* مؤخرا على أجزاء من مذكرات فوزي القاوقجي عن جيش الإنقاذ والقتال في فلسطين، نُشرت مؤخرا في صحيفة "بيروت المساء" لم أطلع حتى الآن على جميع ما نشر من هذه المذكرات، وسأحاول أن أطلع عليها كلها، لا لأفند جميع وقائعها، فقد يكون بعض ما بها صحيحاً، ولكن ما قرأته منها حتى الآن قد بينّ لي بوضوح اتجاه مذكرات "فوزي العربَ" نحو إلقاء اللوم على غيره، وعلى الأخص على عرب فلسطين الذين لم يَكفِ أن نكبهم أخوانهم، عرب الأقطار المجاورة، بأنفسهم وأوطانهم، بل زادوا عليهم بتوجيه تهمة الخيانة والغدر والانهزامية لهم، وبالتالي تحميلهم مسؤولية الهزيمة بكاملها.

إني أعترف أن الظرف لا يلائم الكتابة عن هذه الفاجعة التي تسمى جيش الإنقاذ، ولكن هناك اعتبارين يجبرانني على الكتابة عن جيش الإنقاذ:

الأول: إن جيش الإنقاذ، في تشكيله وقتاله وهزيمته، برهان واضح على خطأ اجتهاد الجامعة العربية في السياسة والحرب، وفي تقديرها للموقف في فلسطين، وفي تقديرها لإمكانيات العدو وأساليبه. وأي دراسة جدّية لجيش الإنقاذ تبينّ لنا بوضوح خطوط الهزيمة التي رسمها العرب لأنفسهم في فلسطين.

---

* نشرت هذه الدراسة على ثلاثة عشرة حلقة، في مجلة "الهدف المقدسية في الاعداد:
الاول "١٧ شباط ١٩٥٠/" والثاني "٢٤ شباط ١٩٥٠" والثالث "٣ اذار ١٩٥٠" والرابع "١٠ اذار ١٩٥٠" والخامس "١٧ آذار ١٩٥٠" والسادس "٢٤ آذار ١٩٥٠" والسابع "٣١ آذار ١٩٥٠" والثامن "٣١ آذار ١٩٥٠" والتاسع "٧ نيسان ١٩٥٠" والعاشر "٢١ نيسان ١٩٥٠" والحادي عشر "٢٨ نيسان ١٩٥٠" والثاني عشرة "٥ ايار ١٩٥٠" والثالث عشر "١٢ ايار ١٩٥٠"

الثاني: من المفيد أن نحدد مسؤولية الهزيمة في فلسطين، ولكن من الظلم أن نُتَّهم، نحن عربَ فلسطين، بالضعف والانهزامية والتآمر. لا شك أننا نتحمل قسماً ليس بالقليل من مسؤولية الهزيمة سنوجه التهمة نحن لأنفسنا وبصورتها الصحيحة، ولن نسمح بأن يوجهها لنا قائد مسؤول، عذراً لهزيمته، وتبريرا لعجزه وسوء قيادته، وبصورة أبعد ما تكون من الواقع. لذلك سأحاول في هذا البحث والبحوث التالية أن أدوّن كل ما أعرف عن الخطوات التي استعدَّ بها العرب للقتال في فلسطين، وبشكل خاص عن جيش الإنقاذ الذي التحقت به منذ تأسيسه، وبقيت به حتى إلحاقه بالجيش السوري، وإلى ما بعد الانقلاب العسكري الأول في سوريا.

لن أحاول مطلقا أن أفصّل عن معارك جيش الإنقاذ؛ لأنه لم يكن بينها أية معركة حاسمة بالنسبة للعرب، ولأن جيش الإنقاذ، نفسه لم يكن يملك أية قدرة حاسمة أصلاً، بسبب ضعف إمكانياته المادية والتعبوية. وأرجو ألاّ يفهم من هذا أنني أغمط حق آلاف الضحايا الذين بذلوا حياتهم رخيصة، باستبسال لا مثيل له. فليس من شك عندي أن بعض قطعات جيش الإنقاذ قد قاتلت ببسالة فاقت أي بسالة أبدتها قطعة عربية أخرى في فلسطين، ولكن هذه الحوادث المفردة على روعتها لم تقدم أو تؤخر في تقرير المصير النهائي في فلسطين.

كيف تَشكّل جيش الإنقاذ؟

في عام ١٩٤٦، وبعد نشر تقرير لجنة التحقيق الإنكليزية الأميركية، اخذت بعض الأوساط السياسية الفلسطينية تفكر جدياً بالقيام بحركة نضال مسلح في فلسطين، هدفها الإنكليز واليهود معاً. وقد انقسمت هذه الأوساط إلى فريقين:

الأول يرى في قتال أعوام ٣٦-١٩٣٩ مثلاً يجب النسج على منواله، وبدأ هذا الفريق بتوزيع السلاح بصورة إفرادية على القرويين العرب، كما بدأ أيضاً بحركة

تدريب سرية فردية، وعلى نطاق ضيق، وفي جهات مختلفة من فلسطين وقد كان من البيّن عندئذ أن هذه الطريقة لن تؤدي إلى أي نتيجة سوى إلى تعقيد الأحوال السياسية الداخلية كما أن هذه الطريقة لم تكن مبنية على تقدير صحيح للموقف فالأحوال عام ١٩٤٦ تغيرت كثيراً عن عام ١٩٣٦ من حيث استعداد اليهود وأهداف القتال.

أما الفريق الثاني فقد رأى في الأسلوب السالف مواقع ضعفه وحدوده. ولذا رأى البحث في إمكانية تشكيل وحدات مقاتلة نظامية، على أن يُتَّبَع، في توزيعها ومهماتها، نفس الأسلوب الذي سار عليه اليهود في تشكيلاتهم العسكرية: أي إنشاء حاميات محلية، مهمتها الدفاع عن المناطق العربية، وإنشاء وحدات ضاربة متحركة مهمّتها الهجوم والاحتلال. وقد تقرر عندئذ أن يجري تدريب نواة هذه القوى علنا وفي قطر عربي مجاور، كما وافقت إحدى الحكومات العربية على مدّ هذه الحركة بالسلاح والمال.

على أنّ تصدّع الجبهة السياسية الداخلية في فلسطين، ومخاوف دول الجامعة العربية من بعضها بعضاً. قد وضع المشروع الأخير على الرف، وبقي أسلوب التسليح الفردي مستمرا حتى إعلان مشروع التقسيم.

لا أعرف شيئاً عن تفاصيل مقررات الجامعة، السرية والعلنية، التي انتهت بتشكيل اللجنة العسكرية التي أنيط بها تشكيل جيش الإنقاذ، ولكن الذي أعرفه أن اللجنة العسكرية قد تبنّت المشروع الثاني، مع بعض التحويرات التي قصد منها إرضاء التكتلات السياسية المحلية في فلسطين؛ وبهذه التحويرات بذرت الجامعة العربية عناصر هزيمة العرب في القتال في فلسطين. وأصبح المقاتلون العرب في فلسطين ينقسمون إلى فئتين: فئة تتلقى أوامرها من الهيئة العربية العليا. وفئة تتلقى أوامرها من قيادة جيش الإنقاذ. هذا بالاضافة إلى فئات أخرى كثيرة ادّعت السلطة لنفسها، ولم يكن بين هذه الفئات أيّ تعاون أصولي عسكري، وفي أغلب الأحيان كان بينها تنافر وعداء أضاع على العرب فرصاً كثيرة.

العقبات التي لاقاها جيش الإنقاذ في تشكيله

بُدىء بتشكيل جيش الإنقاذ أمام العقبات والقيود التالية:

أولاً: رغم أن الجامعة العربية كانت تهدد بالقتال منذ سنتين، إلا أن هذا التهديد لم يتعد التصريحات، إذ لم يفكر رجال الجامعة مطلقا في تأمين السلاح والمعدات وتأمين الجنود والضباط المدرّبين.

ثانيا: لم يكن لدى العرب أي استخبارات منظمة صحيحة عن العدو. وإذا تيسّرت بعض المعلومات عن العدو لم يكن يُؤبه لها، واعتُبِرت من باب المبالغة ولا داعي للاهتمام بها.

ثالثاً: فرضت الجامعة العربية على اللجنة العسكرية اعتبار الهيئة العربية العليا واللجان القومية مرجعاً للأمور المدنية والإدارية وتزكية الأفراد. وليس غرضي البحث هنا في تشكيل اللجان القومية، ولكن أكثر القراء يعرفون الفوضى والبلبلة والعجز الذي اتصفت به هذه اللجان، كما يمكن تصور نتيجة ذلك على حركات عسكرية يلزمها الاستناد إلى جهاز إداري في غاية القدرة والاستقامة.

رابعاً: قُسِّمَت فلسطين عسكرياً إلى مناطق لم تفرضها الضرورة العسكرية، بل فرضتها حزازات حزبية ومحلية بحتة تهدف إلى تأمين مناطق نفوذ حزبية وعائلية.

خامساً: لم تكن للّجنة العسكرية أي حرية في انتقاء قواد القطعات والحاميات، وأكثرهم فُرض بسبب ميولهم الحزبية، وولائهم للهيئة العربية، ولم تكن مقدرتهم العسكرية بذات أهمّية.

سادسا: هيمنت ثورة ١٩٣٦ وظروفها على عقول أكثر المسؤولين في اللجنة

العسكرية وقد كان من الصعب أن تقنع أحداً بأن الظروف لم تعد نفس الظروف، وأن العدو قد تغير والسلاح قد تبدل، وأن قادة العصابات عام ١٩٣٦ قد لا يصلحون للقيادة في قتال مُنَظَّم واسع النطاق.

سابعاً: كان من أسوأ الأمور البدء بالمناوشات مع العدو عند إعلان التقسيم، وبصورة غوغائية لا نظام لها، جعلت الأمور تفلت من أيدي المسؤولين، سياسيين كانوا أم عسكريين.

لقد بيّنتُ الصعوبات والعقبات والعراقيل التي وُجدت إبّان تشكيل جيش الإنقاذ وأريد الآن أن افسّر نتائج ذلك عسكريا.

النتائج التي ترتّبت على تلك العقبات:

أولاً: يجب أن يكون تقدير الموقف العسكري قبل الشروع في أي قتال، تقديراً موضوعياً يستند إلى حقائق صحيحة ثابتة حديثة عن العدو وسلاحه، ووسائله وتدريبه، وإمكانياته، ونواياه، وروحه المعنوية، وجميع التفاصيل والوسائل التي يُجنّدها للقتال، كما يشمل تقدير الموقف المعلومات نفسها عنّا وعن إمكانياتنا. وتقدير الموقف هذا أمر أبعد ما يكون عن العواطف والمقارنات التاريخية ورغبات جمهرة الناس، وهو بكل اختصار حساب تجاري محض لكل عناصر رأس المال الذي يستخدم في القتال. وتقدير الموقف هو الاستخبارات عن العدو. وفي حالتنا لم يكن ذلك بالشيء العسير، اللهم إلا أن نكون أُصبنا بالعمى والصمم، فلم نرَ أو نسمع عن استعداد العدو وتدريبه وتسلحيه وحركات ارهابه، وظللنا طيلة الوقت متعامين عن هذا بالنظر إلى أمجاد عام ١٩٣٦.

وسوء تقدير الموقف هو الذي جعل اللجنة العسكرية تعتقد أن كل شيء يصلح

لمعركة فلسطين، أيّ نوع من الجنود، أيّ نوع من الضباط، وأيّ نوع من السلاح. وسوء تقدير الموقف هو الذي جعل اللجنة العسكرية ترضى بمختلف القيود والتوجيهات التي تتنافى مع أبسط المبادئ العسكرية، من حيث تقسيم المناطق والشؤون الإدارية والمدنية.

ثانياً: من البديهي أن القتال الحديث يستلزم درجة عالية من التدريب في الجنود والضباط، أما الشجاعة والحماس الفردي للقتال فلا تأتي إلا في آخر قائمة المستلزمات للجندي الذي يجب ان تكون شجاعته منبثقة بالدرجة الأولى من تدريبه وثقته بقيادته. عندما فتح باب التطوع لجيش الإنقاذ أخذ المسؤولون يقبلون جميع المتقدمين، مهما كان نوعهم وخبرتهم وحتى كفاءتهم الصحّية والخلقية، بحجة أن القتال في فلسطين جهاد يجب أن لا يحرم عربي منه. ولا حاجة للقول إنّ مثل هذه الحجة ساقطة عسكرياً، بل هي مدعاة للهزء والسخرية، وقد أدّت إلى حشد عدد كبير من المشرّدين والمجرمين والملاحقين من القضاء في صفوف جيش الإنقاذ وقد لوّنت هذه الفئة جيش الإنقاذ بلونها الذي طغى على فئة أخرى ممتازة تجندت هي الأخرى في جيش الإنقاذ.

ثالثاً: من المبادئ العسكرية المعروفة أن أي قطعة عسكرية من واجبها الدخول في معركة ما، عليها بقدر الإمكان أن تختار زمان ومكان التماس مع العدو، وفي أغلب الأحيان عندما يحدث هذا التماس بدون تصميم، تضطر القطعات العسكرية إلى الانسحاب والتراجع، لتختار مكانا وزماناً أصلح للتماس، ما لم تكن هناك ضرورة قطعية تستلزم التورط في المعركة. وعندما أعلن مشروع التقسيم، تُرك أمر التماس مع العدو على غاربه، وحدث التماس في مئات الأمكنة وأكثرها غير ملائم، مما فرض على جيش الإنقاذ قيودا تعبوية وسوقية لا طاقة له بها. وأدى فقدان ضبط المقاتلين إلى انهيال طلبات النجدات والسلاح على اللجنة

العسكرية وقيادة جيش الإنقاذ، مما جعلها تسرع في تلفيق النجدات وإرسالها إلى فلسطين ناقصة التشكيل والتسليح والتدريب.

هذه باختصار بعض من الحقائق والظروف والملابسات التي أطاحت وأثّرت في تشكيل جيش الإنقاذ، أوردها، باختصار، لأبينّ للقارئ نوع العقلية والتصميم اللذين دخل بهما العرب القتال لانقاذ فلسطين.

التجنيد والتدريب

بدأ التجنيد لجيش الإنقاذ يتخذ صورة جدية في مطلع عام ١٩٤٨، حيث فُتِحَ باب التجنيد على مصراعيه، وجُنِّد كل من تقدم دون أي بحث جدّي في ماضي المجند ومؤهلاته وحتى جدارته الطبية. كان يكفي أن يتقدم المتطوع بشهادة من مختار قرية ما، أو من إحدى "اللجان القومية". أو من إحدى جمعيات إنقاذ فلسطين المتعددة، يقبل فوراً!! وعلى هذا تشكّل الجيش من فئات متعددة النوع والشكل والدافع: فئة مخلصة في نيتها للقتال، ومندفعة عن حماسة صحيحة أكيدة، وأكثر أفرادها من الجنود السابقين وطلبة المدارس وصغار الموظفين والفلاحين الفلسطينيين. أما الفئات الأخرى فهي مزيج غريب من المرتزقين والمغامرين والفارّين من وجه العدالة والمساجين السابقين، وحتى من عملاء العدو.

هذا بالإضافة إلى الوحدات الإقليمية التي كانت ترُسل من جهات معينة وتشكل سرايا إقليمية يصعب ضبطها وإدارتها. فقد تشكّلت مثلاً سرية من حلب تدعى "أسود الشهباء"، ومجموعة سرايا للأخوان المسلمين، وسرية أردنية وأخرى بدوية، من قبيلة بعينها، وأخرى من دير الزور، وهكذا..

ومن البديهي أن مثل هذا المزيج تصعب قولبته وصوغه وتدريبه حتى في وقت طويل. ومن السهل أن يتصور القارئ أن الوقت القصير جدا الذي خُصّص للتدريب لم يستطع أصلاً جعل هذا الجمع من الناس يشابه، ولو بشكل باهت،

وحدة عسكرية معقولة.

هذا بالإضافة إلى أن الحزازات الحزبية المحلية انعكست بشكل واضح على الجنود الفلسطينيين بشكل خاص، فقد انضم قسم كبير من المتطوعين الفلسطينيين إلى جيش الإنقاذ وهم موجّهون حزبيا؛ لأنه -كما أسلفت- كان هناك نزاع على مَنْ سيتولى مهمة قيادة القتال في فلسطين، لا لاعتبارات الكفاءة والجدارة، بل لاعتبارات حزبية "إقطاعية" صرفة.

ومثل هذه الفوضى بالتجنيد كان هناك فوضى في التدريب والتجهيز. فباستثناء جماعة صغيرة دُرِّبت تدريبًا أصوليًّا على أعمال النسف والتدمير والكوماندو، لم يُدرَّب باقي الجنود حتى إلى درجة جزء من ألف مما يتدرب عليه عادة جنود الجيوش النظامية. أضف إلى ذلك أن نوع القتال في فلسطين لم يكن مفهوماً من قبل اللجنة العسكرية؛ والتدريب يستند، عادة، إلى فهم صحيح لنوع القتال الذي تنوي الوحدات خوضه، ونوع القتال في فلسطين لم تعرفه اللجنة العسكرية، وبالتالي لم تهيئ للجنود برامج التدريب المبدئية جدا، فقد حدث أن الجندي كان يرُسَل للجبهة في اليوم الثاني لوصوله إلى معسكر التدريب وفي كثير من الأحيان كان يرسَل المتطوعون في ألبستهم المدنية، ويجري تشكيلهم، وتوزيع الملابس والأسلحة عليهم في الطريق.

أما وضعية السلاح والذخيرة فقد كانت مبكية حقا، أذكر هذا لا على سبيل إيجاد العذر للَّجنة العسكرية، فلم يكن هناك أي سبب يمنع تلك اللجنة من الحصول على أسلحة جيدة وضرورية، وحتى في وقت قصير، وسأفصل ذلك للقراء في مقال خاص عن وضعية شراء السلاح.

وعلى هذا تسلَّح جيش الإنقاذ بمزيج غريب من الأسلحة المتنوعة. بعضها ملفَّق، وبعضها بالٍ لايصلح للاستعمال. وُزِّع دون ان يُعرف ما هو عتاده وكيفية استعماله وإني أذكر جيداً أن بعض أنواع الأسلحة والقنابل التي وُزِّعَت على جنود جيش الإنقاذ قتلت منهم أكثر مما قتلت من الأعداء بسبب سوئها وقِدَمِها.

تشكيل القيادة

يعرف القراء أن القيادة العامة لقوات فلسطين قد أُسنِدَت للجنرال صفوت باشا، من الجيش العراقي، يعاونه العقيد محمود الهندي، والعقيد شوكت شقير، وكاتب هذه الأسطر كما أسندت مفتشية التطوع العامة للماريشال طه باشا الهاشمي، وعُيِّنَ العقيد محمد صفا والعقيد أديب الشيشكلي والقائد فوزي القاوقجي قادة للقطعات في فلسطين.

وكما هي العادة في جميع الجيوش النظامية، كانت مهمة مفتشية التطوع العامة هي "التعبئة"، ومهمة القيادة هي "السوق" -بعبارة أخرى- كانت مهمة المفتشية تهيئة الجنود والضباط والسلاح، ومهمة القيادة استخدام هؤلاء وهذا في القتال.

وقد وضع الجنرال صفوت، ملاكاً مضبوطاً للقيادة. كما وضع الخطوط الرئيسية للتسلسل والقيادة، ونُظّمت الإدارة والتموين والاستخبارات والمواصلات حسب الأصول المتبعة في الجيوش النظامية، وعلى افتراض أن جميع المقاتلين في فلسطين سيرتبطون من حيث الإدارة والحركة بالقيادة. على أن جميع هذه الترتيبات راحت عبثاً وبدون فائدة للأسباب التالية:

أولاً: لم يكن هناك انسجام من حيث العمل بين المفتشية والقيادة بسبب الإمكانيات في الجنود والسلاح، وبسبب أن الطرفين مختلفان بفهمهما للقتال ونوع الحركات في فلسطين.

ثانياً: كان هناك فقر مدقع بالضباط، وعلى الأخص الضباط الخبراء بالنواحي الفنية في التدريب والتموين والإدارة والسَّوْق.

ثالثاً: كان من الصعب على معظم قادة القطاعات والحاميات، تنفيذ أوامر وتعليمات القيادة، إما بسبب عدم إدراكهم لأهميتها، أو بسبب جهلهم، او بسبب ارتباطاتهم الحزبية التي تمنعهم عن الإنصياع لأوامر القيادة.

رابعاً: لم تحدد تماماً صلاحيات وسلطات مختلف الجهات والضباط، ومثال على ذلك كان القائد فوزي القاوقجي يعتبر نفسه قائد الميدان بأجمعه، بينما اعتبرته القيادة قائد منطقة لا غير. هذا بالإضافة إلى المشاكسات المحلية على المناطق والنفوذ وخلافها.

والأنكى من كل ذلك، أن الجنرال صفوت باشا القائد العام. لم يكن متفرغاً بكليته للقيادة، فقد أضطر بسبب الفوضى والمنازعات إلى قبول التدخل في مختلف المشاكل والتعقيدات السياسية في الجامعة العربية واللجنة العسكرية والهيئة العليا وأصبح مثل مندوبي الجامعة العربية، لا يفتأ يطير من عاصمة إلى عاصمة ويُستدعى هنا وهناك، دون أن تُترك له فرصة لدعم قيادته وفرضها فرضاً كافياً على القطاعات.

وأرى واجباً علي بهذه المناسبة أن أذكر ان الجيش السوري قد وضع جميع إمكانياته: من سلاح ومستودعات ومعسكرات وضباط أكفاء في خدمة اللجنة العسكرية. ولكن هذه المعونة الممتازة ذهبت هباء، لأنه لم يكن هناك هيكل منظم فعّال يستغل هذه الإمكانيات التي وضعت تحت تصرفه.

ومقابل هذه الفوضى في دمشق كانت هناك فوضى مماثلة في فلسطين، فقد تشكّلت في مختلف مناطق فلسطين قيادات متعددة، لها رُتبها ونظمها وتشكيلاتها واستخباراتها، ولا تعترف بكثير أو قليل بالقيادة العامة، ولاتدرك معنى الانسجام في القتال والتعاون في الحركات.

الحاميات

كان يفترض في حاميات المدن والقرى العربية أن تكون الركن الأساسي في القتال مع العدو، وقد كانت النية أن تبدأ هذه الحاميات بقتال دفاعي إلى أن تقوى وتنظّم وتتحول إلى الهجوم. على أن ما حدث هو أن الحاميات كانت اشدّ فوضى واضطرابا من القوى الضاربة. وقد تولى أمر هذه الحاميات. ضباط ليس لديهم أي فكرة عن قتال الشوارع، والدفاع عن المناطق المسكونة، ولكني أحكم الآن في ضوء النتائج، وأعرف الشيء الكثير عن تفاصيل الوضع في هذه الحاميات؛ وأعرف أنه كان في حيفا أربع قيادات مستقلة عن بعضها بعضاً استقلالاً تاماً، والتعاون بينها معدوم، وقد وصل الأمر بينها إلى درجة تشبه القتال، وأعتقد أن الوضع في بقية الحاميات لم يختلف كثيراً عن وضع حامية حيفا.

وبهذه الوضعية كانت النجدات التي ترسل لمختلف الحاميات نجدات ضائعة لا فائدة منها، ولم تنفع مطلقاً في تحسين الوضع العسكري في المدن والقرى. بل زادته سوءا، وربما كانت السبب المباشر في سقوطها وضياعها.

وقد كانت الطريقة التي تُعزَّز بها الحاميات كالآتي:

يأتي وفد من أهالي مدينة يافا، -مثلاً- لمقر القيادة في دمشق، ويطلبون أن تنجدهم بقوة من الجنود والسلاح، ويطلبون تعيين آمر لحامية المدينة. وعندها تقرر القيادة -بعد استشارة الهيئة العربية العليا- تعيين ضابط ما لقيادة الحامية، وهو على العموم عاجز وضعيف، ولا يمكنه الحسم في أي موضوع، وتتحرك هذه النجدة إلى مكانها ويضطر آمرها، بحكم ضعفه الشخصي وضعف قطعته عسكريا، إلى مسايرة الوضع السابق في ذلك المكان، وقبوله برمته، وبجميع أخطائه التعبوية والسوقية. وبذلك تصبح هذه النجدة بلا فائدة سوى إنها جعلت سكان ذلك المكان يتواكلون بعض الشيء، ويتهاونون في واجبهم؛ وتكون النجدة قد زادت، في القيادات المتعددة، قيادة أخرى، دون أن تزيد في الفعالية العسكرية لحامية ذلك المكان.

وهذا الأسلوب الذي اتبعته القيادة هو أسلوب فاضح جاهل، مناقض لأبسط مبادئ القتال. والأصول التي تتبع عادة هي كالآتي: عندما تتحرك قطعة ما لنجدة موقع قتال، يفترض في آمر تلك القطعة أن يُقدِّر وضعية القتال في ذلك الموقع تقديراً صحيحاً، فعليه عندئذ أن يتبنى الموقع بأكمله ويعززه بالنجدة التي يقودها. أما إذا كان أسلوب القتال خاطئًا -وفي جميع الحاميات كان أسلوب القتال من أفجع ما يكون- فعلى الآمر عندئذ أن يفترض أن موقع القتال المذكور خالٍ تماماً من جميع القوى الصديقة والمساعدة. وعليه أن يرُتِّب نجدته وحدها لمهمات القتال في ذلك الموقع دون اعتبار لوجود القوات الأخرى.

هذا المبدأ لسوء الحظ لم يُتَّبع، لأن النجدات التي كانت تُرسَل للحاميات كانت بإمكانياتها من حيث القيادة والنجابة العسكرية، أضعف من أن تسيطر على الموقف أصلاً.

حاولتُ حتى الآن، أن أرسم للقارئ، صورة واضحة مختصرة عن المادة البشرية التي تَشكَّل منها جيش الإنقاذ وصورة عن الجهود التي بُذلت في تدريب وتنظيم وتسليح هذا الجيش.

ومن الجلي أن هذه الجهود في التنظيم والتدريب والتسليح لم تكن كافية بحال من الأحوال من وجهة عسكرية عامة، وبذلك تحددت، سلفاً، إمكانيات الاستفادة من قطعات جيش الإنقاذ في القتال في فلسطين وبعبارة اخرى لم يُعطَ قادة الميدان الوسيلة القادرة على تحقيق أي هدف من أهداف القتال في فلسطين.

وعلى هذا فإن القيادة في دمشق قد أعطت جميع قادة الميدان، بما في ذلك فوزي القاوقجي، حجة مبدئية في أن الوسائل التي اعطيت لهم ليقاتلوا بها لم تكن كافية لمواجهة الموقف، وهم على حق في هذا الادعاء، إذ إنَّ من الواضح أنك قبل أن تحاسب الجندي على قتاله، يجب أن تحاسب نفسك على السلاح الذي سلّحته به، والتدريب الذي دربته عليه، والملابس التي ألبسته إياها، ووسائل النقل التي زودته بها. الشيء نفسه ينطبق على القيادة باعتبار أن القطاعات هي محصلة لقوى الجنود مجتمعة.

وحدات جيش الإنقاذ في فلسطين

كان من أول القطعات التي تحركت لفلسطين فوج اليرموك الأول بقيادة العقيد محمد صفا، وقد تمركز في منطقة جنين، وفوج اليرموك الثاني بقيادة العقيد أديب الشيشكلي، وقد تمركز في الجليل ومنطقة صفد. وتبع هذين الفوجين فوج الحسين، وفوج القادسية، ثم لحق بها، القائد فوزي القاوقجي مع ما يسمى سرية القيادة والمدفعية وبعض المصفحات. وبعد المناوشات المبدئية أخذت القيادة في دمشق ترسل قطعات صغيرة لتعزيز قطعات الميدان، كما سُمح لقواد الميدان بتجنيد عدد معين من الجنود الفلسطينيين لتعزيز قطعات الميدان. وهذه القطعات التي أُسمّيها أفواجا لم تكن كذلك بالمعنى العسكري، لا من حيث التسليح ولا من حيث التدريب؛ بل كانت عبارة عن كتل بشرية مسلحة أشبه ما تكون بالعصابات الكبيرة، وبسبب كبرها لم تكن تملك المرونة وسرعة الحركة التي تملكها العصابات عادة.

وبسبب قلة الضبط وسوء التنظيم، يمكن القول إن هذه القطعات تبعثرت بعض الشيء فور وصولها لفلسطين؛ فقد كان الجندي الذي لا تعجبه الخدمة في فوج الحسين، مثلاً، يهرب، بسلاحه وينظم إلى فوج القادسية، ويكون آمر فوج القادسية حينئذ بحاجة ماسة إلى الجنود بحيث يرحب بأنضمام هذا الجندي له. ومن هنا بدأت برقيات القاوقجي التي تدّعي أن هناك مؤامرة محلية هدفها تحريض جنود قطعاته على الفرار.

وبدأت برقيات تتوالى على القيادة في الشكوى من ذلك، وبدأ ترديد النغمة المعروفة عن عدم تعاون الفلسطينيين وخيانتهم، إلى آخر هذه القصة المعروفة.

لا أعرف الشيء الكثير عما إذا كان هناك مؤامرات لتحريض الجنود على هذا السلوك، ولكنني أعتقد أن السبب الرئيسي، في هذه البعثرة، هو سوء تنظيم القطاعات، وقلة ضبطها، ونقص الضباط القادرين على السيطرة التامة على

جنودهم. هذا بالإضافة إلى ان قوى القاوقجي قضت مدة ليست بالقصيرة وهي في ركود تام، بينما كانت الحاميات والجهات الأخرى، وعلى الأخص في منطقة القدس، تتميز بنشاط محسوس، دفع أكثر الجنود المتشوقين للقتال والمغامرة إلى الفرار من الجبهات الراكدة إلى الجبهات الأكثر نشاطاً.

هذه القطعات التي أسلفتُ الحديث عنها وعن تشكيلها وتدريبها وتنظيمها وتسلحيها، هي القسم الرئيسي من القوة التي أُسندَت لها مهمة قتال اليهود، ومهمة إنقاذ فلسطين والآن فلأتحدث عن قتالها ومعاركها:

أولاً: باستثناء معارك الزراعة، ومشمار هاعيميك، ومعركة المالكية الثانية، والهجمات المعاكسة في ترشيحا وسيانا وعيلبون وسخنين. كانت جميع المعارك الأخرى عبارة عن اشتباكات دفاعية، كانت المبادأة فيها للعدو.

ثانياً: من الأصح أن تسمى هذه المعارك اشتباكات. والفرق بين المعركة والاشتباك هو أن المعركة عمل فني منظم، مقيد بأصول فنية توجّه القتال والنار، وتعتمد على الحركة والمرونة والتوازن، وتخضع، بجميع تفاصيلها ووقائعها، لتوجيه محكم يقوم به آمر المعركة، وفقاً للخطة الموضوعة قبلا والمدروسة باعتبارات الأرض وقوى العدو وحركاته، أما الاشتباك، فلا يتعدى تبادل النيران باستمرار، وبصورة بدائية لا ضابط لها. وبينما تقدر نتائج المعركة، وتوقيت تلك النتائج قَبْلياً، لم تكن نتائج الاشتباك تعرف إلا عند حدوثها. وأقرب تشبيه أورده لبيان الفرق بين المعركة والاشتباك هو لعبة الشطرنج ولعبة السيف في ورق اللعب: ففي الأولى جهد عقلي منظم وخطة، بينما في الثانية مصادفات ومفاجآت. ولا أعني أن المعركة تخلو من المصادفات والمفاجآت؛ فهي كثيرا ما تحدث حتى في أكثر المعارك ضبطا، ولكن حدوثها يتم وسط إطار منظّم من أقسام المعركة، بحيث يمكن معالجتها ومواجهتها.

ثالثاً: كان من السهل التنبؤ بأن قطعات جيش الإنقاذ -مع ما أسلفتُ عن تدريبها وتنظيمها وضبطها وتسلحها وقيادتها- لا تستطيع القيام بأي عملية حربية يمكن تسميتها معركة بالمعنى الفني، إذ إن قطعات من هذا النوع، تنقصها المرونة اللازمة للمعركة. والمرونة صفة للقطعات الحسنة التدريب والمنسجمة والمسلحة جيداً، والتي ملاكها مضبوط بعدد كافٍ من الضباط وضباط الصف.

رابعاً: أعترف بأني لا أعلم الكثير عن تفاصيل مختلف الاشتباكات التي قام بها جيش الإنقاذ، وخصوصاً في الفترة الواقعة بين دخوله فلسطين الوسطى حتى انسحابه منها عند دخول الجيوش العربية القتالَ في ١٥ ايار ١٩٤٨، ومعلوماتي عن هذه المعارك في هذه الفترة لا تعني سوى دراسات بعيدة للتقارير التي كانت ترسل عن المعارك من قبل قواد المناطق والحاميات، هذا بالإضافة إلى تقارير الاستخبارات عنها، وعلى الأخص تقارير العدو، عن تلك المعارك، وعلى كل حال، لن أقوم هنا بسرد قصصي تفصيلي لمعارك جيش الإنقاذ في فلسطين، وإنما سأحاول فقط بحث النقاط الحسنة والأخطاء، وقيمة كل معركة، من حيث تأثيرها على مجرى القتال، فيما بعد.

معركة الزراعة

كانت هذه المعركة أولى النكسات التي أُصيبَ بها جيش الإنقاذ في فلسطين، لا من جهة الخسائر التي مُني بها، فقد كانت لا تتعدى الخمسين قتيلاً وجريحاً، ولكن من جهة أنها فضحت للعدو إمكانيات جيش الإنقاذ، وبيّنت للقيادة بوضوح نقاط الضعف والنقص في تشكيل وتسليح "الإنقاذ".

قام بهذه المعركة فوج اليرموك الأول، بقيادة العقيد محمد صفا، وهو باعتقادي من أكفأ الضباط العرب وأقدرهم، وقد قرر الهجوم بقوته على مستعمرة الزراعة في منطقة بيسان، وتدمير المستعمرة ثم الانسحاب منها. وقد كانت الأسباب التي

دعته للقيام بهذا الهجوم أسباباً تجريبية ونفسية أُلخصها بما يلي:

أولاً: تجريب قوته ومعرفة مدى فعاليتها وضبطها في القتال، ونوع قتالها بصورة عامة.

ثانياً: محاولة فهم اليهود وأساليبهم في الدفاع والهجوم.

ثالثاً: فحص مدى صحة تقارير الاستخبارات في المستعمرات وقوّتها ووسائل دفاعها.

أما السبب الرئيسي لهذه المعركة فهو باعتقادي أن العقيد محمد صفا كان قد عُينً، قبل تسلمه قيادة فوج اليرموك الأول، آمراً لمعسكر تدريب جيش الإنقاذ، وقد قضى مدته في معسكر التدريب، وهو في مشادة شرسة مستمرة مع مُفتشيّة التطوع حول التسليح والتدريب ونوع الجنود والضباط ومن العدل أن أذكر أن جميع اعتراضاته في ذلك الحين كانت في موضعها، وصحيحة من وجهة نظر عسكرية، ولكن المفتشية أعارت كل هذه الاعتراضات أذنا صماء، وجعلت العقيد صفا "يطفش" عندما سنحت له فرصة قيادة فوج اليرموك الأول، وعلى أمل أن تكون له حرية أكثر في فلسطين في تشكيل وتدريب قوته.

على أن أذن القيادة ظلت صماء حتى بعد وصول العقيد صفا إلى فلسطين، وإني ما زلت أذكر، بكثير من الألم، تقاريره المتوالية المملوءة بالطلبات والاقتراحات. كلها رجاء واستنجاد، ولكن لا حياة لمن تنادي.

واخيراً قرر الهجوم على الزراعة ليحصل على الدليل الحسّي لما يعتقده، وقد أرسل يقول إنه كان يعرف النتائج سلفاً.

أما خطة المعركة فقد كانت أصولية من حيث توزيع القطعات على الأرض، وساعات وخطوط الشروع والتوقيت، وتوزيع المهمات، وجميع التفاصيل الأخرى اللازمة، حتى حالة الطقس والمطر.

وقد وزع أمر الحركة على الضباط قبل المعركة بـ "٤٨" ساعة. ودّرس الأمر،

جرئ في اجتماع عقده صفا مع بقية ضباط الفوج، كما دُرست جميع التطورات التي قد تحدث، ووُصف سلفا علاجها. أما ما حدث فالآتي:

١- لم يبق إنسان في منطقة جنين لم يعرف عن زمن الحركة وتفاصيلها. وبالطبع تسرّبت هذه الأخبار نفسها للعدو.

٢- تاهت أكثر السرايا عن طرقها ونقاط شروعها، وبعضها تبعثر قبل الوصول إلى خطوط الشروع.

٣- أمطرت الدنيا مطراً غزيراً بخلاف التقرير الجوي.

٤- بدأ الهجوم بأقل من نصف القوة المقررة للهجوم، بسبب تأخر بعض السرايا عن الوصول إلى خطوط الشروع.

٥- تعطل أكثر من ٧٠٪ من أسلحة القوة الأوتوماتيكية والعادية.

٦- تبيّن أن النطاق الدفاعي للمستعمرة يختلف تماماً عن وصف تقارير الاستخبارات له، ووصف السكان لتوزيع الاستحكامات.

٧- مع أن انسحاب القطعات كان مؤقتّاً، إلا أنها بدأت تنسحب بلا انتظام، وبوضعية تشبه الفرار. وفي هذا الانسحاب وقعت أكثر الإصابات في الجنود.

٨- انعدم الضبط في القوة المهاجمة، وفقد أكثر الضباط سيطرتهم على الجنود، وانتهت المعركة بالهزيمة التي يعرفها الجميع.

لقد أسهبت في وصف الزراعة، لأنها باعتقادي، صورة ملخّصة لقصة القتال في فلسطين. إن هذه المعركة كانت نكسة مؤلمة، ولكن كان في المستطاع حينئذ، تلافي جميع الأخطاء التي تمنع تكرار تلك النكسة، واعتبارها درساً بليغاً يجب الاتعاظ به، وخصوصاً أن العقيد صفا كتب للقيادة تقريرا مفصلا مسهبا في أكثر من "٣٠" صفحة، يشرح فيه جميع نقاط الضعف التي سببت الهزيمة في تلك المعركة، وطرق معالجتها وتلافيها. وتنبأ سلفا بأن قواته، إذا ظلت على حالها من الفوضى والضعف في التدريب فلن تتمكن من القيام بأي مهمة قتال توكّل لها.

معركة مشمار هاعيميك

لم تكن معركة الزراعة، بذاتها، أو بدروسها وعبرها، ذات أثر كبير لاحق. ولم تغير هذه المعركة من وضعية العرب او اليهود نفسيا. وظلت وضعية القتال عامة كما هي دون تبديل أو تغيير، خصوصاً وأن العدو لم يستعمل في الدفاع عن الزراعة قوته الضاربة "البالماخ".

أما معركة مشمار هاعيميك، أولى معارك فوزي القاوقجي، فهي هزيمة مرّة وفاجعة، أفقدت جيش الإنقاذ كل مبادأة كانت في قدرته، وقلبت قتاله إلى دفاع مستكن ثابت، وجعلت الجيش يتمركز تمركزاً دفاعياً جامداً لا مرونة فيه، وجعلت العدو منطلقا في حرية ضرباته، أينما شاء وفي أي وقت شاء.

وضع خطة الهجوم على مستعمرة مشمار هاعيميك المرحوم المقدم مأمون البيطار، رئيس أركان فوزي القاوقجي المدفعية؛ وهو ضابط كفء ممتاز قدير من ضباط الجيش السوري.

وقد اختار المقدم مأمون مستعمرة مشمار هاعيميك كهدف للهجوم نظراً لموقعها الاستراتيجي الممتاز، وكان يأمل أن تنجر نجدات العدو للمستعمرة إلى الدخول في معركة مكشوفة كبيرة، استعد المقدم مأمون لها بقوات احتياطية مخفية، أي أن هدف المعركة كان مزدوجاً.

أما خطة الهجوم على المستعمرة فقد كانت محكمة في توزيع القوات، وتوقيت الشروع، وتتلخص فيما يلي:

اولاً: وضعت قوة لقطع طريق مشمار هاعيميك - العفولة.

ثانياً: وضعت قوة أخرى لقطع طريق مشمار هاعيميك - حيفا.

ثالثاً: وُزعّت قوى أخرى لقطع المسالك الجبلية، غرب وشمال المستعمرة.

رابعاً: تمركزت القوى المعدة للهجوم شرق وجنوب شرق المستعمرة وانتظرت أوامر الشروع.

بدأت المعركة بقصف سريع من المدفعية للمستعمرة لمدة خمس دقائق، وتلا هذا القصف ستار من المدفعية والرشاشات تقدم تحته، المشاة، واحتلوا النطاق الدفاعي الخارجي للمستعمرة، وبدأوا بالتقدم لاحتلال الأبراج الدفاعية الرئيسية وسط المستعمرة.

في هذا الوقت أصبح سقوط المستعمرة أمرا محتوماً. ولكن مختارها جاء، مع بعض ضباط الجيش البريطاني ليفاوض فوزي القاوقجي، على مهلة التسليم، جواباً على الإنذار الذي وجهه القاوقجي للمستعمرة، بعد الهجوم وقد طلب مختار مشمار هاعيميك مهلة ليتصل بالوكالة اليهودية بشأن التسليم. وقد جازت هذه الحيلة -ولا أدري كيفا- على القاوقجي، فمنحه المهلة التي طلبها، وأمر وقف الهجوم، كما امر بتقديم المدفعية بلا حماية إلى خطوط أمامية بحجة ضرب الأبراج الرئيسية في المستعمرة، ولإرهاب المدافعين بمنظرها.

في أثناء المهلة المعطاة لليهود، تمكّن العدو من حشد لواء كامل من البالماخ في الغابات شمال وغرب المستعمرة، كما تمكّن من نجدة سكان المستعمرة بقوة مساعدة. وقبل انتهاء مهلة الهدنة المزعومة.

بدأ العدو القتال، وهاجمت قواته قوات جيش الإنقاذ المحدقة بالمستعمرة وهزمتها. واحتل العدو المنسي وأم الفحم، واقترب من اللجون. وقد كان هذا الهجوم من الشدة بحيث بعثر قطعات جيش الإنقاذ، وأحدق بكثير منها، وكادت المدافع تسقط في يد العدو لولا محاولة مستميتة يائسة لإنقاذها، استشهد أثناءها المقدم مأمون البيطار، ولم ينقذ القاوقجي وقواته من الدمار والتشتت حينئذ سوى نجدات قوية باسلة من الفلسطينيين الذين هرعوا من كل جهة لقتال العدو، وتمكنوا بمعاونة سرّيتين من جيش الإنقاذ، من ردّ العدو إلى مشمار هاعيميك، مرة أخرى، بعد أن أوقعوا به خسائر لا بأس بها.

مناقشة معركة مشمار هاعيميك

يتبيّن مما ذكر أن هدف المعركة وخطتها لا اعتراض عليهما، وكذلك أسلوبها وتوزيعها واستخباراتها وسلوك القطعات المبدئي فيها.

أما الأخطاء التي أدّت للهزيمة فهي:

أولاً: الأمر بوقف هجوم القطعات المتقدمة بحجة مفاوضات التسليم.

ثانياً: الأمر بتقدم المدفعية بلا حماية إلى خطوط أمامية.

ثالثاً: العمى التام عن حركات العدو أثناء هدنة التسليم.

وإني أورد فيما يلي، بأختصار التفسير العسكري لهذه الاخطاء:

اولاً: لا يجوز، عسكرياً، وقف اندفاع قطعات مهاجمة مهما كانت الأسباب: والتوقف في الهجوم يحدث عندما تعجز القوى المهاجمة تماما عن الاستمرار في التقدم نحو أهدافها. وعندئذ، فقط، تحاول هذه القطاعات التمركز قبل أهدافها، ويصبح القتال عندها مساجلة بين المهاجمين والمدافعين، ويكون هذا السجال اضطراريا بصورة مطلقة، سببه تعادل القوى، أو عناد وصلابة وسائل الدفاع. وفي أي هجوم على أي هدف يجب استغلال اندفاع القوى المهاجمة إلى أبعد الحدود، وأقصد بالاندفاع، الاندفاع المنظم بحسب الخطة وليس الاندفاعات التي سببها الحماس الزائد أو الاستهتار.

إن وقف الهجوم في معركة مشمار هاعيميك ليس له أي مبرر. أما حجة المفاوضة على التسليم فقد كانت لعبة بارعة من العدو لا تجوز على أي قائد يفترض فيه أنه مُحتاط لألاعيب العدو وحيله. وإذا فرضنا جدلاً بأن وقف الهجوم كان لأسباب اضطرارية، فيجب عندها اتخاذ احتياطات إضافية لحماية الجنود

المتقدمين، من استحكامات ونجدات. وهذه كلها لم تعمل، وتركت القطعات في فترة شلل واسترخاء وإهمال، مما سهّل على العدو هزيمتها فيما بعد.

ثانياً: عندما لا يكون لدى العدو مدفعية، فليس من مبرر يستلزم الأمر بتقديم المدفعية إلى الأمام، وخصوصاً إذا كان هذا التقدم بلا حماية. هذا بالإضافة إلى أن مدفعية جيش الإنقاذ حينئذ كانت ثمينة عزيزة؛ لأنه لم يكن في فلسطين- على ما أعرف- غيرها وربما يحدث، في الجيوش الكبيرة، أن تتقدم المدفعية ولكن تقدّمها يكون محمياً. هذا بالإضافة إلى أن الجيوش الكبيرة تستطيع تحمّل خسائر بعض مدافعها، أمّا في حالة جيش الإنقاذ فلم يكن يملك سوى هذه المدافع. إنني أذكر هذا السبب، مع أني لا أعتبره سبباً مباشراً في خسارة المعركة، ولكنّه تسبب في استشهاد المقدم مأمون البيطار. وكان في ذلك، على ما أعتقد، خسارة كبرى لجيش الإنقاذ، اذ من المؤكد أن المقدم مأمون لو بقي مع القاوقجي لجنّب الأخير الكثير من الأخطاء والحماقات العسكرية التي حدثت فيما بعد.

ثالثاً: عندما توقف الهجوم على مستعمرة مشمار هاعيميك، عمّت القطعات موجة استرخاء وإهمال، سببه قبول القيادة الدخول في مفاوضات للتسليم والهدنة. وأدّى هذا الاسترخاء إلى أن القوات العربية تركت مواضعها المعيّنة لها باعتبار أن المعركة قد أنتهت، وأن المستعمرة سترفع أعلامها البيضاء في أي لحظة، وكان من نتيجة ذلك أن الطوق المحكم الذي كان حول المستعمرة، قد حدثت فيه فجوات، وخصوصاً في المسالك الجبلية المؤدية للمستعمرة، مما سبّب تغلغل قوات العدو إلى مواضع فاجأت منها قوات جيش الإنقاذ عند بدء القتال.

هذا بالاضافة إلى أن قيادة المعركة قد أهملت تماماً أمر رصد العدو ومراقبته، مما جعل العدو يتمركز في تشكيلاته وخطوط شروعه بحرية تامة، مكّنته فيما بعد من القيام بحركته الأساسية للقتال، والمفاجأة وحدها تعطي المفاجيء قوة

إضافية تُؤَمّن ثلاثة أرباع الجهد اللازم لكسب أي معركة.

هذه هي معركة مشمار هاعيميك ونتيجتها -كما أسلفت- فقدان جيش الإنقاذ للمبادأة نهائياً. واضطراره لتمركز دفاعي أفقده القدرة على الحركة والمرونة. كما أن هذه المعركة أزالت خوف اليهود من الدخول في معارك مكشوفة مع جيش الإنقاذ، وأصبح جيشهم يقوم بعملياته في حرية تامة، ويوجه ضرباته حيث يشاء وباستهتار لم يتصف به من قبل.

معركة القدس

يؤسفني أنه ليس بوسعي الحديث بالتفاصيل عن معركة القدس، لأني لا أعلم الشيء الكثير عنها. ولكني أعلم أن العرب في منطقة القدس، حتى استشهاد المرحوم عبد القادر الحسيني، قد كالوا لليهود ضربات مؤلمة حاسمة حبّذا لو يكتب عنها من شهدها وعرف تفاصيلها. أما من جهة جيش الإنقاذ، فقد كانت منطقة القدس موضع اختلال ونزاع، وقد عيّنت القيادة قائدا لحامية القدس، وأتبعته بقائد آخر مع قوة مشاة، وزودت هذين القائدين بتعليمات ادارية وسياسية، ولم تعيّن لهما -بالضبط- أي أهداف احتلالية تساعد العرب، على الأقل، على الاحتفاظ بمراكزهم ومناطقهم.

وقد كان تَدخُّل القيادة في شؤون منطقة القدس، تدخّلا غير موفق وليس له ما يبرره. ولم يفد هذا التدخل في تحسين وضعية القتال في القدس بل زاده بلبلة، وقد كان بإمكان القيادة حينئذ أن تترك قيادة منطقة القدس على حالها، وتساعدها بتزويدها بالممكن من الأسلحة المساندة والضباط والتوجيه العسكري. أما سبب خطأ القيادة هذا فهو أنها اعتبرت منطقة القدس، بالقياس لمنطقة اللد ويافا مثلاً، وكانت الأحوال في منطقة يافا من الفوضى؛ بحيث جعل القيادة تعتقد أن الحالة في القدس في مثل تلك الفوضى، وعليه تدخّلت القيادة، في منطقة

القدس، بشكل جعل التعاون بين قيادة المنطقة الشمالية "أي قوى القاوقجي" وقيادة منطقة القدس، مفقوداً، مما أضاع على العرب الكثير من الفرص التي كان من الممكن انتهازها لضرب العدو.

قبل معركة القسطل الثانية بيوم كان المرحوم عبد القادر الحسيني في مقر القيادة العامة في دمشق، وبرفقة السيد قاسم الريماوي. وقد كان مجيئهما لدمشق لأجل الاتفاق مع القيادة على بعض التعليمات، وعلى مَلاّك المنطقة وشؤونها المالية، ولأجل الحصول على بعض الأسلحة المساندة، وبشكل خاص بعض المدافع التي كان المرحوم عبد القادر يصرّ على طلبها، وفي حالة عدم وجودها كان يطالب القيادة بأن تضع مدفعية القاوقجي في وضعية إدارية تمكّن المرحوم عبد القادر من استعمالها عند الحاجة. وحجته في ذلك أن موقف القاوقجي المعادي من قيادة منطقة القدس، يمنع منطقة القدس من استعمال تلك المدافع عند الضرورة.

في هذا الوقت كانت المشادة بين الهيئة العربية العليا والقيادة العامة على أشدّ ما تكون، وكانت نتيجة هذه المشادة أن مهمة المرحوم عبد القادر في دمشق كانت مهمة عسيرة. ولم يجد سوى آذان صماء في مواجهة طلباته.

وإنني أذكر أنه تقدم بطلبات مكتوبة ومدروسة وصحيحة من الجهة العسكرية. كما أن لائحة الحركات التي تقدم بها، والتي تستهدف أهدافا استراتيجية هامة في المنطقة، كانت أيضاً، صحيحة عسكرياً، وضرورية للمحافظة على المنطقة، وعلى الأجزاء العربية من مدينة القدس. ولكن كل ذلك لم يجعل القيادة تهتم الاهتمام اللازم بهذه الطلبات، مما جعل المرحوم عبد القادر في حالة يائسة مازلتُ أذكرها حتى الآن.

والواقع أن المرحوم عبد القادر كان كفؤا لقيادة منطقة القدس من ناحية نفسية، من حيث حماسته وشجاعته التي تبعث على الثقة، واستهتاره بالموت. ولم يكن ينقصه سوى أن يُزوَّد بمساعدين فنيين عسكرياً لإرشاده ومعونته. وقد كان في

وسع القيادة أن تعمل ذلك. وقد أبدى استعداده التام من هذه الناحية، ولكن شيئاً من هذا لم يتم بسبب استشهاده في اليوم التالي في معركة استرجاع القسطل.

دير ياسين

قصة هذه المذبحة معروفة والذي أُحب أن أضيفه إلى جميع ما قيل عنها أن هذه العملية هي، في الواقع، وبرغم ما تتصف به من نذالة ووحشية، إبداع عسكري محكم قام به العدو على أساس خطة مرسومة لهزيمة العرب نفسياً وإرهابهم، وقد توفَق العدو في غايته هذه، ونشر رعباً وهلعاً في صفوفنا ما زال صداه يتردد حتى الساعة.

والمهم في هذه القصة أن العدو لم يفعل شيئاً سوى أنه قتَّل وشنّع بأهالي دير ياسين، أي أنه قام بالخطوة الأولى من هذه المعركة النفسية، أما الذي أتمّها وأكمل خطواتها وجعلها تُنتج نتيجة حاسمة لمصلحة العدو فهو نحن، بعواطفنا الرخيصة وصياحنا ومناداتنا بالويل والثبور، وحتى توزيع الصور عن المذبحة. جميع هذه الخطوات قمنا بها بهيئاتنا وتصاريح زعمائنا وإذاعاتنا وصحفنا.

إن عملية دير ياسين ليست بجديدة في تاريخ الحرب. وأقرب مثال عليها ما اتبعه الألمان في غزوهم لهولاندا وبلجيكا وفرنسا وبقية أجزاء أوروبا. ومثل هذه العملية لا تقصد لذاتها. بل تعمل كأداة نفسية فعالة تنشر الرعب والهلع، في صفوف المدنيين، من العدو. والحرب النفسية مثل الحرب بالسلاح، لها أساليبها وسلاحها المضاد وطرق الوقاية منها. ولها في الأمم المحاربة جهاز منظم، وقيادة تتبع أسسا وأصولاً فنية مدروسة.

بالطبع كنا في غفلة من هذا النوع من القتال. ولذلك وقعنا، في أحبولة العدو، فريسة سهلة. وكان الاولى أن لا تنشر مثل هذه القصة. بل تكُتم ويُهَوَّن من أمرها، وألا تُحدث أي خوف أو هلع، بل تذكي ناراً وإرادة هادئة على الانتقام.

معركة حيفا

كان الشروع بالمناوشات في حيفا والتورط فيها خطأ "تكتيكيًا" للأسباب التالية:

اولاً: صعوبة تموين القوى المقاتلة فيها، بسبب وجود مستعمرات قوية على جميع الطرق الرئيسية المؤدية إلى حيفا.

ثانيا: التفوّق الاستراتيجي للأحياء اليهودية في حيفا على الأحياء العربية.

ثالثا: وضعية عرب حيفا النفسية من حيث الهلع من العدو، وسوء التنظيم.

رابعاً: التعقيدات الناشئة عن وجود الجيش البريطاني واتخاذه حيفا ميناء للانسحاب.

خامساً: عدم وجود قوات عربية منظمة ومدربة تدريباً كافياً على حرب الشوارع، لتتمكن من مواجهة العدو مواجهة منتجة.

وقد كانت جميع هذه الاعتبارات التكتيكية واضحة لدى القيادة العامة لقوات فلسطين، وكان الأولى بها أن تأمر بالانسحاب من حيفا، على أن تتخذ الإجراءات العسكرية التالية:

١- تتمركز قوى عربية في عكا، وتُزودَّ هذه القوى بمدفعية ميدان لتعطيل مرور السفن إلى ميناء حيفا.

٢- تتمركز قوى ضاربة في الكرمل والطيرة وشفا عمرو ودالية الكرمل وجبع أجزم وعين غزال.

٣- تكون جميع هذه القوى تحت قيادة واحدة، ومهمتها ضرب طوق محكم على حيفا، والتضييق عليها شيئاً فشيئاً لحين وجود قوات كافية لإجبارهم على التسليم أو احتلالها.

٤- على فرض أن هذه القوى لم تكن من القوى بحيث تعالج الأمر علاجاً حاسماً، فهي -على الأقل- ستمنع أي توسع معادٍ نحو الشمال والشرق.

على أن التهويش، والاعتبارات العاطفية والاعتماد على أن الجيش البريطاني

ليس على أهبة الانسحاب، كل هذه الأسباب جعلت القيادة تقرّ مبدأ القتال في حيفا، وقد عيَّنت القيادة آمراً لحماية المدينة، وآمراً لمنطقة حيفا وجعلت قيادة المنطقة تابعة لقيادة الإنقاذ في الجليل التي كان على رأسها العقيد أديب الشيشكلي.

وكما يعرف الجميع، فقد فشلت جميع هذه الترتيبات، وسقطت مدنية حيفا في وقت لم يتوقع الناس فيه سقوطها. أما أسباب الفشل هي كالتالي:

١- لم تكن حامية المدينة على شيء كثير من الانسجام أو التدريب أو الخبرة في قتال الشوراع.

وبهذه المناسبة أحب الإشارة إلى رسالة السيد رشيد الحاج ابراهيم في العدد الثاني من "الهدف" والتي ذكر فيها أن الحامية كانت مرتبة وبعيدة عن سوء التنظيم. والذي أعرفه أن الرسائل والتقارير التي كانت ترد للقيادة من مختلف الضباط في حامية حيفا، تشير إلى عدم الانسجام والفوضى. وإني أذكر أن السيد رشيد الحاج ابراهيم قد أبرق للقيادة عدّة برقيات، يطلب فيها إرسال آمر للحامية، على شيء من الحزم، ليتمكن من السيطرة على الموقف في المدينة، ومن الممكن أن الترتيبات التي ذكرها السيد رشيد في رسالته الآنفة قد جرَت في وقت متأخر، وعلى أي حال لم تعلم بها القيادة، مع أنها كانت ترتيبات شجاعة وباسلة.

٢- في وضعية حيفا العسكرية التي أسلفت الحديث عنها، كان من البديهي أن تكون الحامية مرتبطة تماما بقوى خارج المدينة، لتتعاون معها على الحركات. مثل هذا الارتباط كان مفقوداً، ولم يحدث أن اتفقت القوى المقاتلة خارج المدينة وداخلها على القيام بأي عمل مشترك يخفف الضغط على هذه الجهة أو تلك.

٣- لا شك أن انسحاب الجيش البريطاني المفاجئ -بخلاف برنامجه- عن بعض مواقع المدينة قد سبّب الإسراع في سقوط حيفا.

على أنني أؤكد أنه ليس في إلقاء تبعة سقوط حيفا على الجيش البريطاني ما

بشرفنا، أو يعذر القيادة أو ينجيها من مسؤولية سقوط المدينة، وذلك للأسباب التالية:

أولاً: في العرف العسكري، لا يجوز الاعتماد الكلي على أي وضعية مساعدة ليس للقائد عليها سلطة مباشرة. ومعنى هذا أن بناء خطة الدفاع عن حيفا قد ارتكز على ما أعلنه الجيش البريطاني عن أوقات انسحابه، أي أن القيادة اعتبرت الجيش البريطاني ونقاط تمركزه، جزءً من خطة الدفاع للحامية. ومن المعلوم أنه ليس للقيادة أي سلطة على الجيش البريطاني، وهي لا تملك التحكم، عسكرياً بحركاته وتنقلاته، وكان الواجب عليها، في هذه الحالة، أن تفرض أسوأ الفروض من جهة ذلك الجيش، وتحتاط للأمر، كأنه غير موجود. والاحتياط المثالي في مثل هذه الحالة هو اعتبار الجيش البريطاني قوة معادية يجب الحذر منها والاحتياط لها.

ثانيا: تسربّت للقيادة ولقيادة الحامية، معلومات تؤكد احتمال انسحاب البريطانيين قبل موعدهم، ولم تُتَّخذ أيّ احتياطات لمواجهة هذا الاحتمال.

ثالثا: عندما أخلى البريطانيون مواقعهم واحتلها العدو، قامت الحامية بعدة هجمات معاكسة باسلة استردت بها أكثر هذه المواقع، من تكبيد العدو خسائر كبيرة. ولكن الحامية لم تكن من القوة بحيث تصمد أمام هجمات العدو المركّزة، واضطرت إلى الانسحاب من هذه المواقع.

رابعاً: في أشد ساعات حيفا حراجة وخطورة، لم تقم قيادة منطقة حيفا بأي عمل حاسم لتخفيف الضغط على الحامية، وظلت -على العموم- مكتوفة الأيدي لا تبدي حراكاً، مع أن قيادة المنطقة كان يلحقها قوة مشاة "الفوج الدرزي" وسريّتان ضاربتان. وكان بالإمكان المناورة، وحتى الهجوم بهذه القوة، لتخفيف الضغط عن حامية حيفا.

بهذه المناسبة، سأتحدث عن قيادة منطقة حيفا وتطور تشكيلها. ففي هذه القصة سبب مهم من أسباب سقوط حيفا.

عند استشهاد آمر حامية حيفا، محمود الحنيطي، قررت القيادة أن تحول حيفا إلى منطقة قتال واسعة، تكون مدينة حيفا جزءاً منها، وبعد أخذ وردّ طويلين في الموضوع، تقرر أن يكون الفوج الدرزي نواة لقيادة المنطقة وعُينَ لقيادة الفوج ضابط لا أعرف من مؤهلاته العسكرية سوى أنه يستطيع إصابة القرش برصاصة واحدة من مسدسه، وعلى مسافة لا أدري بُعدها! وقد تركت قيادة المنطقة مع القوة إلى شفا عمرو، وبقيت هذه القوة بلا حراك حتى معركة مشمار هاعيميك. أثناء تلك المعركة، وعندما قام العدو بهجومه باتجاه جنوبي غربي، بأمل تخفيف الضغط عن قوات القاوقجي، مع تحذير كافٍ بعدم التورُّط بأي معركة كبرى مع العدو. والذي حدث أن قائد المنطقة فهم من معنى المظاهرة الهجومية هجوما عادياً، وعلى ذلك اشتبك رأسا مع العدو الذي استغل حماقة هذا الهجوم، وضرب الفوج الدرزي ضربة جعلته لا يقوى نفسيا على قتال العدو فيما بعد. والواقع أن الفوج المذكور كان ينسحب بمجرد هجوم العدو على موقعه، وظل كذلك ينحسب من مكان لمكان حتى خروجه من المالكية إلى لبنان.

هذه هي الاسباب المباشرة لسقوط حيفا، والأسباب نفسها أدَّت إلى سقوط عكا، لأن حامية حيفا، المنسحبة مع المدنيين العرب، قد نشرت في طريقها موجة انهزام، جعلت العدو يحتل عكا بلا ثمن يذكر. والخطأ الجدير بالذكر الذي ارتكبته القيادة في عكا هي أنها استعملت فلول حامية حيفا للدفاع عن عكا، وعيّنت قائد حامية حيفا قائداً لعكا، مما نشر الانهزام والفوضى في حامية عكا الأصلية، وجعل عكا -المعقل التاريخي المعروف- لقمة سائغة هيّنة.

معركة يافا

ليس من مجال للمقارنة بين يافا وحيفا من حيث إمكانيات القتال في مصلحة العرب. فقد كانت يافا بحكم موقعها وإمكانياتها ومواصلاتها وجوارها من تل أبيب، وسهولة الدفاع عنها وخير قاعدة يتمكن العرب فيها من توجيه ضربة

حاسمة قاضية للعدو، لكن الذي حدث هو أن يافا سقطت أيضا بلا ثمن، وبغاية الرخص والسهولة، وبأسباب لا تختلف كثيراً عما أسلفت ذكره من نواح ومنازعات، وعجز في القيادة، وقلّة ضبط الجنود تدريبهم، وعدم السيطرة على المدنيين، وفقدان الحزم في قيادة الحامية.

كانت يافا تتبع المنطقة الوسطى التي كان يقودها المرحوم الشيخ حسن سلامة، وكانت يافا رسمياً تُعدّ ضمن قطاعات القتال التابعة للمنطقة الوسطى؛ ولأسباب حزبية محضة لم تهتم قيادة المنطقة الوسطى، الاهتمام الكافي بيافا، من جهة، أخرى، بدأت تتدخل في قيادة حامية يافا تدخلاً خاطئاً جعل قائد الحامية مجرداً عن أي سلطة أو نفوذ يمكّنانه من إدارة القتال بصورة معقولة. هذا بالإضافة إلى أن قائد الحامية نفسه كان على شيء كثير من الجهل بأصول الدفاع عن المدن، وكان ضعيفا رعديداً ولا يصلح بأي شكل لقيادة موقع كبير الأهمية كيافا. وقد أنتجت هذه الحالة أن قيادة حامية يافا ظلت في حكم المعدومة، ولم تقم بأي إجراءات حاسمة لإنشاء خطة دفاع محكمة عن المدينة وعلى هذا ظل وضع المدينة مائعاً لا صلابة فيه، ولم يتعد الأمر سوى سلسلة اشتباكات مرتجلة لا رابطة بينها. وسرعان ما استولى العدو على المبادأة. ولم تعد الحامية تقوم بأي عمل سوى الدفاع المستكين عن المدينة، وردّ الهجمات التي كان يقوم بها العدو في الوقت والمكان الذي يناسبه.

وقد أدركت القيادة، ولكن بعد فوات الأوان، أن هذه الوضعية ستؤدي إلى سقوط المدينة، وبالتالي بدأت في اتخاذ بعض الخطوات الإيجابية لتقوية الحامية ولضمان السيطرة التامة على المدينة.

وقد اقتُرِحَ حينئذ ان تُشكل يافا ما يسمى بالمربع الهجومي - الدفاعي، على أن تكون مهمته كالآتي:

أولاً: تحصّن يافا دائرياً بشكل قوي وبنطاقات دفاعية متعددة.

ثانياً: تؤمَّن طرق مواصلات مضمونة ليافا، وذلك باحتلال جميع مرافق العدو

على طريق يافا - اللد.

ثالثاً: يتم التوسّع الدفاعي جنوباً بحيث تحتل بات يام واجروبنك.

رابعاً: حشد أكبر قوة ممكنة داخل هذا النطاق الدفاعي ليتمكن في المستقبل من التحرك نحو تل أبيب.

على أن تطوُّر الحوادث في يافا حدث بسرعة لم يتصورها أحد، وتبعثرت الحامية أمام هجمات العدو بسرعة وبمنتهى الفوضى والجبن، وقد أرسلت نجدة من قيادة القاوقجي ليافا مع المدفعية، ولكنها لم تساعد على تثبيت الوضع في المدينة. وبالعكس تبعثرت النجدة نفسها، وسقطت يافا في يد العدو بكل رخص وسهولة.

معركة صفد

فقد العرب بيسان وطبريا بعد مناوشات تافهة، وأخلوا هاتين البلدتين بصورة سريعة غامضة لا تفسير لها. وليس لدي معلومات مؤكدة أستطيع بواسطتها التحدُّث عن كيفية سقوطها، وعن تفاصيل القتال فيها.

أما صفد فقد كان سقوطها ضربة مؤلمة أثارت الكثير من الأقاويل والشكوك، والأحاديث عن التواطؤ مع العدو والخيانة، وأحاديث أخرى طويلة لا مجال هنا للخوض بها وشرح تفاصيلها.

ولا أشك قطعياً، في أن سقوط صفد وظروفه يبرران كل ما تحدث به الناس، وما سارت به الإشاعات، والتبرير هنا يأتي لا استناداً إلى معلومات أكيدة عن التواطؤ والخيانة، بل لأن صفد سقطت بسرعة وبلا سبب واضح، وبمفاجأة أدهشت حتى آمر المنطقة نفسه، العقيد أديب الشيشكلي.

لم يتمتع العرب بأي مناعة أو قوة في أي مكان في فلسطين بمثل ما تمتعوا بهما في صفد، للأسباب التالية:

أولاً: كانت الأحياء العربية، في صفد مسيطرة استراتيجيا على الحي اليهودي وعلى مداخله. وكان بالإمكان شلّ حركة العدو في ذلك الحي باستعمال قوة في غاية الضآلة والقلة.

ثانياً: كانت جميع مداخل صفد "أي طريق الآليات" تحت سيطرة العرب، وكان من السهل أن يضرب العرب نطاق حصار مطبق على المدينة بقوى قليلة لقطع الطريق، أو حتى بعمليات تخريب محدودة.

ثالثاً: كانت طريق التموين الوحيدة للعدو في صفد هي طريق طبريا - صفد وهذه الطريق ظلت، حتى بعد سقوط صفد، تحت رحمة العرب، والقراء الذين يعرفون هذه الطريق، وبعض نقاطها السهلة القطع، مثل موقع "الوعرة السوداء" و"تلال الغدير"، يمكنهم تصور المهمة الشاقة التي قاساها العدو من حيث تموين حاميته في صفد.

رابعاً: كان للقوى العربية التي تقاتل في صفد تفوق ساحق على العدو الذي سيبذل أقصى جهده للاستيلاء على صفد قبل انتهاء الانتداب وقبل دخول الجيوش العربية إلى فلسطين، ولذلك فقد استعدت القيادة العامة لقوات فلسطين لهجمات اليهود على صفد، ونبّهت قيادة منطقة صفد إلى ذلك، وعززت القوة المدافعة عن صفد بكل ما أمكن من نجدات وذخيرة، حتى أن الذخيرة كانت ترُسل من دمشق بالطائرات وتُلقى من الجو على القوات العربية في المنطقة.

وقد تألّفت القوات العربية التي كانت في صفد كالتالي:

١- فوج مشاة كامل.

٢- ثلاث سرايا مشاة مستقلة.

٣- سرية نظامية من الجيش السوري.

٤- ما يقرب من ألف مقاتل غير نظامي.

٥- مدفعية ميدان "٧٥" مم.

وقد قام العدو لمدة أسبوع، بهجمات شديدة مركّزة على حامية صفد. وقد صدّ العرب هذه الهجمات العنيفة الشديدة كلها، وكبدوا العدو خسائر فادحة بالأرواح لأنه كان يقوم بهجماته بتجمعات مشاة تزيد في بعض الهجمات على الألفي مقاتل. وفي اليوم السابق لسقوط صفد، بدأ العدو يخلي الحي اليهودي نتيجة لقصف شديد قامت به المدفعية العربية على الحي المذكور. كان من الجلي عندئذ أن العدو قد يئس من الاستيلاء على صفد. وأخذت أرتال كثيرة من السيارات المعادية تساعد في إخلاء العدو من صفد طيلة اليوم المذكور.

في ذلك اليوم، قام العدو بهجوم خفيف لم يتعد المناوشة البسيطة، وبقوة لا تزيد عن سرية مشاة أي حوالي "٣٠٠" مقاتل على الأكثر، واستطاع العدو أن يهزم بهذا الهجوم البسيط القوة العربية بكاملها وسقطت صفد.

بالطبع حاول المنهزمون أن يهوّلوا عن عنف الهجوم اليهودي. كما حاولوا المبالغة في خسائرهم بغية إقناع الناس والقيادة، بأنهم قاموا بجهودهم في صد الهجوم، ولكن الثابت هو الآتي:

١- كان هجوم العدو الأخير على صفد أضعف من أي هجمة سبقته. وقد صدت حامية صفد، كما ذكرت، الهجمات السابقة القوية بكل بسالة.

٢- كان الهجوم من الضعف -من حيث قوة النار المستعملة فيه- بحيث أن القرى التي في ضواحي صفد، مثل السموعي وفرادة مثلا والتي كانت تتمركز بها بعض السرايا المحلية، لم تلاحظ أن الحال غير عادي في صفد، وبالعكس اعتبرت تلك الليلة بالذات من الليالي الهادئة بالنسبة لقوة النار المستعملة.

٣- كان معظم ضباط الخطوط الأمامية في صفد في مخفر عين التينة، جنوب غرب صفد.

٤- تبينً فيما بعد أن القطعات التي انهزمت لم تتكبد سوى خسارة ٣ في المائة تقريبا من مجموعها، وأن جميع المبالغات الأخرى عن القتلى كانت كاذبة وغير صحيحة.

٥- أثبتت التقارير ومختلف المصادر فيما بعد أن القوة اليهودية المهاجمة لم تتعد الـ "٣٠٠" مقاتل، كما بيّنت سابقاً.

أما سبب الهزيمة المباشر فهو الآتي:

عندما اشتدت هجمات اليهود على صفد أخذت حاميتها تطلب ما أمكن من نجدات، وكان من جملة تلك النجدات، سرية أُرسلَت، على عجل، من دمشق قبل سقوط صفد بـ "٢٤" ساعة. وقد جُمّعت هذه السرية بسرعة، باعتبار أن أفرادها جنود سابقون ولم تحاول سلطات معسكر التدريب التأكّد من هذا الادعاء، بل جُمِّع هؤلاء وحُمِّلوا في السيارات، وربما وزِّعت عليهم الألبسة والأسلحة في الطريق. وقد طُعِّم أفراد هذه السرية ضِد التيفوئيد قبل سفرهم بساعات. وعند وصول هذه السرية إلى منطقة صفد أُرسلت رأساً لتعزيز حامية صفد نفسها، وقد ارتكب قائد الحامية غلطة كبرى في عدم التأكد من تلك السرية، لأنه حال وصول السرية إلى صفد وضُعتْ في مراكز أماميّة في الليل، وكانت تلك المراكز خطيرة وحيوية.

وعندما قام العدو بهجمته البسيطة بوغِتَتْ تلك السرية وانهزمت. وفي هزيمتها نشرت الفوضى والهزيمة في الخطوط الخلفية، وانتقلت العدوى إلى جميع قوى الحامية، ودبَ الرعب في السكان وانهزم الجميع.

لقد تبيَّن فيما بعد أن السرية المذكورة لم تحسن حتى استعمال بنادقها.

أما الأخطاء في هذا فهي:

١ - لم يتأكد قائد الحامية من صلاحية السرية قبل استعمالها في خطوط دفاعه.

٢- لا يجوز مطلقا تركيز قطعة محاربة ليلاً إلا عند الضرورة القصوى، لأنه من الوجب أن يعرف أفراد القطعة مراكزهم ومواقعها بالنسبة للعدوّ وهذا لا

يتيسر في التمركز الليلي.

٣- عندما وضعت هذه السرية في مراكزها كان معظم أفرادها على درجة كبيرة من الإعياء والحمّى -بسبب التعطيم ضد التيفوئيد- وأشك في أن معظمهم قد نام فور تسلمه مركزه أثناء فترة الهدوء الذي سبق الهجوم.

هذه، برأيي هي الأسباب المباشرة للهزيمة في صفد. وأرجو ألا يُفْهَم من شرحي لهذه الأسباب، أنني أحاول بأي شكل الاعتذار عن حامية صفد. كما أنه لا يعنيني البحث فيما إذا كان في هذا كله تواطؤ مع العدو أو خيانة ما. والجبن والفوضى والعجز وسوء التدبير أسباب أكيدة للهزيمة، كما أن الخيانة والتواطؤ تؤديان للهزيمة. ربما كان هناك فرق بين الطريقين من الناحية الأخلاقية، أما من وجهة نظر عسكرية فالحكم عليهما واحد.

كل ما يؤدي للهزيمة هو جريمة عسكرية، سواء نتج ذلك من أعمال يُحاسَب عليها أخلاقياً أم لا.

معارك الطيرة وباب الواد

حتى هذه الفترة تكون القيادة العامة لقوات فلسطين قد كفَّنت، بصورة تشبه التبرع لوجه الله، حيفا ويافا وصفد وعكا وطبريا وبيسان ومعظم القدس. وبدأت القيادة العامة لجيوش الدول العربية بالاستعدادات لدخول الجيوش إلى فلسطين، "ورمي العدو في البحر".

وقد حاول العدو، في هذه الأثناء، الاستيلاء على طيرة بني صعب، والوصول إلى القدس من باب الواد.

لقد ادعى جيش الإنقاذ، الفضل في هاتين المعركتين. والحقيقة أن الفضل الأول والأخير في صمود العرب في هذين الموقعين، يعود إلى العرب الفلسطينيين الذين استماتوا واستبسلوا في القتال، على أمل بذل آخر رمق للصمود، انتظاراً

للفرج القريب الذي ستأتي به الجيوش العربية.

وأخيراً صدر أمر قيادة الجيوش العربية لجيش الإنقاذ بالانسحاب من فلسطين الوسطى وتسليم مركزه للجيشين العراقي والعربي، وبدأت قطعاته تتحرك لإعادة التنظيم إلى دمشق.

أمّا في شمال فلسطين، فقد توسع العدو حول صفد. وهاجمت قواته من منطقة الحولة، مخفر النبي يوشع واحتلته، كما هاجمت المالكية واحتلتها، وتقدمت عناصر معادية حتى قرية عيترون في لبنان.

الى هذا الحد أنتهي من الحديث عن الفترة الأولى من قصة جيش الإنقاذ. وهذه الفترة تشمل المدة منذ دخول جيش الإنقاذ، إلى فلسطين حتى دخول الجيوش العربية القتال، وفيما يأتي سأتحدث عن جيش الإنقاذ في الجليل والناصرة، حتى انسحاب جيش الإنقاذ بصورة نهائية من فلسطين.

بعد دخول الجيوش العربية القتال في الخامس عشر من أيّار، بدأت قطاعات جيش الإنقاذ بالانسحاب من فلسطين إلى معسكرات دمشق لإعادة التنظيم والتدريب.

وقد انسحبت، أولاً قوات القاوقجي من المنطقة الوسطى، ثم تلتها قوات الشيشكلي من المنطقة الشمالية، ثم حامية القدس. وقد كانت النية أن تبقى كل هذه القوات في دمشق لمدة شهر، ويعاد تنظميها وتشذيبها وتدريبها على ضوء التجارب السابقة في القتال، وقد تقرر أن يوضع لكل قطعة ملاك جديد معلوم سواء بالرجال أم بالسلاح.

ولكن معظم هذه القطعات لم تتمكن من تدريب وتنظيم نفسها كما كان مقرراً، إذ سرعان ما ألحّت قيادات الجيوش العربية المختلفة بطلبها. وعلى هذا، تحرك الفوج اللبناني "من قوات الإنقاذ" وفوج حطين، إلى نجدة وتعزيز جبهة الجيش اللبناني. وأُرسل فوج اليرموك الاول لنجدة الجبهة السورية، وبقيت في معسكر التدريب قوات المنطقة الشمالية فقط، وبُديء بتشكيل هذه القوات، على شكل

لواء احتياطي بقيادة العقيد الشيشكلي.

وقبل الهدنة الأولى، قام فوج اليرموك الأول بهجوم على مستعمرة عين جيف "النقب" على شاطئ بحيرة طبريا الشرقي، وفشل هذا الهجوم بسبب الفوضى في تنفيذ خطة الهجوم، وتراجعت القوات المهاجمة بعد أن دخلت عناصرها الأمامية المستعمرة.

في هذه الأثناء قررت قيادة جيش الإنقاذ أن تتخصص للقتال في الجليل، وعلى الجبهة اللبنانية، وتقرَّر نقل جميع قطعات جيش الإنقاذ إلى تلك المعركة.

وفي هذه الفترة أيضا تقرر إلغاء القيادة العامة لقوات فلسطين، بسبب استقاله صفوت باشا لاختلافه مع القيادة العامه للجيوش العربية وكانت الوضعية العسكرية في فلسطين مائعة جداً وبدأت بوادر الاختلاف وعدم التعاون بين الجيوش تظهر بجلاء. وكان الجيش السوري قد ارتدّ من داجانيا، ولم يتمكن الجيش العراقي من احتلال "جيشر"، ولم يتقدم الجيش اللبناني لأبعد من مركز جمرك الناقورة، ولم يتمكن الجيش العربي الأردني من احتلال القدس، وبدأ تقدم الجيش المصري يتعثر، ولم يتمكن من إصابة أي مقتل لليهود، واضطر الجيش العراقي إلى تبديل خطوط شروعة خلافا للخطة الأصلية. وقد عُينٌ القاوقجي بلقب جديد، واعتُبر قائداً لقوى الإنقاذ في المنطقة الشمالية، ومن جملتها قوى الجيش السوري واللبناني، واتخذ القاوقجي فيما بعد قرية عيترون اللبنانية مقراً له.

معركة المالكية

كما ذكرت سابقاً، كان العدو قد احتل المالكية بعد انهزام الفوج الدرزي منها، ووصلت طلائع العدو إلى قرية عيترون على بعد كيلومترين من بنت جبيل، كما أخلت قوات الشيشكلي مخفر النبي يوشع بقرب مستعمرة الهراوي، وهي من

القوى معاقل شمال فلسطين، وكان هذا الإخلاء بناء على أمر القيادة اللبنانية. ويذكر القراء بعض الوثائق المتعلقة بهذا الإخلاء التي نشرتها الصحف السورية عن وزير الدفاع اللبناني بخصوص قضية الرئيس طبارة، ومقتل كامل الحسين المتهم بالتجسس". وباحتلال العدو للمالكية يكون قطع الطريق الرئيسية للجليل والناصره. ولم يكن في الجليل من القوى المقاتلة سوى السكان المسلحين وأربع سرايا تابعة للجهاد المقدس.

وعلى هذا قررت قيادة الإنقاذ مهاجمة المالكية لفتح طريق الجليل، وكان يدافع عن المالكية فوجان من مشاة العدو، وجرى الهجوم عليها بثلاثة أفواج مشاة وسرية مدرعات، منها فوج البادية من الجيش السوري.

وقد كان الهجوم على المالكية هجوماً مثالياً من حيث الخطة والتنفيذ، واحتلت المالكية باقتحام مكشوف بعد ثماني ساعات من بدء الهجوم وجرى الهجوم بمفاجأة تامة، وبشكل صاعق سريع جعل العدو ينهزم بسرعة بعد أن تكبد حوالي الـ "٤٠٠" إصابة، وترك خلفه معظم معداته وأسلحته وسياراته.

إن معركة المالكية هذه من المعارك القليلة المنظّمة في كل قتال جيش الإنقاذ، والتي كانت المبادأة فيها كبيرة والخطيئة الوحيدة التي ارتكبت هي أن قيادة الإنقاذ لم تستثمر الفوز في هذا الهجوم وتطارد العدو نحو الشرق لاحتلال النبي يوشع ومستعمرة الهراوي، فقد كانت هزيمة العدو منكرة، ومن الفوضى بحيث أنه كان بالإمكان ملاحقته والاستيلاء على مواقع أخرى تخصه، ولو استُغِلَ الموقف واحتُلَّت الهراوي والنبي يوشع، لكان بالإمكان الاتصال بالجبهة السورية، وقطع العدو في منطقة الحولة، مما كان سيُبدّل بالتأكيد مستقبل القتال في شمال فلسطين كله.

الزحف على الناصرة

بعد احتلال المالكية والتمركز فيها، كان أمام قيادة جيش الإنقاذ طريقان للحركات المقبلة:

الأولى: الاتجاه نحو الشرق والاتصال بالجبهة السورية في الحولة.

الثانية: الزحف جنوبا إلى الناصرة، وتعزيز القوات المحلية التي كانت تقاتل وحدها في الجليل.

أما مزايا الطريق الأولى فهي:

اولاً: قطع جيب الحولة الذي كان يشكله العدو بين الجيشين السوري واللبناني في منطقة الحولة، وهذا يعني الاستيلاء على أكثر مستعمرات العدو في الحولة.

ثانياً: تقصير جبهة الحولة إلى ما يقارب عُشْرَ طولها، وهذا يعني توفير أكثر من ثلثي القطعات العربية المقاتلة، واستعمال هذا الوفر في عمليات هجومية، بدل التمركز، بهيئة الدفاع المستكن، على الخطوط الخارجية، وبشكل قوس طويل ضعيف قليل العمق.

ثالثاً: تأمين جزئي للجناح الأيسر للقوى المحلية المقاتلة في الجليل.

أما مزايا الطريق الثاني فهي:

أولاً: تعزيز القوى المدافعة عن الجليل، والاحتفاظ بالجليل كنقطة انطلاق مستقلة لتقطيع أوصال العدو بالتعاون مع الجيوش العربية.

ثانياً: التمركز على المغالق الرئيسية المؤدية إلى مقاتل للعدو، مثل صفد وطبريا والعفولة وحيفا وعكا ونهاريا.

وقد قررت القيادة اتباع الطريق الثاني للمزايا التي ذكرت. وبسبب وعد شفهي من القيادة العراقية بالتعاون مع جيش الإنقاذ في هجوم يقوم به جيش الإنقاذ من الناصرة على العفولة، يقابله هجوم عراقي من منطقة جنين على العفولة في نفس الوقت، واتُّفق أن يكون الهجوم في أول يوم بعد الهدنة الأولى.

وعلى هذا تحركت قطعات جيش الإنقاذ إلى منطقة الناصرة قبل الهدنة الأولى بيوم، وكانت الحركة برتل مسلح في أوله فوج حطين، وقد كان هدف الرتل الوصول إلى الناصرة مهما كلف الأمر دون أي التفات لخطوط التموين والمواصلات وحماية الأجنحة. وعند وصول هذا الرتل إلى الشجرة كان العدو قد تمركز على التلال المسيطرة على طريق الناصرة، وقد فتح العدو نيرانه من هذه التلال على مقدمة الرتل. وكاد العدو أن يتوفق في وقف الرتل لولا أن السريّتين الأماميّتين من الرتل، قامتا بهجوم سريع مكشوف أجبر العدو على الانسحاب عن التلال المسيطرة على الطريق إلى خط بعيد لا يهدد طريق الناصرة.

وإنني أعتبر هذا الهجوم، الذي أسلفت الحديث عنه، من أروع وأبسل الهجمات التي يمكن أن تقوم بها أي قطعة محاربة، فقد كان العدو مستعداً ومتحكماً في خط التلال المرتفعة شرق الطريق. وصدر الأمر لقطعات جيش الإنقاذ بالانقضاض على العدو من السيارات رأساً، وانقضّ المهاجمون بحركة تسلق للتلال وبسرعة جنونية تسترهم نيران ساترة من بقية سيارات الرتل. وقد وصل المهاجمون إلى خطوط العدو وأجلوه عنها في مدة لا تزيد على نصف ساعة من بدء الهجوم. وقد ترك الرتل أمام العدو المنسحب، قوة خفيفة. واستمرت بقية الرتل في مسيرها إلى الناصرة.

لم تكن حركة جيش الإنقاذ إلى الناصرة تستند إلى مبرر عسكري أصولي، خصوصا إذا أخذنا بعين الاعتبار إمكانيات جيش الإنقاذ من كل الوجوه. ولكن تبرير الحركة يأتي من الاتفاق على التعاون مع الجيش العراقي من جهة، وحاجة الجليل إلى مزيد من القوى للدفاع عنه وحمايته، من جهة أخرى. هذا بالإضافة إلى أن مثل هذا الزحف هو نوع من المقامرة الجائزة عسكريا، خصوصاً مع الافتراض بأن الجيوش العربية بعد الهدنة الأولى ستستمر في قتال جدي تحتاج معه إلى معاونة قتالية من الجليل.

وعند بدء الهدنة الأولى كانت قطعات جيش الإنقاذ مع سرايا الجهاد المقدس

والسرايا المحلية، تتمركز في خط دفاعي قليل العمق على القوس الذي تحده: تربيخا، ترشيحا، البروة، شفا عمرو، صفورية، الناصرة، الشجرة لوبيا، حطين، ياقون، ميرون، الجش، ديشوم، المالكية. ويقابل هذا القوس من الشرق، الجيش السوري، ومن الجنوب، الجيش العراقي؛ ومن الشمال الجيش اللبناني.

وفي أثناء الهدنة لم تنقطع المناوشات على طول الجبهة، وتقدم العدو من الغرب واحتل البروة. ولم يقم جيش الإنقاذ بهجوم معاكس لاستردادها بحجة الهدنة، وانتظاراً لمفاوضات التحقيق التي كان رجال الهدنة يقومون بها حول البروة، وحول مسؤولية البدء بالمناوشات في تلك المنطقة.

وقد نشط العدو في الجليل، مدة الهدنة، نشاطاً منقطع النظير، وخصوصاً من ناحية الاستخبارات والاستحكامات، وبثّ الإشاعات الانهزامية، ومحاولات شراء بعض القرى على طول الجبهة، هذا بالإضافة إلى ما هو معروف عن نشاطه العام في شراء الأسلحة بأنواعها، وعلى الأخصّ المدرعات والمدفعية المضادة لها.

وأمام هذا النشاط المنقطع النظير الذي كان يقوم به العدو على مرأى ومسمع جميع العسكريين المسؤولين في الجليل، غطّت سلطات جيش الإنقاذ في نوم عميق وابتدأ موسم الاصطياف في لبنان، وانهمك القاوقجي في سلسلة حفلات وسهرات في عالية، ولم يعد يطل على مركز قيادته في عيترون إلاّ لماماً، وبقي الكل مُتمتعين بالهدنة إلى أقصى الحدود، وترُكت المنطقة وشأنها انتظاراً لرحمة الله، فساءت معنويات السكان وقلّت ثقتهم بنتيجة القتال، كما ساءت معنويات القطعات، ولم يلتفت أحد إلى تدريبها وتحسين معنوياتها.

ولكي أبيّن للقارئ خطورة الإهمال، اثناء الهدنة، أذكر الأخطاء التالية:

أولاً: كان من السهل الاستنتاج أن الاعتماد على تعاون الجيوش العربية واشتراكها معا في حركات موحدة أمر مشكوك فيه نوعاً ما "أرجو أن يلاحظ

القارئ أنني أتكلم عن هذا التعاون أثناء وبعد الهدنة الأولى بقليل، والشك الذي أشير إليه قد تحول إلى يقين فيما بعد" وعلى هذا كان على القاوقجي أن يعتبر نفسه مقاتلا مستقلا في الجليل، خصوصاً بعد أن تورط في هذا الزحف الطويل إلى الناصرة.

ثانياً: كان من السهل الاستنتاج أن جيش الإنقاذ في الجليل، من حيث وضعيته العامة وتنظيمه، لا يستطيع الدفاع مدة طويلة عن المنطقة التي تمركز بها. وقد كانت هذه الحقيقة معروفة لدى القيادة، ولكنها كانت كعادتها تنتظر المعجزات والأعاجيب.

ثالثاً: عندما تكون القوة الدفاعية غير كافية، تُعزَّز بالاستحكامات لزيادة قوتها وفعاليتها، والاستحكامات في وضعية تمركز جيش الإنقاذ التي أسلفت الحديث عنه، كانت ضرورة قطعية، قد تقلب نتيجة القتال رأسا على عقب. ومع هذا، وبرغم التنبيه المتكرر لقطعات القاوقجي بالاهتمام بالاستحكامات، فلم يُعمل شيء يذكر منها، وأكثر الاستحكامات التي عُمِلَتَ لم تكن سوى حفر فردية لا فائدة منها.

وبمناسبة الحديث عن الاستحكامات، فأحب أن أبيّن للقارئ أهميتها من وجهة نظر عسكرية، فمن المبادئ العسكرية المعروفة أن الرفش والمعول هما، بعرف جميع العسكريين، من أهم الأسلحة التي تستعملها القطعات المحاربة. وتوزيع الاستحكامات وتنسيقها وتنظيم مواصلاتها وأقواس رميها، فن عسكري قائم بذاته، لا يقل خطورة عن عمل الأركان في القيادات العسكرية. والاستحكامات هي -برأيي- من أهم النقاط التي تفوق بها العدو علينا تفوقاً ساحقاً. والذين قاتلوا في معارك فلسطين يذكرون أن العدو كان يبني استحكاماته بالإسمنت المسلح بعد مدة أقل من ساعة من تمركزه في وضع ما.

رابعاً: لم تستغل قيادة جيش الإنقاذ إمكانيات الجليل في الرجال وعدد المسلحين، والجليل كما يعرف الجميع من أخصب بقاع فلسطين في الرجال

المقاتلين الأشداء، خصوصا وأن أكثر الشبان في الجليل من سبقت لهم الخدمة العسكرية، سواء في البوليس أو في الجيوش النظامية، وأمّا السلاح فقد كان متوفراً في أكثر القرى. هذا بالإضافة إلى السرايا المحلية التي شكّلتها القرى من نفسها، ولم ينقصها سوى التفات بسيط وعناية محدودة من قبل القيادة.

وقد تركت سلطات جيش الإنقاذ الأمر في الجليل على غاربه، وكان تصرف بعض القطعات والضباط من السوء بحيث نشر موجة حذر وسوء ظن. وأخذ القرويون يخفون أسلحتهم ويترددون في الاشتراك في التدريب. وعلى العموم تواكل جميع السكان على جيش الإنقاذ، ولم يعد لديهم اهتمام كبير بالقتال.

خامساً: هذه النقطة الأخيرة أحب أن أذكرها، مع كثير من الاعتذار والخجل، ولا أعدها نقطة خطأ أو إهمال ارتكبته سلطات جيش الإنقاذ، بل هي أمر يتعلق بوضعية السكان في الجليل، وكان بإمكان قيادة الإنقاذ معالجتها أو الاحتياط لها، أما هذه النقطة فهي وضعية القرى الدرزية في الجليل. وبعض أقسام عشيرة الهيب المعروفة في الجليل، لسبب من الأسباب، كانت هذه القرى مشمئزة من قتال اليهود، وتميل إلى مصالحتهم ومهادنتهم، وتبتعد بقدر الإمكان عن أي عملية تعاون مع القوى المقاتلة في الجليل. وقد أدّت وضعيتها هذه إلى انتشار موجة بلبلة وانهزام في كل الجليل، أحسّت بها القيادة ولكنها لم تعمل على مقاومتها ووضع حد لها.

عندما استؤنف القتال بعد الهدنة الأولى، خيّم الجمود على جبهات الجيش العراقي والجيش اللبناني، وكان من المتفق عليه أن تبدأ كلها في عمليات هجومية واسعة النطاق فور انتهاء الهدنة. وفي الجبهة الشمالية لم يتحرك بعملية هجومية سوى الجيش السوري الذي حاول التقدم من مشمار هاياردن إلى مستعمرة نجمة الصبح. ولكن العدو ردّ هذا الهجوم بهجوم معاكس كاد يحتل معه مشمار هاياردن وبانياس. ولم يرد على هذا الهجوم سوى الجيش السوري، على صغره وقلة إمكانياته، مستعيناً بالمعاونات المحلية التي قامت بها قطعات جيش الإنقاذ

من شمال الجليل. على أن العدو، في هذه العملية، توفق إلى تثبيت الجيش السوري في خطوط للدفاع المستكن ولم يتمكن هذا الجيش بعدها من القيام بأي عملية هجومية واسعة النطاق. ولم تعد مهمته تتعدى الدفاع المستكن عن الخطوط التي كان متمركزاً فيها.

وبتجميد الجيش السوري أصبحت جميع الجبهات التي تؤثّر تأثيراً مباشراً في العمليات في منطقة الجليل جامدة ثابتة، وأخذت قوات العدو المبادأة، وبدأت تسرح وتمرح، وليس أمامها في الميدان، سوى جيش الإنقاذ.

عندما أيقنت قيادة جيش الإنقاذ أنها في الميدان وحدها، وأنه لا أمل بحركة سريعة تقوم بها قيادات الجيوش العربية المتاخمة للجليل، حاولت تثبيت الوضع في حالة الدفاع المستكن. كما حاولت تأمين أجنحة الجبهة وخطوط مواصلاتها وتطهيرها من تهديدات العدو وعززت القوى في الجليل ما يسمى باللواء الاحتياطي الثاني. بقيادة العقيد الشيشكلي، الذي تمركز في قطاع حطين في جبهة قتال تزيد في الطول على "١٠٠" كيلو متر، تمتد من شفا عمرو حتى حطين.

معركة الشجرة وسقوط الناصرة

لقد أسلفت الحديث عن موقع الشجرة على خط المواصلات الرئيسي للناصرة وفي الشجرة بدأت قطعات جيش الإنقاذ بالقتال بعد انتهاء الهدنة لتأمين خط مواصلات الناصرة.

ومعركة الشجرة هذه، مع أنها هزيمة مؤلمة فاجعة، ومع أنها كانت السبب الرئيسي لسقوط الناصرة،إلا انها في الواقع كانت مفخرة لجيش الإنقاذ ومثالا ممتازا لبسالة الجندي العربي واستماتته وتصميمه وعناده.

أما تطورات المعركة فهي كالتالي:

١- بدأ العدو بسلسلة اشتباكات محلية على طول جبهة جيش الإنقاذ والقصد

من ذلك تثبيت قواته للدفاع، ومنعها من الحركة لنجدة الشجرة.

٢- بدأ العدو يزيد قوته المقاتلة في الشجرة، مما دفع قيادة الإنقاذ إلى تعزيز القوى المقاتلة في الشجرة، بسحب وحدات كانت تستعمل في الدفاع عن مراكز أخرى..

٣- بدأ العدو باشتباكات محلية في ترشيحا ومجد الكروم، وشفا عمرو ولوبيا وحطين والسموعي، والقصد منها تثبيت القوات العربية.

٤- أخذت معركة الشجرة تتطور وتزداد حدة. وزداد امتصاصها لقطعات جيش الإنقاذ، وللنجدات، بشكل جعل أكثر المواقع، من جملتها الناصرة، خالية تماما من وحدات متكاملة تصلح للدفاع والقتال المستقل.

٥- أخذ العدو يستدرج القوى المقاتلة في الشجرة في عمليات كرّ وفرّ، حتى يستنزفها، ويتمكن من تثبيتها.

لقد أدى كل ذلك إلى أن أصبحت أكثر أجنحة الجبهة الجنوبية للقتال بلا حراسة. وتقدم العدو في أمكنة تكاد تكون فارغة، واحتل شفا عمرو، ومنها تقدم. على الطريق الرئيسي، إلى الناصرة، وفاجأ مدرعات جيش الإنقاذ على مفرق عيلوط وهزمها. وتقدم منها إلى الناصرة. واحتلها بلا قتال.

أما في الشجرة، التي جمدت فيها معظم القطعات المقاتلة، فقد شدد العدو هجومه على جيش الإنقاذ، وبسقوط الناصرة أصبح القتال في غاية الخطورة، فأُمرَت القطعات بالانسحاب، وتبعثرت جميع القوى المنسحبة، وتقدم العدو واحتل مفرق الشجرة، وفي هذه الأثناء سقطت صفوريا ولوبيا وجميع القرى العربية المحيطة بالناصرة. وانسحبت فلول جيش الإنقاذ باتجاه عيلبون، ولو طاردها العدو لظل في تقدمه حتى الحدود اللبنانية.

لقد كانت معركة الشجرة كارثة وهزيمة، ومع هذا فلا شك أن العرب قاتلوا

فيها خير قتال. وإنني أذكر أن سرايا بكاملها كانت تدخل المعركة ولا يرجع منها أحد. لأنها كانت تُؤمرَ باحتلال أهدافها المعينة مهما كلّف الأمر. وكانت هذه القطعات تتقدم وتفُنى قبل الوصول إلى الهدف المعيّن، بسبب كثافة القوى المعادية التي كانت تقاتل في المعركة، والتي كان عددها، على أقل تقدير، خمسة أمثال القوى العربية التي كانت في المعركة.

أما عدد إصابات العرب في تلك المعركة فيزيد على الألف وخمسمائة إصابة، رغم أن البلاغات الرسمية، حينئذ لم تنشر هذا التقدير لعدم تمكّنها من إحصاء الإصابات في النجدات المحلية.

مسؤولية سقوط الناصرة

عقب سقوط الناصرة انتشرت إشاعات عن خيانة القاوقجي، وتواطؤ أهل الناصرة مع العدو. والصحيح أن كلَّ هذه الإشاعات لا تستند إلى أي أساس من الصحة. وإني اعتقد اعتقاداً جازماً أن المسؤولة الأولى عن سقوط الناصرة هي القيادة العراقية، إذ إنه كان بإمكان الجيش العراقي، حتى بمظاهرة هجومية واحدة لا تكلّفة أكثر من كمية قليلة والمحروقات من بضع طلقات من المدفعية، أن يخفف الضغط عن الشجرة، وعن جيش الإنقاذ، وذلك بتثبيت القوى المعادية وتحويلها لجهته. والواقع أن الجيش العراقي لم يحرك ساكناً، رغم رسائل الاستنجاد المتوالية والمؤثرة التي كانت قطعات جيش الإنقاذ ترسلها للقيادة العراقية، ولو لم تأمن قيادة العدو جانب الجيش العراقي، لما استطاعت التعرض للناصرة، ولما استطاعت أن تركز كل قوتها في الشجرة وجبهة جيش الإنقاذ.

على أن تحويل المسؤولية على القيادة العراقية لا يُنجي القاوقجي من مسؤولية التورط في عملية يعلم أنه لا قبل له بها. كما أن حيلة العدو في استنزاف قوى جيش الإنقاذ في الشجرة قد جازت على القاوقجي، وتورط بها دون التفات إلى تأمين

قوى الدفاع عن أجنحة المنطقة، هذا بالاضافة إلى نقاط الإهمال الأخرى.

ومما هو جدير بالذكر أن أهل الناصرة أنفسهم لم يقاوموا تقدم العدو أبداً والشيء نفسه ينطبق على قرى الناصرة التي لم تطلق حتى طلقة واحدة على العدو. وبهذه المناسبة، أذكر أن العدو، بعد احتلاله للناصرة وقضائها، صادر أكثر من "٧٠٠٠" قطعة سلاح مختلفة، مع كميات كبيرة من الذخيرة من السكان الذين ظلوا مكتوفي الأيدي أمام تقدم العدو.

بعد سقوط الناصرة وهزيمة الشجرة، تبعثرت قوات الجبهة الجنوبية من جيش الإنقاذ، وكانت تشكّل أكثرية القوة، وانهزمت شمالا على طريق الناصرة – الرامة، ولم يبق في الميدان، سوى قوى ضئيلة جدا تقاتل قتالا دفاعيا في ترشيحا ومجد الكروم، في الجبهة الغربية، وفي السموعي مقابل صفد، وكان القتال في هذه الجبهات على آخر رمق. وقد أصدرآمر المنطقة حينئذ العقيد أديب الشيشكلي أمراً عاماً بالانسحاب، على اعتبار أن القتال في منطقة الرامة "مجد الكروم" كان بدون جدوى، والواقع أن هذا التقدّير كان صحيحا ومضبوطا من وجهة عسكرية، لأن سقوط الناصرة خلق موجة ذعر عامة، وانتشر آلاف النازحين والمهاجرين على الطرق والمسالك بصورة تفتت الأكباد. والجميع وجهتهم لبنان والقرى الشمالية الجبلية. ولا يخفي على القارئ ما في ذعر اللاجئين من تأثير على معنويات القرى والسكان المقاتلين. وكانت الأنباء تصل شمالا. مبالغا فيها عن فظائع العدو ومقدار قوته، وكانت الأنباء تُصدّق من قبل العسكريين بسرعة، وبلا تمحيص، بسبب الفوضى والذعر والتشويش والارتباك، هذا بالاضافة إلى أنه لم يكن في الميدان وحدات منظمة تستطيع مواجهة الموقف وتثبيته.

ولو عرف العدوكيف يستثمر فوزه في الناصرة والشجرة، لسقط الجليل بكامله حينئذ، ولكن العدو لم يطارد قوى الإنقاذ من الجبهة الجنوبية، وهذا مكّن عناصر خفيفة من جيش الإنقاذ من التمركز جنوباً بما يشبه نقاط دفاع أمامية وحاول العدو أن يقطع الطريق عند مفرق سعسع في الهجوم الذي شنّه في ترشيحا

التل الأحمر، ولكن العدو ارتد في الهجمتين ولم يصل إلى هدفه.

والفضل الأول في صمود ما تبقى من الجليل بعد الشجرة والناصرة، ولحين مجيء قطعات نظامية من قوى الإنقاذ للدفاع عن المنطقة، يعود الى موقف وبسالة قرى شعب والسموعي وترشيحا ومجد الكروم، وقد يستغرب القارئ أن يؤثر موقف قرى معدودة في مصير منطقة بها عشرات القرى. والذي حدث هو أن سقوط الناصرة ومعركة الشجرة أفقدا معظم القرى والسكان ثقتهم بالقوى المقاتلة في منطقتهم، وثقتهم بفائدة القتال أصلاً، وخصوصاً بعد أن بدأت لعبة القتال في فلسطين تنكشف من أساسها، ولكن موقف هذه القرى المقاتلة التي ذكرت، بعث في المنطقة روح بسالة جديدة، وبدأ السكان يفيقون من تأثير إشاعات التهويل في قوة العدو وبطشه.

اثناء معركة الشجرة، كان لجيش الإنقاذ في قطاع المالكية - القدس - صلحة - بليدا، ثلاثة أفواج مشاة مهمتها الرئيسية الدفاع عن المالكية، عقدة المواصلات الوحيدة للجليل من لبنان. وكانت هذه القطعات مثبتة في جبهتها بحكم مهمة الدفاع التي أسندت اليها. وقد تمكنت هذه القطعات من إرسال بضع سرايا لنجدة القوى المقاتلة جنوباً وغرباً.

وفي اثناء معركة الشجرة كان الفوج الأول والفوج الرابع يقومان بمناورة تدريب، بغية الهجوم شرقا على الهراوي ومستعمرة النبي يوشع، والاشتراك بعملية هجوم لقطع الحولة بالتعاون مع الجيش السوري. وكانت مناورات التدريب على هذا الهجوم والاستعداد له تجري على قدم وساق. وعند سقوط الناصرة وانهزام الشجرة أمرت هذه القطعات بالزحف جنوباً ونجدة ترشيحا ومجد الكروم، والتمركز على جميع مغالق قطاع الجليل شمال الشجرة. وقد صدرت الأوامر لهذه القطعات الزحف جنوباً وأخذ مكان اللواء الاحتياطي الثاني الذي كان في ذلك الحين في حكم المتبعثر، وقد تفتت أكثر قطعاته في الشجرة. وكانت المعلومات عن العدو في غاية الغموض، والإشاعات عن تقدمه كثيرة ومختلفة

ومشوشة. هذا، بالإضافة إلى أن العدو حاول النفوذ إلى قلب الجليل بهجومين كثيفين على ترشيحا ومجد الكروم، مع مناوشات بسيطة في الجبهة الشرقية، أي جبهة ميرون. اليش – الصفصاف، وعلى هذا، كان الموقف الحربي في غاية الغموض. وكان الزحف جنوباً مغامرة خطراً خصوصاً بسبب هجوم العدو المستمر على ترشيحا، والخشية من توفقه في احتلالها وقطع الطريق على القوى التي جنوب مفرق ترشيحا - سحماتا.

ولذلك قُدِّر الموقف كما يلي:

١- اعتبرت المنطقة بكاملها منطقة قتال مجهولة من حيث المعلومات عن العدو.

٢- أُمِرَت القطعات بالسير بشكل أرتال مسلحة سهمية لمواجهة أي عناصر معادية متقدمة.

٣- أُمرَ الفوج الرابع بنجدة ترشيحا أولاً ثم الزحف جنوباً.

٤- كانت أهداف الزحف المغالق الجنوبية للمنطقة. "والمقصود بالمغالق: المداخل الطبيعية للمنطقة، والتي تمر بها طرق صالحة للآليات. بصورة خاصة المدرعات".

٥- عُيِّنت هذه المغالق كأهداف، وهي: مجد الكروم، سخنين، عيلبون، المغار، فرادة، السموعي.

بدأت هذه القطعات حركتها بعد ان سلّمت مواقعها لقطعات نظامية من الجيش اللبناني، الذي قَبِل، بعد مساع كثيرة. أن يحمي عقده مواصلات المالكية، لتتمكن من الزحف جنوباً. وإنني أذكر أني عندما كنتُ أقوم بتسليم مراكز الدفاع في المالكية إلى المقدم حسامي، قائد فوج المشاة الذي تسلم المنطقة "وكان ذلك قبل الهدنة الثانية بيوم واحد" إني ذكرت له أهمية المالكية بالنسبة لنا، وأن احتلال المالكية سيقطعنا في الجنوب. ويجعل العدو يُتِمّ حلقة تطويقة علينا. أذكر بأن المقدم حسامي أجابني بأن الأوامر التي لديه من القيادة اللبنانية بأن لا يأمر

الموجه بإطلاق النار مطلقاً، وأنه قد بُلِّغ رسمياً، بقرار وقف النار هذا في الوقت الذي كان فيه العدو يهاجم ترشيحا بكل شدة وشراسة.

على أي حال تحركنا نحو الجنوب ونحن في غاية الغموض من حيث الموقف العام، وغير مطمئنين إلى نية الجيش اللبناني في الدفاع عن شريان مواصلاتنا الرئيسي "المالكية" وكانت حركتنا خلال طرق مكتظة باللاجئين الذين كانوا في حالة محزنة مع فلول القطعات المنسحبة من الجبهات الجنوبية. هذا بالإضافة إلى تشويش الأخبار عن تقدم العدو، وحتى بدأت أتصور أننا نشتبك مع طلائعة في أي مكان. وظللنا على هذه الحال، حتى وصل أول الرتل مفرق سمحاتا. ترشيحا. وهناك تبدَّل الوضع النفسي تماما، فبينما كان الطريق حتى تلك النقطة مملوءاً بالباكين والمنهزمين، بدأنا نسمع أهازيج المعركة من ترشيحا وأهلها البواسل، وبدأنا نحس بفلسطين المقاتلة المجاهدة المستميتة، تتمثَّل أمامنا في أهل ترشيحا، رجالها ونسائها، أعتذر من هذا الوصف العاطفي للوضعية، ولكن ولولا أهل ترشيحا وحاميتها من السرية اليمانية وسرية عقربا، لتمكن العدو من احتلالها وبالتالي احتلال الجليل.

بعد وصول النجدة إلى ترشيحا بقليل، رُدَّ هجوم العدو وكُبِّد خسائر كبيرة، وتثبت الموقف في ترشيحا مع أنه كان في حكم الميؤوس منه، لدرجة أن القطعات في سمحاتا قد تمركزت دفاعيا وتوقفت بعض الوقت عن التقدم جنوبا.

تحركت القوات، بعدها، نحو الرامة وإنني أذكر أني قابلت العقيد الشيشكلي على مفرق سمحاتا ليلاً. وكان متجها نحو لبنان. وأخبرني أن مجد الكروم قد أوشكت على السقوط، وأن الموقف سيِّئ جداً في منطقة الرامة. وقد بُلِّغتُ، -حينئذ- بالزحف إلى سخنين -أقصى مَغْلَق في الجنوب الغربي- وإلى عيلبون -أقصى مَغْلق في الجنوب- وكلا المَغْلَقين تتحكم في مواصلاتهما مجد الكروم، المَغْلَق المنيع غرب الجبهة، ولا يمكن الوصول إليه بأمان عسكري تام دون التأكد من مجد الكروم.

في هذه الأثناء، كانت طلائع الفوج الأول تقوم بهجوم معاكس في مجد الكروم، رغم الاستحالة العسكرية للنجاح، أمام ضغط العدو في تلك الجبهة، وتمكنت هذه الطلائع، بعد قتال مرير، من تثبيت الجبهة هناك. وتقدمت بقية الرتل في عيلبون، وتمركزت سرية هناك، واتجهت إلى سخنين للتمركز فيها.

معركة سخنين

كانت سخنين، كما أسلفت، من أهم مغالق المنطقة في الجنوب الغربي، وكان بها ما يقرب من سريّتين مسلحتين من أهلها، وقد صدرت الأوامر لنا بالتمركز فيها، والاستعداد للهجوم على قرية المغار، الواقعة غرب سخنين، والتي كان العدو يحتلها، وعندما تقّدمت قواتنا للتمركز في سخنين، فوجئنا بقوة من الأهالي تزيد على سريتين، متمركزة تمركزا دفاعياً لمنع قواتنا من الدخول للقرية، بحجة أن دخولنا سيدفع العدو إلى مهاجمة القرية. بالطبع لم تكن قواتنا مستعدة لقتال قوى القرية المسلحة. فاضطررنا للارتداد الى قرية عرابة البطوف، إلى الشرق من سخنين. وفي تلك الليلة ذهب وفد من سخنين، ودعا العدو لاحتلال القرية، وتقدمت قوات العدو واحتلتها ليلاً وتمركزت بها. وفي الصباح قامت ثلاث سرايا من قوى الإنقاذ بالهجوم على القرية، واحتلتها بعد معركة ساعتين، وبدأت القوات تنكل بالقرية كأنها مستعمرة معادية.

لقد أثارت قصة سخنين ضجة كبيرة في المنطقة، واستنكر الناس الفظاعة التي عومل بها أهلها. والصحيح أن العملية، على فظاعتها، كانت ضرورة عسكرية مطلقة لا مناص منها. صحيح أن لأهل سخنين بعض الحق في تصرفهم، من حيث عدم ثقتهم بالقوة التي جاءت للدفاع عنهم، خصوصاً بعد أن شاهدوا بأعينهم القوى السابقة تنسحب من قرى أخرى دون قتال، وتترك أهلها للقتال اليائس وحدهم، مما يتركهم وجها لوجه أمام عدو متفوق سرعان ما يتغلب عليهم ويُنكّل

لهم، لقد كان هذا المنطق واضحاً بالنسبة لسكان سخنين وقرى أخرى كثيرة ولا أمل بمعالجته بالإقناع وخلافه. ولذلك كان من الضروري إجراء هذه الخطوة الفظيعة لتحذير القرى الأخرى الموشكة على مفاوضات التسليم للعدو من مغبّة ما هي مقدمة عليه.

بعد التمركز في سخنين قدّم أهلها سريتين مدربتين للقتال. وقد أبلت هاتان السريتان في المعارك التي تلت "قصة سخنين" خير بلاء، وكانتا من أبسل القطعات المقاتلة في المنطقة.

باحتلال سخنين والتمركز بها، ثبتت جبهات القتال مرة أخرى في ما تبقى من الجليل. وتعتبر عملية الزحف جنوباً من أكثر عمليات جيش الإنقاذ توفيقا وترتيباً. وهي بحد ذاتها عمل عسكري رائع، اعتمد على سلسلة مقامرات متتالية، جعلت العدو يقتنع بأن القوى العربية الجديدة هي قوى أخرى بمعنويات مختلفة. وقد تعمدنا القيام بعمليات هجومية طيلة الأيام الأولى، لإيهام العدو بأن القوى الجديدة مستعدة وكبيرة، وأنها خلاف القوات التي هزمها العدو في الناصرة والشجرة. وإلى هذا أصبح جيش الإنقاذ مرة أخرى متمركزاً تمركزاً دفاعيا لا بأس بقوته على قوس تحده طربيخا "في الشمال الغربي"، ترشيحا – مجد الكروم – سخنين – عيلبون – سبانا – يا فوق – فرادة ميرون – الجش – الصفصات "في الشمال الشرقي"، وتمّم الجيش اللبناني، قوس الدفاع حتى قرية بليدا في لبنان، وبقيت قيادة الإنقاذ في عيترون.

بعد سخنين، خيّم على الجليل هدوء عسكري نسبي دام حوالي أسبوعين، انهمكت القوات والسكان خلالهما في بناء الاستحكامات والحصون الفردية والموانع ضد الآليات والمدرعات، وتحصين المغالق التي أسلفت الحديث عنها بشكل خاص.

وقد كان هذا الإغراق في التحصين والتحكيم على ضرورته، مبالغاً فيه. وسببه الأول أن القوات الموكل اليها الدفاع عن المنطقة ليست كافية كما أن

العدو كان يستعمل المدرعات بصورة واسعة، ولم يكن لدى قوى الإنقاذ أسلحة مضادة حاسمة بصورة عسكرية معقولة نظراً لإمكانيات القوى المدافعة ومدى قوتها، بسبب انعدام القوى الاحتياطية الخلفية التي يتمكن بها المدافعون من سدّ الثغرات التي يحدثها العدو في النطاق الدفاعي للمنطقة.

على أنه كان هناك عاملان ساعدا على تضليل العدو وجعلاه يعتقد ان الدفاع كان قوياً ومكيناً:

الأول: لم يكن العدو يجسر أبداً على التقدم إلا بمحاذاة طرق الآليات وطرق الآليات هذه تمر بالمغالق التي أسلفت الحديث عنها. وقد تمكنت قوى الإنقاذ من تقوية هذه المغالق، وتكثيف القوى المدافعة فيها، أما الدفاع عن المسافات بين هذه المغالق فقد كان يجري بواسطة دوريات مسلحة ونقاط دفاع أمامية صغيرة وخفيفة.

ثانياً: لم يكن العدو يملك مدفعية ميدان مؤثرة فعالة، بينما كان لدى قوى الإنقاذ بطارية مدفعية من نوع ممتاز، سواء بمداها أو بفعاليتها، وكانت هذه المدفعية تستخدم في كل مكان، وبغاية الاستهتار والجرأة، كانت في أكثر الأحيان قادرة على تفكيك وبعثرة أرتال العدو المتقدمة.

هذا بالاضافة إلى أن طبيعة المنطقة، جغرافيا، كانت تساعد المدافعين على مهمتهم، وتعرقل العدو عن القيام بعملية احتلال أو تقدم.

على أن الوضع، برغم كل ما ذكرت، كان خطيراً، وبصورة خاصة بسبب قلة القوات. ولكي أبين للقارئ مدى هذه القلة، أذكر أن بعض الأفواج، كانت تدافع عن جبهة يزيد طولها على الـ "٥٠" كيلو متراً، وعليها، زيادة عن وضع القوى في مراكز دفاعية في إطار منطقة الدفاع، ان تُؤمن احتياطياً خلفياً لمواجهة المفاجآت، ولنجدة الجبهات الأخرى. ويمكن للقارئ ان يتصور هذا الدفاع إذا علم أن القوة المشابهة في الجيش النظامي في حرب أصولية، يجب ألا تزيد جبهتها على الثلاثة كيلومترات.

وقد لاحظ أمراء قطعات الميدان هذا الضعف وهذه المهمة المستحيلة اليائسة. ولم تنفع تقاريرهم الكثيرة وصرخاتهم المستمرة في إقناع القيادة في دمشق بضرورة تعزيز قوى الدفاع وتكبيرها وظلّت القيادة في دمشق، متمسكة بموقفها، وحجتها أن العدو لن يقوم بأي حركة كبيرة بسبب الهدنة، أو بأنه ليس لدى القيادة المال الكافي لتجنيد قطعات أخرى اضافية، وتُرِك أمراء الميدان لمواجهة الموقف على صعوبته بوسائلهم المحدودة جداً.

وأعادت القيادة توزيع القطعات بصورة ثابتة وعلى الوجه التالي:

الفوج الأول: في قطاع بليد - المالكية - صلحة.

الفوج العلوي: في قطاع الجش، الصفصاف، ميرون.

الفوج الرابع: يتمركز على القوس المحدود بالسموعي، فرادة - باقون - سبانا - عيلبون - خربة مسلخيت - كفر مندا - كوكب - سخنين.

الفوج الثاني: قطاع مجد الكروم والليات.

اللواء الثالث: في ترشيحا وتربيخا.

وقد تُركت سرية احتياط للقيادة العامة في سعسع، وبقيت قيادة الإنقاذ في ميترون في لبنان.

وأرجو ألا يفهم القارئ من تسميتنا هذه القطعات بأنها كانت قطعات كاملة الملاك من حيث معناها العسكري، فقد كانت تعاني نقصاً كبيراً في الضباط والأسلحة، وهذا النقص في مركز قتال لمدة تزيد، في بعض الأحيان عن الشهر، ولا ينتقل منها المقاتل إلا إذا قُتل أو جُرح أو انهزم.

وزيادة على ذلك ظلت القيادة في دمشق، متعنتة ومتصلبة، بحماقة منقطعة النظير، في وجه أي اقتراح يأتي من آمري قطعات الميدان. وظلّ التموين، وعلى الأخص تموين الذخيرة والمحروقات وقطع التبديل للسيارات والمدرعات، في غاية الفوضى والبطء، وأذكر، على سبيل المثال، أن تقارير أرسلت للقيادة، بخصوص إصلاح السيارات والمدرعات، وبخصوص الحاجة لبعض قطع التبديل، فما كان

من القيادة إلا أن أرسلت لجنة لفحص السيارات بعد وصول التقارير إليها بأسبوعين، وجاءت هذه اللجنة وفحصت السيارات وأوصت القيادة باللازم. وبعد شهر جاءت لجنة أخرى، للتأكد من صحة وصايا اللجنة الأولى، وبعد أسبوع جاءت لجنة ثالثة، وتبعتها لجنة رابعة وخامسة وسادسة، ولما جاءت اللجنة الثامنة أذكر أنَّ آمر وحدة النقليات -وهو عريف من منطقة جنين- طرد أفرادها وأهانهم. وفي آخر ذلك الشهر تبرع أفراد وحدة الآليات، برواتبهم كلها؛ وأتمُّوا نواقص السيارات المدرعات من جيبهم الخاص. أما القيادة فقد أرسلت بأسرع ما تستطيع تطلب معاقبة العريف وإرساله لدمشق لمحاكمته.

وعلى أي حال لم يتنازل أحد من القيادة لزيارة الجبهة. ولذلك لم يكن بالإمكان أن ترى القيادة ما يراه أمراء قطعات الجبهة، وتوتّرت العلاقة بين الطرفين. ووصلت إلى صورة بعيدة عن كل أدب وضبط عسكري. ولم تكن الرسائل بين الطرفين سوى مبادلة الشتائم والاتهامات. وانتهت بأن اقتنع أمراء القطعات بأنه لا أمل في إقناع القيادة بالقيام بأي خطوة جديّة لتعزيز الوضع. ولذلك بدأوا بالعمل مستقلين، كلٌّ بأسلوبه الخاص.

وبالطبع لم يكن هناك مجال للعمل سوى في تحسين الوسائل التي بين أيديهم، من قطعات واستغلال إمكانيات المنطقة التعبوية إلى أقصى الحدود، ثم زيادة الاستحكامات والمواقع وأبراج الدفاع.

ولحسن الحظ، فإن الوضعية العسكرية الناشئة عن مجيء القوات الجديدة إلى الجليل حسّنت من معنويات السكان وتعاونهم. وقد بُدئ بتشكيل لجان محلية انتُخبت من القرى، وأعطيت صلاحيات قضائية وإدارية، من هذه اللجان المحلية شكِّلت لجنة مركزية، مركزها الرامة. وقد تحملت هذه اللجان مسؤولية تنظيم العلاقات بين السكان والقوى العسكرية. كما كانت تشرف على حل مشاكل المدنيين وشؤون التموين واللاجئين. وعلى العموم، قامت هذه اللجان بتحسين الوضع في الجليل إلى أبعد درجة. ولها يعود الفضل الأول في جعل الجليل قادراً

على الصمود مدة أطول.

وكانت العادة أن القوى العسكرية في المنطقة تستعين بالمسلحين من الأهلين في القتال. وكانت هذه النجدات المحلية، على بسالتها وشجاعتها، لا يمكن ضبطها والاستعانة بها أصوليا. وكثيراً ما كانت تتسبب في نشر الفوضى وضياع المعركة وبعثرة الذخيرة بدون جدوى. ولذلك رُؤي أن تُنَظّم وضعية المسلحين الأهلين على أساس جديد وبواسطة اللجنة المركزية.

وأهم الخطوات التي أتخذت في تعزيز الوضع -محلياً- في الجليل هي الآتية:

أولاً: التدريب والتنظيم: تعلّم معظم آمري القطعات بالخبرة والتجارب السابقة، أنه لا يمكن الاعتماد على القتال الدفاعي إلا على وحدات منظمة مستميتة، تستطيع الصمود رغم تأزم الحالة وسوئها. وقد وُجد بالتجربة أنه لا يمكن الاعتماد، في هذا الحالة، على القطعات البدوية، أو القطعات التي أكثر جنودها من المدن، مثل دمشق وحلب. وعلى العموم كانت الوضعية الحرجة التي تعانيها الجبهة، لا يصلح للقتال فيها سوى القرويين الفلسطينيين، والفلسطينيين بصورة عامة، لأسباب عاطفية تتعلق في حب هؤلاء الجنود لأرضهم، وشعورهم بأن القتال هو مسؤوليتهم الأولى قبل غيرهم من الأخوان من جنود البلاد العربية الأخرى. ولهذا الغرض، أنشئت عدة معسكرات تدريب للجنود والرتباء في المغار وعرابة ومجد الكروم، وكان أهمها للقطعات النظامية وتدريب المسلحين المدنيين، بقصد استخدامهم للدفاع المحلي. وبالتدريج بُدئَ بالتخلص من فئات كثيرة من الجنود، وعُوّض النقص بالمجندين الفلسطينيين، وقد كان هذا الإجراء، رغم ما أثاره من امتعاض وسخط في القيادة، اجراءً حكيماً، حَسَّن القطعات وزاد من فعاليتها في القتال.

ثانيا: المدنيون: أُعفي السكان المدنيون من معظم مهام القتال. والمهمة الأولى التي أُسندتْ لهم كانت في إنشاء الاستحكامات ومدّ الطرق وقد كان جهدهم في هذا الباب رائعا، فقد زاد ما أنشأوه من خطوط دفاع المواقع على مائتي كيلومتر،

وبلغ ما فتحوه من طرق للآليات مسافات تزيد على الثلاثمائة كيلو متر من الطرق الصالحة للسيارات والمدرعات والمدافع. وكان العمل في كل ذلك يقوم به ما يزيد على ألف عامل يوميا، هذا بالاضافة إلى ما يقرب من فوجي مشاة نظاميين جيدي التدريب، زودهما السكان بأسلحتهما وألبستهما، وأستخدما في مهام الدفاع وكقوة احتياطية خلفية.

وقد حَسَّنت هذه الإجراءات الوضعية العسكرية تحسيناً كبيراً. وبدأت القطعات، وعلى الأخص في الجبهة الجنوبية، تتخذ وضعاً هجومياً. وبدأ التفكير الجدي بالقيام بحركة هجومية نحو الشرق والجنوب والغرب.

معارك شعب

شعب قرية صغيرة لا يزيد عدد سكانها على الألف نسمة. وتقع إلى الجنوب الغربي من مجد الكروم، وكانت حامية القرية عبارة عن سرية من أهل شعب، شكلتها من حوالي الـ "١٠٠" مقاتل. وهذه السرية تابعة للجهاد المقدس، ومسلحة تسليحاً لا بأس به.

ولم تكن معارك شعب بالمعارك الحاسمة، كما أن القرية نفسها كانت خارج النطاق الدفاعي للمنطقة، وكان الدفاع عنها، ومحاولة الاحتفاظ بها، جنوناً عسكرياً مطبقاً، بسبب احتلال العدو قرية المغار المشرفة إشرافاً تاماً على شعب، والمتحكمة تحكماً عسكرياً مطلقاً بها. ولم لكي الاحتفاظ بشعب أو تركها، مما يقدم أو يؤخر في الوضعية العسكرية العامة، على انني أحبّ الحديث عن شعب لأن القتال فيها كان مثلاً رائعاً إلى أبعد الحدود لقتال القرويين الفلسطينيين، واستماتتهم ودفاعهم وعنادهم في القتال وفي الهجوم، وعدم استسلامهم للهزيمة أو اعترافهم بها.

سقطت شعب، لأول مرة في يد العدو، بعد سقوط الناصرة، واحتلال العدو للمغار

وسخنين، وبعد مجيء القوات الجديدة للجليل لم يكن لدى هذه القوات الإمكانيات الكافية لاسترجاع شعب، خصوصا وأن شعب، كما أسلفت، كانت خارج النطاق الدفاعي للمنطقة، على أن أهل شعب كانوا مصممين على استرجاع قريتهم سواء ساعدتهم قوى الإنقاذ أم لم تساعدهم. وأخيرا، قرر أهل شعب الهجوم وحدهم، واسترداد القرية. وفعلاً قاموا بهجوم سريع خاطف على العدو في القرية، وأخرجوه منها بعد أن كبدوا قواته في القرية خسائر فادحة تشبه الإفناء.

وبعد استرجاع القرية، تحكّمت حاميتها في خطوط دفاعية مستحيلة، وظل العدو يهاجم طيلة ثلاثة شهور، ولكنه لم يستطع قهر حاميتها، وظلت القرية تتداولها الأيدي. وكثيرا ما تمكن العدو، من احتلالها، ولكن سرعان ما تقوم حاميتها بهجوم معاكس تسترجع به القرية وظل الحال على ذلك طيلة ثلاثة شهور مستمرة بقتال مرير قاس لم يزد حامية شعب سوى عناد وتصميم. وكانت الحامية، تغنم سلاحا جديداً كل معركة، وتزداد قوتها بالذخيرة والمعدّات. وصمدت أمام هجمات العدو وقواته المدرعة التي كان يقذف بها لإرغام الحامية على التقهقر. ولكن أهل شعب صمدوا حتى في وجه التشكيلات المدرعة الكثيفة التي لم يكن لدى الأهالي سلاح مضاد لها. ولم ينسحبوا من قريتهم الا عندما صدر لهم الأمر بالانسحاب من القيادة العامة، عندما قررت الانسحاب نهائيا من الجليل.

بهذه المناسبة، أذكرُ أنه كان للجهاد المقدس خمس سرايا منظمة في الجليل، إحداها سرية شعب. وكانت هذه السرايا سرايا باسلة حقاً رغم مشاكلها في التموين والقيادة. كما أن ملاكها في التسليح والرجال وإمكانيات الحركة كان ممتازاً، ومكّنها من الاشتباك في معارك بعيدة مع العدو دون الاهتمام بموضوع المواصلات وخلافها.

وهذه السرايا كانت مؤلفة من جنود ورقباء وضباط فلسطينيين، مكنتهم معرفتهم بالأرض والسكان من القتال بكل يسر وسهولة. ولم يكن ينقصهم سوى

توجيه عسكري بسيط ليجعل منهم وحدات عسكرية جيدة صالحة للقتال من جميع الوجوه.

بعد أن تثبَّت الوضع في الجليل، وانتهت أعمال الاستحكام والتحصين، بدأت قوى الإنقاذ تتوسع في نطاقها الدفاعي، ليأخذ النطاق شكلاً هجومياً. وبعبارة أخرى، بدأت القطعات تتوسع في تمركزها لتحتل نقاطا جديدة تهديدية.

ففي الجبهة الشرقية تقدمت قوى الإنقاذ وتمركزت شرق مغار الخيط المشرف على طريق الحولة الرئيسية. وعلى بعد "٣٠" كيلومترا من الجبهة السورية.

وفي الجبهة الجنوبية، احتلت نقاطاً جنوب شرق ياقوق والوعرة السودة، وهذه النقاط تتحكم في طريق طبريا - صفد، واسترجعت كفرمندا وكوكبا. وقد تسبب هذا التمركز الجديد في وضع قوى الإنقاذ في مراكز تهدد أهدافاً رئيسية للعدو، فقد كان من الممكن مُباغتة نهاريا وحيفا والناصرة وطبريا وصفد والحولة بعمليات سريعة، لا يتجاوز الوقت اللازم لها عشر ساعات. وبالطبع كان من الواضح ان قوى الإنقاذ لم تكن في وضع يمكنها من القيام بعمليات هجومية على هذا النطاق. ولذلك بدأت المساعي لحمل الجيشين السوري واللبناني على إرسال قوى إلى الجليل للقيام بهذه الحركات. وكان يكفي هذه العمليات الهجومية لواء مختلط واحد على نفس مستوى التسليح والحركة الذي يملكه الجيشان السوري واللبناني وقد أنتجت هذه المساعي في إثارة اهتمام القيادة السورية بجبهة الإنقاذ، وبدأت القيادة السورية ترسل ضباطاً من القيادات لدراسة الجبهة وإمكانياتها.

حركات العدو

في ٤٨/٨/١٥ صمّم العدو على القيام بعملية اكتساح عام لجبهة الإنقاذ في الجليل. وقد هيأ لهذا الغرض لواء آليا مدرعاً سريع الحركة جيد التسليح،

واستُعمِل فيما يسمى "رتل جوك" Jock columu وهو التشكيلة التي استعملها الإنكليز لأول مرة في شمال إفريقيا. وكانت لهذا الرتل أربع قواعد رئيسية يتنقل بينها هي: نهاريا، جبل طرمان، طبريا، الحولة وصفد.

وقد بدأ العدو عملياته بحركة جس نبض probing عامة على الجبهة، كان يقصد منها العثور على ثغرة في النطاق الدفاعي ينفذ من خلالها إلى المنطقة ويحتلها. وكانت أولى هجماته على ترشيحا لاحتلالها والنفوذ إلى مفرق سحماتا لقطع القوى العربية جنوب هذا المفرق، ثم الوصول إلى سعسع، عقدة المواصلات الرئيسية في داخل الجليل. وقد شن العدو هجمات عنيفة على ترشيحا "الجبهة الغربية"، ولكنه رُدّ فنها جميعها بهجمات معاكسة باسلة كانت تجعله يتقهقر إلى ضواحي نهاريا وجدين. ولما يئس العدو من احتلال ترشيحا، بدأ محاولاته على الجبهة الجنوبية، فقام بثماني هجمات كثيفة على سخنين وكفر مندا وعيلبون وسبانا ومجد الكروم، ولكنه صُدَّ في هذه الهجمات أيضا، برغم الضحايا الكثيرة التي كانت تتكبدها قوى الإنقاذ. ولم يهاجم العدو الجبهة الشرقية على نطاق واسع، واكتفى بهجمة واحدة على مغار الخيط ارتد فيها. وقد أدّى اقتصار العدو في الهجمات على الجبهة الشرقية إلى تحويل نظر القيادة عنها، واعتبارها أمينة لا خطر منها ولا خوف. هذا الاعتقاد هو الذي جعل العدو فيما بعد يجد الثغرة التي ينشدها. والتي أدّت إلى سقوط الجليل النهائي.

وقد اعتمد العدو في كل عملياته هذه على الحرب الليلية والمدرعات، وسرعة الحركة. وجميع هذه العناصر كانت لسوء الحظ مفقودة في القوى العربية. فالحرب الليلية والهجوم ليلاً باحكام تام، يضطر معه أمراء القطعات إلى التقهقر باستمرار حتى الصباح، حيث يقومون بهجوم معاكس يكلّفهم إصابات جسيمة، ويكبد العدو أكثر منها، بحيث يضطر إلى التخّلي عن ما كسبه ليلاً. وبينما كان بإمكان العدو التعويض عن خسائره بجلب قطعات جديدة. كان من الصعب على القطعات العربية تعويض التصدع الذي كان يصيب صفوفها.

أما المدرعات فقد كانت مصيبة المصائب: فلم يكن لدى قوى الإنقاذ سلاح حاسم ضدها ولذلك اضطر أمراء القطعات إلى تسليح الجنود معنوياً بالدعاية ضد المدرعات، وبأنها لا تهم. ولحسن الحظ لم يكن العدو يحسن استخدام المدرعات، على أن هذا لم يمنع من أن مدرعاته كانت تقتحم الجنود العرب المشاه الصامدين في وجهها، محاولين ردّها بأسلحتهم الخفيفة، كما حدث في كفر مندا مثلا.

معارك كفر مندا وعيلبون وسبانا

هذه المعارك الثلاث هي في الواقع معركة واحدة قامت بها تشكيلة جوك واحدة للعدو، وقوتها لواء خفيف وقد قامت هذه القوة بالهجوم صباحاً على كفر مندا بهجوم مدرع كثيف، سبقته نيران مدافع مورتر ثقيلة. ولم يكن في كفر مندا سوى بندقية واحدة مضادة للمدرعات. وقد تمكن العدو من اقتحام خطوط الدفاع الأمامية، بعد أن قتلت المدرعات دهسا جميع المدافعين في الخط الاول، ولكن بقية المدافعين استماتوا بالدفاع بالقنابل اليدوية والمولوتوف. وتمكّنوا من ردّ هجوم العدو الذي اضطر للتقهقر، رغم إصاباته الضئيلة جدا، وتحول هذا الرتل إلى عيلبون وسبانا، فهاجمهما من بعيد، ولكنه ارتد عنهما أيضا.

وفي المساء بدّل العدو قطعاته، وقام بهجوم كثيف على عيلبون من اتجاه سبانا وحطين، واحتل خطوط الدفاع الأمامية، وبدأ في التقدم بسرعة مخيفة جعلت قيادة الجبهة تحمل أثقالها للابتعاد عن خطر تقدم العدو الذي كان يظن أن الطريق أمامه ممهدة بدون مقاومة.

فأهمل تشكيلاته، وبدأت حركته تأخذ شكل انتقال سلمي في أرض صديقة وفي الصباح قامت القوات العربية بهجوم معاكس واسترجعت معه جميع ما فقدته، وتمكّنت من سدّ الثغرة في النطاق الدفاعي.

معركة المنارة

قام الفوج الأول من جيش الإنقاذ على مستعمرة المنارة أثناء معركة النقب الأولى. وقد تمكنت القوات العربية من تطويق المستعمرة، وقطع مواصلاتها، وإسكات نارها. وعندما تقدمت لاحتلالها حدث نفس ما حدث في مشمار هاعيميك.

وبدأ القاوقجي بمفاوضات تسليم أو مبادلة مواقع، وكان ذلك بواسطة مراقبي الهدنة. وبالطبع تمكن العدو من تعزيز قواته في المستعمرة وتموينها جواً. وعندما انتهى من عملية التعزيز هذه انقطعت المفاوضات، وارتد العرب عن المستعمرة.

إنّ ذكري لمواقع ومعارك معينة لا يعني أنه كان هناك فترات هدوء فالواقع أن المناوشات والغارات كانت مستمرة، على طوال الجبهة وبصورة متواصلة منهكة، خصوصاً وأن الجندي في الخط الأمامي كان لا أمل له بالراحة أو التبديل إلا إذا جرح أو قتل.

حركات العدو حتى ٢٧/١٠/١٩٤٨

ابتدأ العدو منذ ١/١٠/١٩٤٨ بالقيام بعمليات هجومية كثيفة على طول جبهة جيش الإنقاذ في الجليل. وبعد فراغ العدو من معارك النقب الأولى، بدأ يتفرغ جدّيا للجبهة الشمالية. وقد كان تقدير الموقف، آنذاك، أن العدو يحاول الهجوم على الجبهة السورية وجبهة جيش الإنقاذ، وكان يتوقع أن حركاته ستكون ضد الجبهة السورية أولاً، وكان المفروض أن تبدأ القوات العربية والجيش السوري وجيش الإنقاذ، بالعمليات الهجومية أولا لمباغتة العدو وللحصول على المبادأة. وقد أرسل الجيش السوري فوجي مشاة لجبهة جيش الإنقاذ لمعاونة العمليات الهجومية المنوي البدء فيها.

أما العدو، فقد باغت الجبهة الشرقية: ميرون -الجيش- الصفصاف، بينما

كان فوجا الجيش السوري في الطريق إليها. وتمكن العدو من خرق النطاق الدفاعي في الجش، والتقدم إلى سعسع وإسقاطها، ومباغته قوى الجيش السوري بين الجش وسعسع وبعثرتها. أما كيف حدث هذا التوقيت، فلذلك قصة استخباراتية أحبُّ ذكرها.

لقد علم العدو بقدرة قادر! بخطة الهجوم العربي وتفاصيلها، لا أدري كيف!! فسبق يوم الهجوم بثلاثة أيام بهجوم من عنده. ومعرفة العدو بتوقيت الهجوم العربي أمر في غاية الغرابة. أما الأغرب منه فهو أن الحكومة اللبنانية والجيش اللبناني علما سلفاً بموعد الهجوم اليهودي وتفاصيله قبل حدوثه بأسبوع كامل، ومع ذلك حافظا على السر الخطير، ولم يخبرا به قيادة الإنقاذ أو القيادة السورية.

هجوم العدو على الجش والصفصاف

هاجم العدو الجبهة الشرقية من قاعدة صفد بقوة لواء آلي واحد بشكل رتل سهمي وقد مهَّد العدو لهجومه بغارات جوية مدمرة وكثيفة جداً، وبقصف مدفعية ميدان من عيار ثقيل جداً، ربما ١٥٠ مم أو أكثر، ولأول مرة استعمل العدو مدافع الميدان على نطاق واسع، والراجح أنه استعمل المدافع التي غنمها من الجيش المصري في معارك النقب الأولى.. وبعد هذا التمهيد تقدمت مدرعات العدو وهزمت الفوج العلوي من الجش والصفصاف. وبدأ العدو يتقدم نحو سعسع، ولم تستمر المعركة أكثر من خمس ساعات تمكن العدو فيها من خرق النطاق الدفاعي وكسر الجبهة.

وفي أثناء تقدم اليهود نحو سعسع، كانت قيادة الإنقاذ قد أرسلت فوجي الجيش السوري للتمركز غربي الجش استعدادا للهجوم العربي!! ولم تكن قيادة الإنقاذ على أي علم باكتساح العدو بهذه السرعة للجبهة الشرقية، والذي حدث هو أن طلائع العدو الأمامية باغتت قوى الجيش السوري هذه ولما أدركت الوضعية

حاولت القيام بهجوم معاكس بهذين الفوجين. ولكن هذا الهجوم فشل، وتبعثر الفوجان، وانهزمت جميع القوات العربية التابعة لقيادة الإنقاذ بسقوط سعسع. لذلك أمرت القيادة. قطعات الجبهة بالانسحاب شمالاً، والتمركز في مثلث حرفيش -دير الفاس- سعسع.

وبعد أن اخترق العدو الجبهة الشرقية، تحوّل رتله الرئيسي إلى عيلبون، في الجبهة الجنوبية وهاجمها بشدة وعنف، ولكنه رُدّ على أعقابه بخسارة كبيرة. وفي الوقت نفسه، كانت قوات معادية اخرى تهاجم كفر مندا وسخنين ومجد الكروم. وكان القصد من هذه العمليات تثبيت قوى الدفاع، ومنعها من الحركة لسدّ الثغرة في الجبهة الشرقية، وفي ذات الوقت، هاجمت قوة معادية كبيرة، ترشيحا وهدفها احتلالها والتقدم منها إلى سعسع، لقطع القوى الغربية الجنوبية، وتطويقها ومنعها من الانسحاب شمالاً.

وقد رافق هذه العمليات البرية، قصف جوي دائم ليلاً ونهاراً وكان العدو يقذف بقوى جديدة في كل ساعة، ومع هذا لم يتمكن من احتلال أي موقع في الجبهتين الجنوبية والغربية، وفي ١٩٤٨/١٠/٢٩ أرسلت القيادة أمراً للقوى الجنوبية، ينص على انسحاب هذه القوى شمالاً خشية أن يطوقها العدو، ولنجد الجبهة اللبنانية الشرقية. وقد كانت القوى في الجبهتين الجنوبية والغربية في وضعية قوية ممتازة وبمعنويات عالية جداً خصوصاً وأن هذه القوى قد ردّت هجمات كثيفة جداً للعدو الذي لم يتمكن من التقدم خطوة واحدة. وعندما أصدرت القيادة أمرها بالانسحاب لم تكن تعرف بسقوط سعسع، إضافة إلى أن القوى التي أُمِرت بالانسحاب كانت مشتبكة بقتال مرير مع العدو على طول الجبهة، وليس من السهل عليها الانسحاب قبل أن تُبعِد مسافة تماسها من العدو. وزد على ذلك أنه لم تكن هناك وسائل نقل كافية لتؤمن سرعة الانسحاب أو لتأمين نجدات للجبهة الشمالية بالوقت المطلوب.

لهذه الاعتبارات ولاعتبارات عاطفية أخصُّها اليأس والاستماتة، رفضت قيادة

القوى الجنوبية، أمر القيادة العامة بالانسحاب وأرسلت جواباً يبيّن عدم ضرورة الانسحاب. كما أرسلت تطلب جميع احتياطي القيادة من الذخيرة والمحروقات، وتعلن استعدادها للحصار من قبل العدو، كما أرسلت تطلب الإذن بهجوم معاكس تقوم به القوى الجنوبية لنجدة الجبهة الشرقية.

بيد أن القيادات أصرّت على الانسحاب، وبدأت القطعات تتحرك شمالاً بانتظام، وبانسحاب أصولي على طريق الرامة - سعسع وقد اضطرت هذه القوى، قبل انسحابها، إلى القيام بهجمات معاكسة لإبعاد مسافة التماس مع العدو الذي كان يهاجم على طول الجبهة وقد منعت هذه الهجمات المعاكسة العدو من مطاردة القوى المنسحبة وملاحقتها.

عندما بدأت القوى الجنوبية انسحابها شمالاً، كان العدو قد احتل سعسع، وتقدم غرباً إلى حرفيش، كما تمكن من التقدم في ترشيحا واحتلالها. وبدأت قواته تتقدم منها نحو مفرق سحماتا، ومنه إلى سعسع. ولم تكن هذه المعلومات عن العدو معروفة لدى القوات المنسحبة، وأهملت القيادة الاتصال بهذه القوى واعتبرتها في حكم الضائعة، حتى إن المسؤولين صدّقوا إذاعة العدو بأن هذه القوى قد استسلمت وأبيد قسم منها، وقد اكتشفت القوى الجنوبية أن العدو قد فصل بينها وبين الأراضي اللبنانية. ولهذا فقد أخذت تشكيلة قتال، وبدأت تتقدم شمالاً بقتال أمامي وقتال جانبي لفتح ثغرات في طوق العدو. وقد استلزم الوصول إلى الحدود اللبنانية، الخطوات التالية:

أولاً: هجوم معاكس على مفرق سحماتا وترشيحا لوقف تقدم العدو نحو الشرق. ٣/٢٠٩٦

ثانيا: هجوم معاكس على حرفيش لوقف تقدم العدو نحو الغرب وفتح ثغرة في الطرف الشمالي الذي تمركز فيه.

ثالثاً: هجوم معاكس بالمدرعات على سعسع ومخفر سعسع لمنع العدو من الوصول إلى طريق دير القاس – الرميش، وهي طريق الآليات الوحيدة التي

يمكن منها الوصول إلى لبنان. وقد ظل العدو يقصف القوى المنسحبة بالطائرات طيلة الوقت. هذا بالاضافة إلى أن بعض القرويين الدروز أخذوا يهاجمون قوافل تموين القوى المنسحبة، واضطرت بعض القطعات إلى التسلل ليلاً إلى لبنان خلال خطوط العدو، لعدم قدرتها على القتال والمرور نهاراً. هذا وقد أمِرت بعض القطعات بالتسلل من البطيحة إلى الجبهة السورية.

وقد كانت عمليات الانسحاب هذه غير آلية مشيًا على الأقدام. وقد تصرَّفت القوات المنسحبة من حيث تنظيمها وصبرها وقتالها طيلة الانسحاب تصرفا ممتازاً، رغم الظروف القاسية الصعبة التي أحاطت بالعملية.

وبتاريخ ٥/١١/٤٨ وصلت جميع القوى الجنوبية إلى الحدود اللبنانية، ولم تتجاوز خسائرها الـ "٣٠" قتيلا ومفقوداً، فُقِدَ أكثرهم بسبب خطأ في التعارف بين القوى المنسحبة وحاميات الجنود اللبنانية. وبهذا الانسحاب استولى العدو على جميع الجليل، وأنشأ خطوطه الشمالية بحيث شملت ما يزيد على "١٦" قرية لبنانية.

مناقشة الانسحاب من الجليل

قبل مناقشة عملية الانسحاب، أحب أن أذكر المبادئ العسكرية التالية:

أولاً: إن القطعات العسكرية معرضة أثناء القتال إلى التطويق وقطع خطوط تموينها. ومع أن التطويق أمر مزعج، إلا أن محاولة فك ذلك الطوق من الداخل أو الخارج ليس أمراً في غاية الصعوبة، بل على العكس ممكن جداً؛ لأن العدو مهما بلغ من الهمة والنشاط والكثرة لن يستطيع التمركز بقوة تمكنه من جعل الطوق غير قابل للكسر.

ثانياً: في المناطق الجبلية الوعرة مثل الجليل، تستطيع القوى المحاصرة الدفاع عن نفسها كما يمكنها تأمين مسالك تموين وانسحاب تسللية في المسالك الجبلية

التي لا يستطيع العدو إغلاقها بقوى كبيرة، لصعوبة الوصول إليها بالآليات.

ثالثاً: إن عملية الانسحاب المنظم تعدّ من أصعب العمليات الحربية، ولترتيب الانسحاب يجب التقيد بالتوقيت الدقيق الذي يأخذ بعين الاعتبار، من كل عملية، حتى الدقائق والثواني، كما يتطلب الانسحاب المنظم توزيعاً دقيقاً لمهمات وواجبات ووثبات الانسحاب، وهذا التوزيع يجب أن يكون دقيقاً ومفصّلاً.

رابعاً: الانسحاب مثل أي عملية عسكرية أخرى، يتطلّب معلومات دقيقة مفصّلة عن تطور الموقف وعن حركات العدو، وبدون هذه المعلومات تتعرض القوى المنسحبة لكثير من المفاجآت التي قد لا تستطيع معالجتها.

والمؤسف أن قيادة الإنقاذ لم تعلم بأي من هذه المبادئ، بل ركبها ذعر شديد من أمر التطويق جعلها تأمر بالانسحاب بدون تروّ أو ترتيب. ولم تكترث لتنبيه القوات بمدى تقدم العدو، والأمكنة التي احتلها، وتركت القيادة ترتيب الانسحاب على غاربه مما جعل قادة القطعات يُعِدّون أمر انسحابهم بترتيبات محلية صرفة لا تنسجم وسلامة القطعات الأخرى.

وكذلك لم تحسن القيادة استخدام النجدات في الهجوم المعاكس على الجش، ووضعت الفوجين السوريين في أرض مجهولة تماماً. وقد أدى هذا الجهل إلى بعثرة هذين الفوجين في ساعات معدودة هذا بالإضافة إلى أن إدخال هذين الفوجين المعركة ليلاً كان خطيئة عسكرية من حيث المكان وتوقيت المعركة.

وبالانسحاب من الجليل انتهت آخر علاقة لجيش الإنقاذ بفلسطين، وأصبح حرس حدود على الحدود اللبنانية الجنوبية، وبدأت قطعاته تتحرك نحو دمشق، لإعادة التدريب والتنظيم. ثم خُفضَ ملاك جيش الإنقاذ إلى لواء واحد سُمّي "لواء اليرموك"، وتمركز في القطاع الاوسط من الجبهة اللبنانية بين بنت جبيل وجويا. وبعد توقيع الهدنة اللبنانية، نُقل لواء اليرموك إلى سوريا كقسم من الجيش

السوري، وتمركز في الجبهة السورية، ثم بَدئ بتسريح أفراده بعد انقلاب حسني الزعيم بستة أسابيع.

الخلاصة

هذه هي قصة جيش الإنقاذ، منذ أول تشكيله حتى تسريحه. وقد حاولت بقدر الإمكان أن أسرد جميع ما أعرفه عن جيش الإنقاذ ومشاكله ومعاركه؛ على أني أعترف أن القصة ليست تامة من حيث التاريخ، لفقدانها بعض المعلومات الضرورية. وأني أرى أنَّ من واجبي الإشارة البعيدة لهذه المعلومات، لأهدي القارئ إلى النقص في البحث.

والمعلومات التي لم أتعرض لها تقع في ثلاثة أنواع:

النوع الأول: المعلومات التفصيلية عن كثير من معارك جيش الإنقاذ التي لا أعلم عنها شيئا، بسبب عدم تيسّر المعلومات الموثوقة عنها، وبسبب تناقض الروايات حولها.

النوع الثاني: هناك تفاصيل عن فضائح وحماقات تتعلق بجيش الإنقاذ، أرى من الواجب السكوت عنها، خصوصاً وأن اكثر الجهات المسؤولة تعرف تفاصيلها. كل ما أرجوه أن لا يطويها النسيان، وأن يعتبر المسؤولون بها، وأن يتذكروها في أي عملية نضال مقبلة، عسكرية كانت أم سياسية.

النوع الثالث: القسم الثالث من المعلومات، وهو يتعلق بالفترة التي سبقت الانسحاب من الجليل وبعدها بقليل، وبشكل خاص بالفترة التي حدث فيها انقلاب حسني الزعيم، وقيامه بتسريح كاتب هذه الأسطر، وإيداعه السجن، هذا القسم من قصة جيش الإنقاذ كان محوره كاتب هذه الأسطر، وأني أشعر بحرج شديد في الكتابة التفصيلية عن هذه الفترة، لأن القصة بكاملها تتعلق بمحاولات مستميتة من جانبي، لإقناع المسؤولين في سوريا ولبنان، ربما إجبارهم،

على الاشتباك مع العدو، وفي جولة ثانية حاسمة، كنا مستعدين لأن نكون طعمها الأول، بالاشتراك مع بعض الوحدات الفلسطينية برجالها وضبّاطها. لقد فشلت هذه المحاولات لأنها كانت تعتمد على جهات مسؤولة قتلها الخوف من العدو، ولم تعد تفهم من قضية فلسطين سوى السلامة ومحاولة الخلاص من القتال بأي ثمن، رغم التصريحات الرنانة، ورغم اتهاماتها المتكررة بالخذلان لهذه الجهة أو تلك. على أي حال انتهت هذه القصة بأن قبضت حكومة حسني الزعيم على كاتب هذه الأسطر وسجنته. وقامت بتسريح عدد كبير من الضباط في القوة، وتسريح بقية الجيش.

بهذا أنتهي من سرد القصة. وإنني أعترف بأنَّ فيها فجوات كثيرة يجب أن تتم، كما أعترف بأن السرد لم يكن وافياً حتى في النواحي التي تتوافر عنها المعلومات لديّ.

المسؤولية

يحكم على المسؤولية في القتال بالنسبة لنتائج القتال بأجمعه! وتوجه التهمة للمسؤولين، وبنسبة مسؤوليتهم وإمكانياتهم لا على اعتبارات أخلاقية، بل بالنسبة لنتائج مختلف المساعي والجهود.

وعلى هذا يدان المسؤول عن الهزيمة بعد مناقشة تامة لجيمع الأمكانيات التي استعملها في القتال، وإذا ثبت إهماله لإمكانية كان بوسعه استخدامها ولم يستخدمها، أو استخدمها بصورة غير مُرضية، فهو المسؤول قطعاً ولا يُقبل له عذر.

وهناك أمر آخر من الواجب تأكيده. وهو أن اعتبارات الضعف والجهل وسوء التصرف والخيانة والتآمر مع العدو والخوف والتردد، جميع هذه الاعتبارات تتساوى عند مناقشة المسؤولية، فالعاجز والجبان والضعيف والمتردد والخائن. جميعهم، في العرف العسكري، يؤدون للهزيمة وبالتالي تتساوى مسؤوليتهم، بغض

بغض النظر عن العذر الذي يُعطى أخلاقياً لكل منهم.

فحُسن النية الذي يقود للهزيمة، مثله مثل سوء النية الذي يؤدي للهزيمة. وفي القتال الذي يتوقف على نتيجته مصير بلاد ومصير أمة، لا يُغفر لإنسان خطأ، ومجال إيجاد العذر له ضيق، والمؤلم في هزيمة العرب في فلسطين، وأخص هزيمة جيش الإنقاذ أننا لم نستعمل كل إمكانياتنا. وكثيرا ما يجد بعض الناس بعض السلوى في تكرار هذه الحقيقة. والواقع أن عدم قدرتنا على استعمال إمكانياتنا، أو عدم استعمالها عن عمد وإهمال، أمر أشد ألماً وأبعث على الخزي والعار من الهزيمة نفسها فليس في الهزيمة بحد ذاتها، ما يُخجِل أو يبعث على الألم عندما نرمي بجميع إمكانياتنا، بوعي وتصميم، في المعركة. فعندما يعمل الإنسان غاية جهده وإمكانياته، ويفشل، فليس عليه مجال للومة لائم.

الأعذار

اعتذر المسؤولون عن القتال، بأن فشل جيش الإنقاذ يرجع إلى أسباب ثلاثة لم يكن في وسعهم تلافيها أو معالجتها وهي:

١- نقص الضباط والقادة.

٢- قلة الجنود المدربين.

٣- قلة السلاح.

وسأناقش هذه الأعذار واحداً واحداً.

نقص الضباط والقادة

كان بالإمكان تلافي هذا النقص. لو أن المسؤولين بذلوا الجهد الكافي في دعوة جميع الضباط العرب المدربين، وعلى سبيل المثال، أذكر أنه كان في فلسطين وحدها ما يقرب من "٢٠٠" ضابط مدرب، ممن تدربوا في الجيش البريطاني، أو

في قوة حدود شرق الأردن، أو في الجيش العربي. ولم تكن هناك أي محاولة جدّية لجمع هؤلاء الضباط وتنسيقهم. والقليليون منهم. الذين سُمح لهم بالخدمة لم يُستخدموا في مجالات اختصاصهم. وإذا صدف واستخدِموا في مكان مناسب. فلم يكن هناك من المسؤولين مع يسمع لهم أو يعمل باقتراحاتهم. والحجة في ذلك أن اقتراحاتهم كانت تناقض وضعيات شكلية سببها التنافس والعداوة بين المسؤولين، أو أنها تخالف رأي فلان الذي كان ضابطا في جيش ما، قبل نصف قرن.

وحتى على فرض انعدام الضباط أصلا، فمن السهل تدريب الضباط من جديد. والبرهان على ذلك، أن قيادة الإنقاذ أنشأت مدرسة للضباط في دمشق جندت لها بعض الشبان الفلسطينيين المتعلمين. وقد تخرج هؤلاء كضباط ممتازين بعد بضعة شهور. وبالمناسبة فإن مدة تدريب الضباط أيام الحرب في الجيش البريطاني لا تزيد على "١٢٠" يوم تدريب، بمعدل ١٥ ساعة في اليوم.

قلّة الجنود المدرّبين

بعد عام ١٩٤٦، كان في فلسطين وحدها "٢٨" ألف مجند سابق في الجيش البريطاني، أو قوة حدود شرق الأردن. وأغلبية هؤلاء جنود مقاتلون من صنف جيد، ولا يحتاج جمعهم وتكتيلهم في شكل وحدات مقاتلة سوى جهد ضئيل لا يذكر، لم تعمل القيادة أي شيء من هذا القبيل، وبالعكس، مزجت الجنود المدربين بغير المدربين. وكان المزيج وحدات بعيدة عن كل تدريب أو انسجام.

قلة السلاح

العذر بقلة السلاح من أكثر الأعذار تكرراً، ولكنه في الحقيقة عذر لا يستند إلى الواقع مطلقاً، ولم تكن هناك أيّ محاولة جدية لتأمين سلاح جديد موحد لجيش الإنقاذ، بالرغم من أن الاسلحة بأنواعها كانت متوافرة في أوروبا وغيرها.

عندما أُعلن قرار هيئة الأمم المتحدة بالتقسيم، وبدأت المناوشات في فلسطين، قدم كثيرون من تجار الأسلحة إلى مختلف السلطات العربية، والى الجامعة العربية بصورة خاصة، يعرضون بضاعتهم، ولكن لم يلتفت أحد إلى ذلك. وكثير من الصفقات التي كان بإمكان الجامعة العربية شراؤها، اشتراها العدو فيما بعد بسبب تلكؤ الجامعة العربية في إتمام صفقات الشراء بالسرعة اللازمة في مثل هذه الأمور.

صحيح أن الجامعة العربية حاولت، بعد فوات الأوان، شراء بعض الأسلحة. لكن الذين أوفدتهم لهذا الغرض، لم يملكوا القدرة الفنية في موضوع الأسلحة. أكثرهم من التجار والمرتزقين الذين لا ترجى منهم فائدة. إن قصة شراء السلاح قصة مؤلمة وطويلة وسلسلة من الأخطاء والحماقات والسرقات، لا مجال هنا لبحثها بالتفصيل. ولكن الشيء المؤكد أن السلاح، بكافة أنواعه كان متيسرا وموجودا، ولا يحتاج سوى جهود مخلصة مصممة لشرائه.

خاتمة

بهذا أنتهي من الحديث عن جيش الإنقاذ ومشاكله. وكما يرى القارئ لو أن عدوا لنا كُلِّف بوضع خطة لهزيمتنا، لما استطاع أن يبدع في وضع خطوات الهزيمة مثل ما أبدعنا نحن في سوق أنفسنا للهزيمة المخزية المخجلة أقول هذا وكلي إكبار وإجلال لآلاف الأنفس التي تقدمت للموت طائعة مختارة. ولكن تضحيتها ذهبت هباءً، وسط الفوضى والجهل والمنازعات التي كانت تغمر القيادة التي افترضنا أنها ستقودنا للنصر، فقادتنا للهزيمة.

الفصل ٢

الجيوش العربية وفشلها في الحرب الفلسطينية الأولى

هدد* العرب باستعمال القوة إزاء الخطر الصهيوني منذ بدء الانتداب على فلسطين. وبالفعل، قامت ثورات واضطرابات دامية متعددة، على أمل أن تعدم القوة المطالب السياسية.

على أن التهديد بالحرب وبرمي اليهود بالبحر، أخذ يتبلور كجزء ثابت من وسائل الضغط السياسي العربي في قضية فلسطين، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وبعد إنشاء الجامعة العربية، وأخذ حديث الحرب واستعمال القوة، يُذكّر بتأكيد ووضوح، في كل مناسبة عربية أو عالمية تُبحَث بها قضية فلسطين، لا أجد ضرورة لسرد كل التصريحات، والخطب، والمواثيق، والمؤتمرات السرية، والتهديدات بالبذل وبالدم والفداء، إلى آخر هذه المهزلة التي يعرفها القراء، والتي كان يصدر بها التهديد بالحرب عن ألسنة كافة المسؤولين العرب بنفس السهولة التي تصدر عنها الأن تصاريح العودة للديار، والتعويض عن الممتلكات والرجوع لمجلس الأمن ودول البيان الثلاثي.

وبالرغم من تبني الحرب كوسيلة لحل مشكلة فلسطين من قبل كافة الهيئات الرسمية والشعبية في البلدان العربية، بما فيها فلسطين، فقد كان التفكير بالحرب على مستوى خرافي مضحك. فعزام باشا، مثلا، كان يعتقد أن مثل هذه الحرب

---

* نشرت على ١٠ حلقات في جريدة الرأي الأسبوعية التي كانت تصدر في عمان في بداية الخمسينات وكانت تنطق باسم حركة القوميين العرب.

يكفيها أربعة الاف محارب، يقودهم الباشا بنفسه لينهي المشكلة من أساسها وكثيرون من المسؤولين اعتمدوا على الجهاد والحرب المقدسة، وعلى جبن اليهود التاريخي، وشجاعة العرب الغريزية! وعلى قياسات من الثورات السابقة، ولعل القارئ، يذكر قصة الطربوش الذي وقع عن رأس عربي في شارع المنشية، فلما عاد ليسترجعه، هزم كل جموع اليهود التي كانت على وشك مهاجمة المنشية!

أعتذر عن هذا السرد التهكمي اللئيم، والذي أقصد به ان يكون لئيما، لأنه ما زال بين ظهرانينا، الكثيرون ممن يفكرون بالجولة الثانية، على نفس الأسس الخرافية التي أوردتُها. هذه الأسس الخرافية، حجبت عن أعين العرب، أولى المبادئ السوقية في المعركة. وهي المعلومات عن قوتنا وعن قوة العدو، والتي هي العنصر الرئيسي لتقدير الموقف في الحرب. هذا الوضع المضلل، كان أول بذور الهزيمة التي مني بها العرب ولا يخفى على القارئ أن مثل هذا الجهل لا يمكن معه تدارك النواقص، ولا تلافي نقاط الضعف، ولا معرفتها إلا بعد فوات الأوان.

لقد اجتهد الكثيرون فيما إذا كان هذ الجهل بالموقف مقصودا أم حقيقيا. ولا أشك أن هذا التفكير. الخرافي بالحرب، آنئذ كان كل ما عند المسؤولين العرب. وأنهم أخذوا ينادون بالحرب والفداء من خلال هذا الموقف الخرافي. وساعد على ذلك الصحف العمياء الهوجاء. وأخذ الأعداء المبادرة في إدارة هذا التقدير بالذات، فأخذت أقوالهم تنحو، عن قصد، لتمكين هذا التقدير الخرافي. ولئلا ينتبه العرب إلى حقيقة الوضع. وكان نتاج هذا المجهود التضليلي، بأجمعه، أن أكثرية العرب الساحقة بدأت تؤمن بالحرب، بنفس المستوى الخرافي الذي قال به القادة والمسؤولون.

أما الركن الثاني من هذا التضليل فقد نتج عن استمرار التضليل العاطفي الذي عولجت به تفاصيل الثورات والمعارك السابقة التي خاضها العرب مع الاستعمار، من ميسلون حتى ثورة "١٩٣٦". فلم يحاول أحد من العرب أن يدرك أسباب الهزيمة في هذه المعارك، أو يبحث الأخطاء أو نقاط الضعف. واقتصر

البحث عن التمجيد العاطفي. وذكر البطولات ومواقف الحماسة. ولم نتنبَّه أبداً للحقائق والأخطاء حتى يمكننا تلافيها وإصلاح عيوبها.

وأخيراً ساعد على قلة الجدية في التفكير بالحرب، وجود قناعة رسمية، تكاد تكون عامة آنئذ، بأنه رغم التهديد بالحرب فإن احتمال نشوبها كان أمراً مستبعدا. لقد كان هناك اعتماد ضمني على ان بريطانيا لن تترك فلسطين، وبالتالي لن تسمح بوقوع حرب بين العرب واليهود.

وزاد الطين بلة، في هذا الموقف المائع، أن الحكومات العربية نفسها لم تكن تعرف، بالضبط قوة جيوشها، ولا إمكانياتها، ولا مدى تدريبها، أو تسليحها أو تجهيزها أو قدرتها على القتال. ولم تُجرِ أية محاولة لاختبار هذه الجيوش، ومعرفة نواقصها من مختلف النواحي. وكما يعرف القراء، كان استعمال الجيوش العربية حتى بدء الحرب، مقتصرا على المحافظة على الأمن، والاستعراضات والمراسيم.

وأعتقد أن هذه العجالة كافية لأن تبيّن بصورة عامة أخطاء تقدير الموقف بالنسبة للمعلومات عن أنفسنا، وسأبحث في مقام آخر أخطاءِ تقدير المواقف بالنسبة للمعلومات عن العدو، على أني، وكما يلاحظ القارئ، لم أُشر إلى ما ثبت وجوده من مؤامرات، وتواطؤ، على مستويات رسمية عالية، ترمي إلى حل مشكلة فلسطين بشكل الهزيمة التي عرفناها. وأني أعتقد أن البحث في هذه الناحية، على ضرورته، ليس من اختصاص هذا البحث العسكري.

المعلومات عن العدو

ذكرت، سابقاً، أن معلوماتنا عن أنفسنا كانت خرافية مشوشة! وبالطبع اتسع هذا المنحى الخرافي حتى شمل المعلومات عن العدو، ففي أول الأمر اعتمدنا كلياً على أن اليهودي جبان بطبعه وسليقته، وبالتالي فإنه لا خوف مطلقاً من اليهود، مهما حاولوا الاستعداد والتسلح. لقد ظل هذا الاتجاه هو المسيطر، بالرغم من

أن العسكريين العرب يعرفون قيمة الشجاعة و الجبن بالنسبة للأحوال العسكرية الحديثة في التدريب والسلاح.

ومن المناسب أن نذكر أن الحقائق التالية، كانت معروفة لدى العرب عن استعدادات اليهود العسكرية:

أولاً: كان لدى اليهود قوات من حرس المستعمرات، الذي بدأ بتشكيل وحداته الجنرال "ونجت" الانجليزي، أثناء الاضطرابات في فلسطين، إن وحدات هذا الحرس كانت نواة جيش الدفاع الإسرائيلي "الهاجانا".

ثانياً: كان من المعروف أن اليهود يتسلحون، وعلى نطاق جيد، وكانت أنباء اكتشاف شحنات للأسلحة من قبل البوليس، تنشر في الصحف قبل الحرب العالمية الأخيرة. ثم كان من المعروف أن كميات كبيرة من أسلحة الجيش البريطاني أثناء الحرب تنتقل لليهود على نطاق واسع، وبطرق شتى. وقد أسهبت الصحف في ذكر قضية الأسلحة المشهورة عام "١٩٤٧".

ثالثاً: كان من المعروف أن الوكالة اليهودية تجبر اليهود على الانخراط في الجيش البريطاني، وبأعداد كبيرة، وقد شكّل اليهود فيما بعد اللواء اليهودي الذي حارب في إيطاليا.

رابعاً: كشفت حوادث الإرهاب اليهودية عن وجود العصابات الإرهابية اليهودية، وعن الهاجانا، وكان من الواضح أن هذه العمليات الإرهابية كانت تنمّ عن تنظيم وتدريب وشجاعة وتسلح في غاية الأحكام.

هذه المعلومات كانت متوافرة لدى العرب؛ ولكن العجيب أنها أهمِلت إهمالا تماماً ولم تؤخذ فنيا بعين الاعتبار من قبل كل الهيئات الشعبية والرسمية في البلدان العربية.

وإني أذكر بهذه المناسبة حادثتين عن موضوع تقدير قوى العرب واليهود.

ففي أول عام ١٩٤٧، ألقى النائب البريطاني المعروف ريتشارد كروسمان، خطاباً وازن فيه بين القوى العربية والقوى اليهودية في حالة وقوع حرب في فلسطين، والعجيب أن خطابه هذا كان في غاية الدقة، وقد سمع الخطاب وقرأه

المسؤولين العرب، ومع هذا سكتوا عنه، كأنما الموازنة تتعلق بين قبيلتين في أواسط أفريقيا وقد احتوى خطاب كروسمان شيئاً آخر عن تصرف الجيوش العربية في حالة الحرب؛ والعجيب أيضا أن هذا القسم كان من الدقة بحيث أنه يصلح لأن يكون وصفاً دقيقاً يكتبه شاهد عيان، راقب تصرفات وإمكانيات جميع الجيوش العربية أثناء حرب فلسطين.

أما الحادثة الثانية: فهي أنه قبل شهرين من دخول الجيوش العربية إلى فلسطين، قدم لرؤساء أركان هذه الجيوش تقرير استخبارات دقيق مفصل عن إمكانيات اليهود العسكرية؛ ومع هذا أهملت المعلومات الواردة فيه إهمالا تماما. وكان تعليق اثنين من رؤساء الأركان أنه، مع قناعتهما بأن المعلومات دقيقة وصحيحة، إلا أن عرضها على الحكومات قد يجعلها تمتنع عن الاشتراك في حرب فلسطين!

ومن المعلوم لدى القراء أن أجهزة الاستخبارات تكون عنصراً رئيسياً في الحصول على المعلومات. والعرب بالرغم من تهديداتهم بالحرب، وبالرغم من مقرراتهم السرية في أنشاص وبلودان وغيرهما، لم يحاولوا البتة توجيه أجهزة استخباراتهم إلى فلسطين ليدرسوا العدو والأرض. وهذا أمر في غاية الغرابة بالنسبة لما نعرفه عن أجهزة الاستخبارات الضخمة التكاليف التي كان وما زال الحكام العرب يديرونها ويشرفون عليها. وعلى هذا الأساس دخلت معظم الجيوش العربية فلسطين، وهي لا تعرف شيئاً لا عن العدو ولا عن الأرض، ميدان الحرب، ولهذا السبب ظهرت فكاهات "مستعمرة بير السبع" و"مستعمرة الشيخ جراح"! وتعثرت بعض الجيوش العربية في الطريق الذي سلكته، أو أمام قلاع البوليس التي ليس أسهل من اقتحامها في حالة معرفة شكلها ومداخلها وطريقة بنائها. وإني أعرف أكثر من جيشين عربين لم يكونا يملكان لفلسطين أية خريطة عسكرية إلى ما قبل "١٥ ايار"، بأيام معدودات.

يقابل هذا، جهاز استخبارات يهودي عرف عنا كل التفاصيل المكتومة والمكشوفة، سواء أكانت المعرفة عن طريق الالتقاط أو الاكتشاف، أو عن طريق

التبرع والتطوع الذي كان الكلام غير المسؤول يكشفه، سواء بالتصريحات أو بالخطب، أو بما تنقله معظم الصحف العربية آنذاك.

آمل أن أكون، فيما مرَّ، قد أوضحت للقارئ أخطاء تقدير الموقف التي وقعنا بها قبيل الحرب الفلسطينية. ولا بد أن القارئ يستنتج، بالنسبة إلى أهمية تقدير الموقف في الحرب، أننا دخلنا القتال ونحن في عمى تام عن الوضع والمقدرات. ونحن، بهذه الحالة، قد أفقدنا أنفسنا أول أسس النصر، وخططنا أول سطور الهزيمة، سواء أكانت هناك مؤامرة على فلسطين أو لم تكن.

السلاح

يعرف القراء الشيء الكثير عن قضايا الأسلحة التي رافقت وتلت الحرب الفلسطينية، مما لا حاجة هنا لتكراره. على أني بهذه المناسبة أحب أن ألفت نظر القارئ إلى ثلاث نقاط رئيسية تتعلق بموضوع السلاح:

الاولى: إن تقدير كمية السلاح ونوعه يعتمد على صحة تقدير الموقف، وما لم يكن تقدير الموقف صحيحاً يصبح إمكان الاستعداد بالسلاح من نوع الرجم بالغيب الذي قد يصح وقد لا يصح.

الثانية: إن موضوع تعذر الحصول على السلاح، والذي أصبح قميص عثمان تحتج به الجيوش العربية، لم يكن عذراً صحيحاً، لقد كان السلاح متوفراً لو صدقت النية في الحصول عليه. وعلى أي حال لم تجر أية محاولة جدية للحصول على السلاح إلا بعد قرار هيئة الأمم بتقسيم فلسطين. وكانت المحاولات كلها قصيرة النفس، كأنما يقصد القائمون بها الأ تنجح.

الثالثة: إن السلاح الذي كانت تملكه الجيوش العربية في ١٥ أيار، كان كافيا لهزيمة اليهود، لو استخدم بأصول وحزم، ولو كانت خطة اقتحام فلسطين صحيحة من وجهة نظر فنية وعسكرية.

التجنيد والتدريب

بالرغم من الإمكانيات البشرية الممتازة المتيسرة لدى العرب، إلا أن أكثرية المجندين للقتال كانت، جسدياً وخلقياً، دون الوسط، هذا القياس ينطبق حتى على المجندين في الجيوش النظامية العربية عند بدء حرب فلسطين، يكفي أن أذكر القارئ بالحاميات في فلسطين، وأكثرية قطعات جيش الإنقاذ، التي حوت مزيجاً غريباً من الناس. هذا المزيج الغريب، لوَّن القطعات المقاتلة بلونه، وطغى على العناصر الطيبة المخلصة التي تطوعت للقتال بإصرار وعن عقيدة.

ومما زاد الأمر سوء أن التدريب لم يُعطَ الأهمية اللازمة. وهذا الإهمال لأمر حيوي مثل التدريب جعل من المستحيل تصفية المجندين، وتنقيتهم من الشوائب، وصقلهم، وتدريبهم على القتال، وجعل من القطعات التي تُرسَل للقتال مجموعة من الناس العاديين، يحملون السلاح، ولا رابط يربطهم بزملائهم وضباطهم.

وزاد من سوء الأمر كذلك، نقص الضباط المدرّبين لتولي إمرة القطعات، ومهمات التدريب والتنظيم! وكانت أكثرية الضباط الذين تيسَّر حشدهم من الضباط المتقاعدين القدماء، او من ضباط البوليس والخدمات غير العسكرية، أو من الضباط المعزولين من الجيش لأسباب خلقية ومسلكية. وكان أكثر هؤلاء الضباط يجهلون أبسط مبادئ القتال والقيادة.

هذا بالإضافة إلى أن الجهات التي تولَّت التجنيد والتدريب والاستعداد للقتال. كانت متعددة متنافرة متعادية، ليس بينها أي اتصال أو انسجام. وانعدم الضبط والربط من هذه الناحية. وسادت الفوضى بحيث تمكّن الكثير من الجواسيس واليهود، من الدخول في القطعات. وأُرسِل كثير من الجنود إلى الجبهات وهم مصابون بالسل مثلا، أو أنهم لم يطلقوا رصاصة واحدة في حياتهم. وكثيرا ما أرسلت القطعات إلى الجبهات فور وصولها لمعسكر التدريب. ووُزِّعت عليها الأسلحة والملابس، وهي في السيارات.

زيادة على كل هذا الضعف، لعبت الحزازات والتكتلات العائلية والحزبية دورها المعروف وبدأت كل جهة تُجَنِّد. وكل جهة تُوَزِّع الرتب والقيادات ومناطق النفوذ. وكثرت اتهامات هذه الجهات لبعضها بعضاً، ففُقِدَت الثقة بين القطعات. ورافق هذا كله فوضى في الأزياء، وفي الأسلحة، وفي معرفة الواجبات. ونتج عن هذا الوضع كله أن القتال اتخذ شكل الغزوات والحملات القديمة. وكانت القاعدة أنه لا يجوز منع أي عربي من إداء فريضة الجهاد. مهما كان تدريبه، أو تاريخه، أو صفاته الجسدية او الخلقية.

يلاحظ القارئ أن الحديث الآنف ينطبق تماماً على بدء المعركة، أي في عهد جيش الإنقاذ الأول، عهد الجهاد المقدس وعهد الحاميات واللجان القومية. وامتازت هذه الفترة بأن جامعة الدول العربية، كانت هي صاحبة الجهد. إذ إنه كان من المفروض- نظرياً على الأقل- أن تكون اللجنة العسكرية المنبثقة عن جامعة الدول العربية هي المشرفة المباشرة على هذه الاستعدادات. واللجنة العسكرية هذه انبثقت عنها القيادة العامة لقوات فلسطين، التي كان من المفروض فيها أن تتولى قيادة القتال المباشر. وأن هذا العهد، عهد جامعة الدول العربية، بما اتصف به من سوء إدارة وفوضى، أضاع علينا أول فرصة كانت ممكنة لنصر سريع، هذا من جهة، ومن جهة اخرى، زاد هذا العهد صعوبة المهمة الملقاة على عاتق الجيوش العربية التي أتت للنجدة فيما بعد.

القيادة والتنظيم

لا بد أن القارئ قد فهم أو تخيل ما يمكن أن تكون عليه القيادة في هذه الفترة. فالقيادة لم تتعدد، بعد دخول الجيوش العربية، بل كانت متعددة قبل دخولها. لقد عيّنت اللجنة العسكرية قائداً عاماً لقوات فلسطين؛ وكان من المفروض أن يتولى قيادة جميع قطعات الميدان، كما كان من المفروض أن القيادة العامة

لقوات فلسطين هي التي تتولى سلطة القتال ومسؤوليته. وهذه الفرضيات بقيت فرضيات، أما في الواقع، فإن قطعات الميدان والحاميات كانت تنتمي إلى عدة قيادات، بعضها يأتمر بأمر الهيئة العربية العليا، وبعضها بأتمر بأمر القيادة العامة، وبعضها كان مستقلاً لا يأتمر أحد بإمره أحد.

وكان في كل مدينة أو منطقة، وحدات مستقلة متنافرة تأتمر بأمر قيادات متنافرة أيضا. وتعددت الولاءات القياديّة حتى في الحي الواحد من المدينة أو البلدة، ورافق هذا التعدد مفاوضات طويلة بغية توحيد الجهد ولكن بدون جدوى، حتى وصل الأمر إلى أنَّ القطعات في الجبهة الواحدة لم تتعاون. وكان مندوبو إحدى القيادات يحاولون إغراء قطعة ما بالانشقاق على قيادتها والانضمام إلى القيادة الأخرى.

بدء القتال

شرحت، فيما مضى أخطاءنا في تقدير الموقف، وسوء الترتيب والتنظيم، وقلَّة الضبط والربط، وتعدُّد القيادات وتناحرها - وهذه العوامل كلها لم تكن تشكل بداية طيِّبة، إنها أفقدتنا نسبة كبيرة من إمكانية النصر.

على أن الأسوأ من هذه كله، أنه لم تكن لدى العرب في فلسطين نفسها، خطة موحدة للقتال ولم يكن واضحاً في أذهان قيادة أو قيادات الحاميات، أو اللجان القومية، أية طريق منسّقة لحماية الأحياء العربية في المدن، أو حماية طرق مواصلاتها، أو حماية بعض القرى ذات المواقع الاستراتيجية. كان هذا الموضوع المهم متروكاً للارتجال والتقادير. وأية محاولة لوضع خطة عسكرية معقولة، في أية مدينة أو منطقة، كانت تصطدم بالقيادت المختلفة، والمنازعات، والرغبات المختلفة لكل حي أو قرية. وعلى أي حال، لم يكن من السهل تنفيذ مهمة أي جهاز دفاعي أو هجومي بالنسبة لقلة الضباط والجنود المدربين في كل منطقة،

وانعدام الضبط والربط العسكري، وما يتبع انعدامهما من قلة الطاعة للأوامر، والإسراف الهائل في الذخيرة وسوء استعمال للسلاح.

ولهذه الأسباب نفسها، أصبحت السيطرة العسكرية على أية منطقة أو مدينة ضرباً من المستحيل. فكان كل شخص يملك سلاحا نارياً يفتح جبهة خاصة به، ويطلب بعدها نجدة من الرجال والسلاح والذخيرة. وهذه لم تكن في جميع الأحيان متيسرة.

وبالإضافة إلى كل هذه الفوضى، وقع العرب في فلسطين في خطيئة استراتيجية كبرى، هي الإصرار في أول الأمر، على الاحتفاظ بكل قرية وبكل حيّ كانوا فيه عند بدء القتال. ولهذا تجمَّدت قواهم في جزر مقاومة مبعثرة، لا رابط يربطها. وكان من السهل على العدو أن يتغلب على مقاومة كل مركز على حدة. وبديهي أن هذا الأمر كان نتيجة ضرورية لانعدام القيادة الموحدة الصارمة، وكان نتيجة منطقية لانعدام الفهم العسكري الصحيح للقتال الأصولي. وكما سبق وأوضحت أن الأرض في القتال ليست لها قيمة روحية خاصة بها؛ فبعد تقدير الموقف على وجه صحيح، من حيث القوى والإمكانيات، قد يستدعي الأمر إخلاء عشرات القرى والمواقع، وربما استعدى الأمر أيضا الاستماتة حتى آخر طلقة وآخر رجل في سبيل الاحتفاظ بموقع واحد. والقرار بهذا الشأن يعتمد بالدرجة الأولى على الضرورة العسكرية، لا على رغبة سكان كل قرية أو موقع بالاحتفاظ والدفاع عن قريتهم أو موقعهم. وأقرب مثل معروف أسوقه للقراء، ما حدث في أول الحرب الألمانية الروسية، عندما أقتضت الضرورة العسكرية أن تخلي الجيوش الروسية كل غرب روسيا أمام ضغط الجيوش الألمانية، وقبل أن تبدأ الجيوش الروسية هجومها المعاكس الكبير.

وكان من الأضرار التي مُني بها العرب نتيجة هذا الاحتفاظ الساذج بكل موقع وبكل قرية، أنهم احتفظوا بأماكن كثيرة لا يمكن الدفاع عنها بوسائل الدفاع المتيسرة؛ وبهذا مهَّدوا الطريق إلى نكسات نفسية كانوا في غنى عنها، هذا من

جهة، ومن جهة أخرى أدى هذا الوضع إلى تجميد القوى العربية كلها في مهمات دفاعية فقط، ولم يستطع العرب حتى "١٥" أيار، إيجاد وحدة ضاربة متحركة تتسلم زمام المبادرة وتستطيع المناورة، حتى أن قوات جيش الإنقاذ تسمّرت في أمكنتها بمهمّات دفاعية صرفة، ولم تحاول الحركة سوى في محاولتين فاشلتين. في الزراعة. ومشمار هاعيميك، ومعنى هذا الوضع، أن زمام المبادرة فُقِدَ من يد العرب بصورة تامة كاملة. وعلى العموم، تمركز العرب بجهل حول مواقعهم في وضع دفاعي مستكين وظل عملهم محاولة ردّ الضربات التي كان يوجهها العدو بحرية تامة في الزمان والمكان. بالطبع استطيع الاستمرار إلى ما شاء الله في تعداد الأخطاء والعيوب الناتجة عن سوء تقدير الموقف، وعن نقص التدريب والتنظيم، وتعدد القيادات، وانعدام خطة القتال الشاملة. ولو كان هذا الحديث فنيًا مئة بالمئة، لاكتفيت بذكر الأخطاء الآنفة، ولَفَهِمَ القارئ الفني من ذلك بقية الحديث؛ إذ أنه عندما يكون البدء على هذه الصورة، فإن تعداد الأخطاء يصبح نوعاً من التكرار البديهي السمج الذي لا لزوم له. ومعنى ذلك أن بداية على هذه الشاكلة، يعني أن جميع الأخطاء والعيوب الممكنة تصبح ضرورة منطقية، ويصبح من العبث بحثها، وبعبارة أخرى لا تصبح الحرب التي يبدأها فريق بهذه الصورة، حرباً حديثة يصحّ أو يسهل تطبيق المبادئ والأصول عليها، بل تصبح حرباً بدائية لا تختلف من حيث المبدأ عن الحروب التي تسنّها قبائل بدائية من أواسط أفريقيا، مع فارق واحد قد تمتاز به هذه القبائل عنّا، وهو أن القبائل البدائية تتمتع على العموم بقيادة واحدة، أما نحن فقد بُلينا بتعدد القيادات. على سبيل المثال، ولأجل المقارنة، أدرج فيما يلي خطة قتال مختصرة كانت ممكنة التنفيذ عند بدء القتال:

اولاً: تُخلى حيفا لتعذُّر الدفاع عنها. وتعذّر تموينها ونجدتها، ويتمركز مقاتلوها في عكا.

ثانيا: تُخلى طبريا، ويتمركز مقاتلوها في صفد.

ثالثاً: تُخلى جميع القرى التي لا تلزم لأي نطاق دفاعي ويصعب الدفاع عنها. كأن تكون منعزلة أو مطوقة بمستعمرات معادية.

رابعاً: تَحْتلَ جميع المستعمرات الواقعة على طريق تموين يافا من جهة الشرق.

خامسا: تتجمع كافة القوى المقاتلة العربية لاقتحام القدس بكاملها، مهما كلف الأمر

سادساً: يُحتَفظ بيافا وصفد وعكا، مهما كلف الأمر، ويدافع عنها حتى آخر طلقة وآخر رجل.

إن مثل هذه الخطة كان بإمكان القوى العربية المتيسرة، قبل دخول الجيوش العربية، أن تقوم بها؛ وإن قليلا من الحزم والجرأة، كان كافيا لإتمامها بالوسائل والإمكانيات المتيسرة لنا آنئذ. ويستطيع القارئ أن يتصوَّر مصير فلسطين لو نُفِّذت هذه الخطة، أو نُفِّذ جزء معقول منها. على أي حال، قصدت بإيرادي هذه الخطة أن أُبينَّ للقارئ الفارق الذي يحدثه في القتال وجود خطة شاملة لها هدف؛ وأن وجود الخطة يقضي على الجمود العسكري، ويساعد على امتلاك زمام المبادرة، ويؤدّي إلى حشد العزم في جهد هجومي، لا بعثرة القوى في انتظار الضربات التي يكيلها العدو.

خطة العدو

حاولت أن اوضّح في الحديث السابق طرفاً من الفوضى التي كنّا نعانيها في فلسطين عند بدء القتال. وذكرت طرفاً من الضلال الذي تخبطنا به في الاستعداد والدفاع والهجوم، وتوزيع القوى وتعيين نقاط المقاومة، ومواضع الانسحاب. وقد ذكرت سابقاً طرفاً عن استعدادات العدو. والآن وعلى سبيل المقارنة، أدرج أدناه

النقاط الرئيسية في خطة العدو. وذلك ليتبيّن القارئ مدى السبق "السَوقي" الذي توصل له العدو، عند بدء الحركات:

أولاً: كان توزيع المستعمرات اليهودية الجغرافي توزيعا "سوقيا" (بالنسبة لفلسطين وحدها)، وعلى درجة كبيرة من الإتقان، فالمستعمرات اليهودية كانت تشكّل خطوطاً سوقية توازي الساحل من الناقورة حتى المجدل، وعلى طول حدود لبنان وسوريا، وجزء من حدود الأردن، وهناك خط واحد منها يقطع فلسطين من الشرق إلى الغرب -أي من منطقة طبريا وبيسان حتى حيفا باتجاه مرج ابن عامر- هذا بالإضافة إلى المستعمرات المبعثرة التي تُطوق حيفا، ويافا، والقدس، وجزءاً من قطاع صفد.

ثانياً: إن التوزيع "السوقي" السالف أصبح فعّالا، بسبب أن هذه المستعمرات كانت تشكل مراكز دفاعية هجومية محضة، وقد بُنيت أكثر هذه المستعمرات على أن تكون نقاطا محصنة بالخنادق، والأسلاك الشائكة، وأبراج المراقبة، وأبراج المدافع والرشاشات، وخطوط المواصلات الأرضية، ومستودعات الماء والتموين والذخيرة.

ثالثاً: كان لكل مستعمرة جهاز دفاعي عسكري تام، مُزوّد بعدد معقول من الجنود والضباط المدرّبين، والأسلحة ووسائل المواصلات اللاسلكية.

رابعاً: يحمل أعباء هذه الأجهزة الدفاعية في المستعمرات في الغالب، سكان المستعمرات نفسها، أو بعضهم. وكانت هذه الأجهزة مختصرة ومتقنة فعّالة، بحيث أنه وفّرت للعدو قوة ضاربة كبيرة تستطيع توجيهها في عمليات سريعة للنجدة أو للهجوم، وبدون أن يؤثر تأثيراً كبيراً على جهازه الدفاعي.

خامساً: غنيٌ عن الذكر أن هذه الأجهزة الدفاعية، رغم استقلالها المحلي، كانت جزءاً من حلقة دفاعية كبرى، وتتلقى أوامرها وتعليماتها من قيادة مركزية واحدة.

سادساً: ساعد العدو في عملياته إدارة مدنية تولّت جميع شؤون المناطق اليهودية، وأمّنت كافة الاحتياجات الإدارية والنفسية للسكان والمحاربين على السواء.

وبالطبع لا يقابل هذا التنظيم إلا تنظيم مثله؛ وقد كان من السهل على العرب في فلسطين أن يقلبوا هذا السبق "السوقي" لصالحهم، لو أنهم فكروا بجهاز دفاعي فني موحّد، ولو أنهم أحسنوا تحصين القرى والمواقع الواجب الاحتفاظ بها، وأجادوا تزويدها بالسلاح والجنود والضباط. ولا يخفى على القارئ أن الجهاز الدفاعي المتقن في موقع محصن يوفر الكثير من الرجال والسلاح والذخيرة.

القاعدة النفسية

لم تكن الجبهة الداخلية الشعبية في فلسطين موحدة، بل كانت متفرقة تتنازعها الأهواء والعصبيات والحزبيات والزعامات المختلفة. ولسوء الحظ، بقي هذا الوضع على ما هو عليه حتى بعد بدء القتال.

إن مثل هذا الوضع مصيبة حتى وقت السلم، أما في الحرب، وفي حالة القتال، فإن نتائجه ظهرت كالتالي:

أولاً: تعدد القيادات، ومصادر السلطات، وأجهزة الأمر والنهي، وهذا أنتج فوضى في صفوف المدنيين، وفي صفوف المسلحين منهم، وبالتالي في صفوف القطعات المجندة والتي يفترض بها أن تكون عسكرية.

ثانياً: أدى هذا التناحر إلى فوضى تامة في الشؤون الإدارية للمناطق التي يسيطر عليها العرب، وانعدم الضبط والربط بين السكان، ولم تكن هناك أية سلطة تفرض إرادتها عليهم من حيث حركتهم، أو قتالهم أو نزوحهم أو بقاؤهم في أماكنهم.

ثالثاً: في حالة فوضى مثل هذه لا يمكن تجنيد كافة مقدرات السكان للقتال. وقد بقي بين السكان عشرات المدافع، ومئات الرشاشات، وآلاف البنادق، وكمية لا تحصى من الذخيرة، بالإضافة إلى آلاف الأفراد المدرّبين عسكرياً، بقي كل ذلك ولم يستخدم في المعركة لسبب بسيط، وهو أن هذه الفوضى، وتنازع الزعامات والنفوذ، لم تُمكّن أي إنسان من استخدام هذه المقدرات في القتال؛ وإذا استُخدِمت فإن هذا الاستخدام لم يتعد الاستخدام المحلي المؤقت الذي لا يجدي ولا يأتي بالنتائج.

وزاد في هذا السوء، أن أكثرية الزعماء، والوجهاء، وأصحاب النفوذ والمرموقين من الشعب نزحوا من مناطق القتال إلى خارج فلسطين.

وقد ترك نزوحهم المبكر فراغاً ووحشة في نفوس أكثرية المواطنين، الذين شعروا أنهم تُركوا وحدهم بلا ناصر ولا معين. هذا القرار المشين زاد في الفوضى، والقلق العام، وانعدام الاستقرار النفسي الذي هو السيد الرئيسي لأي قتال ناجح.

الحرب النفسية

بدأ العدو حربه النفسية على العرب منذ بدء الإرهاب اليهودي في فلسطين. ولا شك أن إرهاب العرب كان من الأهداف الرئيسية التي استهدفها منظمو عمليات الإرهاب اليهودية ضد الانجليز. والذي رافق فترة الإرهاب اليهودي في فلسطين. أحسَّ أن كل عملية إرهاب كانت تترك أثراً عميقاً في نفوس العرب؛ وكانت بعض الأحاديث عنها تتطور في الأوساط العربية إلى درجة الأعجاب في بعض الأحيان، والرهبة في أغلبها. وبالطبع كان من أخطر المجنّدين في صفوف الحرب النفسية التي شنها اليهود علينا، الصحف العربية التي كانت تفجع الناس

بعناوينها المثيرة عن عمليات الإرهاب وتفاصيله، على ان المعركة الفاصلة في هذه الحرب النفسية كانت مذبحة دير ياسين. فالطريقة التي أذاعت بها الأوساط العربية أخبار هذه المذبحة، كانت جريمة عسكرية كبرى، وحماقة ليس بعدها من حماقة، أوقعت الرعب في قلوب سكان عشرات من القرى، الذين لولا هذا التهريج عن دير ياسين، لبقوا مدافعين أشداء عن أماكنهم وقراهم. وعلى أي حال، فعملية دير ياسين، كانت إبداعا عسكريا من جانب العدو، أتى بالنتيجة المقصودة من العملية، هذا بغض النظر عن الاعتبارات الإنسانية والعاطفية، وإثارة الضمير العالمي! التي لا وزن حقيقي لها في الحرب.

بانتظار ١٥ أيار

وعلى هذا الشكل من الفوضى وعدم الاستعداد، والضعف المادي والمعنوي، استمر القتال في فلسطين حتى دخول الجيوش العربية وكان القتال عبارة عن سلسلة من الهزائم، باستثناء ومضات بطولة وانتصارات محلية لم تستطع تغيير الاتجاه الرئيسي للموقف. وهكذا سقطت حيفا وطبريا وبيسان وعكا ويافا وصفد. والقسم الأكبر من القدس الجديدة، ومجموعة كبيرة من القرى والمواقع.

ويلاحظ أن القتال في هذه المرحلة بدأ، وزمام المبادرة في أيدي العرب. ولكن سرعان ما تحول إلى أيدي العدو، وأصبحت أكثرية الحاميات والقطعات المقاتلة مثبتة في مهمات دفاعية صرفة. وفي آخر الأمر، تجمدت القوى العربية في دفاع جامد، حتى أن الهجمات المحلية، التي هي شرط أساسي في الدفاع انعدمت بكليتها وبالطبع رافق هذا الوضع الفوضى المعروفة. ولكن المعنويات ظلت مرتفعة بانتظار دخول الجيوش العربية، يوم "١٥" أيار.

وبسبب الفوضى وقلة الضبط، أدى توقع دخول الجيوش العربية إلى تدهور وضع القتال من حيث التمركز، والاحتفاظ بالمواقع. وحدًّة تصميم المقاتلين

العرب في قتالهم والدفاع عن مراكزهم. ونتج عن ذلك الوضع أن عشرات المواقع والقرى قد أُخليت بدون سبب؛ انتظارا لمجيء الجيوش العربية، التي كان من المتوقع أن تستردها كلها في ضربة واحدة.

وقد مكّنت هذه الانسحابات المتكررة، العدوّ من تحسين جبهته، وتحسين مراكزه، وتحسين وضعه السوقي بصورة عامة.

دخول الجيوش العربية

لقد ذكرت شيئاً عن سوء استعداد وتسليح وتدريب معظم الجيوش العربية، كما ذكرت سوء تقديرها لقواها وقوى العدو، وزيادة على ذلك، لم تستطع قيادات هذه الجيوش أن تتعلم أي درس من عمليات القتال في فلسطين. التي جرت قبل دخول الجيوش الرسمية. ففي الواقع أن الجيوش العربية، لو أنها درست القتال، واعتبرت بالتقارير الكثيرة عن المعارك، ونوع قتال العدو ومدى استعداده وتسليحه وتدريبه، لتحاشت الكثير من الأخطاء التي وقعت فيها.

على أن أهم نقطة ضعف في الجيوش العربية، كانت مستوى تدريب الضباط وصف الضباط في هذه الجيوش. لقد كان مستوى التدريب بين هؤلاء بدائيا إلى درجة كبيرة. كانت الأكثرية الساحقة من صف الضباط لا تعرف مثلاً قراءة الخرائط ومبادئ التعبئة الأولية. وكذلك اتّسم قسم من الضباط بهذا الجهل الفاضح؛ أما الضباط العظام، فكان أكثرهم من بقايا الجندرمة والبوليس، وفي أحسن الحالات من بقايا الجيش التركي. الذين وصلوا إلى رتبهم الكبيرة بنتيجة مرور الزمن، أو بنتيجة ظروف شتى لا تخفى على القارئ. على أنه من الواجب الاعتراف بأنه كان في الجيوش العربية عدد لا بأس به من الضباط المدربين اللامعين، الصالحين لِتَحَمُّل المسؤولية العسكرية بكافة نواحيها؛ ولكن هذه الفئة الممتازة لم تكن المسيطرة. وفي أغلب الحالات أُوكِلوا بمهمات ثانوية لم تمكنهم من أن يفيدوا بخبرتهم.

بهذا الشكل. دخلت الجيوش العربية إلى فلسطين ومعنى ذلك أن طاقة الجيوش العقلية كانت ضعيفة؛ وضعف الطاقة العقلية المدربة بين الضباط يعني عدم القدرة على المناورة الناجحة. وعندما تنعدم القدرة على المناورة فمعنى ذلك الخوف من المعارك المكشوفة التي تعتمد بالدرجة الأولى على المناورة، ونتيجة هذا العجز الأكيد هي فقدان زمام المبادوة، وتجميد الجيوش في حرب دفاعية مستكينة تعتمد على الكتلة لا على الحركة. والكتلة كما أسلفت، هي محصلة الثقل في قوة النار، والسلاح، وعدد المقاتلين وهذه عناصر لم تكن متوافرة كماً وكيفاً وعدداً، في الجيوش العربية.

لقد حاولت الإسهاب في هذا الموضوع، لأن هذه الناحية بالذات كانت نقطة الضعف الأساسية في الجيوش العربية، فهي التي جعلت خطة الغزو بدائية مكتوبا لها الفشل؛ كما كانت سبباً في عدم قناعة قيادات الجيوش في ضرورة إنشاء قيادات موحدة. وهذه النقطة بالذات هي التي جعلت جيش العدو يكرّ ويفرّ في مناورات واسعة مرتبة. وبكل أسف أقول إن العدو كان يتمتع بطاقة عقلية جيدة جعلت من مناوراته، عمليات عسكرية ناجحة.

ومن أهم نتائج ضعف القدرة على المناورة أنها تورث القطعات المحاربة وآمريها حساً طاغياً بالخوف والتردد. والحرص المبالغ فيه؛ ولهذا يتحول الجهد إلى مبالغة في الإصرار على اتخاذ مواقف دفاعية جامدة؛ تعتمد على الكتلة. وتستنفد الكثير من الجهد. وعلى الأخص الجهد الناري. وهو الذخيرة وكما يعرف القراء كانت كميات هذه الذخيرة لدى الجيوش العربية قليلة ضئيلة.

القيادة

عندما قررت الحكومات العربية أن تدخل جيوشها فلسطين، لم تبحث هذه الحكومات بجد وحزم موضوع القيادة، غير أنها قررت مبدئياً أن تكون "القيادة

العامة لقوات فلسطين" المنبثقة عن اللجنة العسكرية لجامعة الدول العربية، هي القيادة العليا للجيوش العربية، وعلى هذا تقرر أن يكون أمير اللواء الركن اسماعيل صفوت باشا هو القائد العام للجيوش العربية التي ستدخل فلسطين. وتم الاتفاق على أن تُعزَّزَ قيادته بضباط ارتباط، وضباط أركان من مختلف الجيوش العربية لمعاونته في مهمته، وفي إصدار الأوامر لشتى الجيوش العربية.

على أن موضوع القائد العام، أثار موجة حادة من الاختلافات بين الحكومات العربية بعد إقراره بمدة وجيزة لا تتجاوز الشهر. ويؤسفني ألا أعرف أيّ تفاصيل عن هذا الموضوع، أي موضوع القائد العام؛ على أن الذي أعرفه تماماً هو أن القائد العام اسماعيل صفوت اضطر للاستقالة بعد بدء القتال بحوالي أسبوعين، وأن "القيادة العامة لقوات فلسطين" لم تعد لها سلطة إلا على بقايا جيش الإنقاذ، كما أن ما وقع بالفعل هو أن كل جيش عربي أصبح مستقلاً بقيادته، ولا رابط بين قتاله وقتال الجيش الآخر المجاور له. ورافق هذا كله شكوك قاتلة بين هذه الجيوش، وأخذت الأوساط العسكرية في كل دولة عربية تهمس وتتشكك من أن الجيش الفلاني يريد ان يوقع بالجيش الفلاني، ويريد دماره.

وكان من نتيجة انعدام القيادة الموحدة.

أولاً: عدم تنفيذ الخطة العسكرية العامة التي وضعت للزحف على فلسطين.

ثانياً: عدم إمكانية إرغام أي جيش عربي على تنسيق خطواته، من حيث الزحف والسرعة والاتجاه، مع خطوات الجيوش العربية الاخرى.

ثالثاً: عدم توقيت العمليات العسكرية بحيث تكون آنية ومؤقتة مع حركات الجيوش العربية الأخرى.

رابعاً: بدأت الجيوش العربية تنفرد بالعمل وكأن كل جيش منها يغزو فلسطين وحده، أو يدافع عن حدوده. وحده. ولهذا السبب أزدادت قيادات هذه الجيوش حذرا على حذر، وبدأت تتلكأ، حتى تجمَّدت أخيراً في مهمات دفاعية صرفة.

وبالطبع استغل العدو هذا الوضع إلى أبعد الحدود، فكان يتصرف بعملياته وهو مالكٌ لزمام المبادرة كليا، وبصورة قاطعة، وكانت حركاته تتمتع بحرية تبلغ حد الاستهتار والجنون: كان يسحب قواته من كل الجبهات ليركزها في جبهة واحدة، ويضرب ضربة قاصمة مؤثرة في جبهة إحدى الجيوش العربية، بينما الجيوش الأخرى واقفة تنتظر دورها لتلقّي الضربة دون أن تحرك ساكناً.

فمثلا، بينما كان جيش الإنقاذ يقاتل كافة القوات اليهودية، قتال المستميت في معركة الشجرة، كانت بقية الجيوش العربية واقفة تتفرج، وكانت الحشود اليهودية المتجمعة للانطلاق على الشجرة على مرمى مدافع الجيش العراقي؛ ومع هذا لم يحرك هذا الجيش ساكناً، وكذلك عندما هاجم العدو، الجيش المصري بالنقب بكافة قواته بقيت الجيوش العربية جامدة لا تتحرك. وهكذا فان الأمثلة عديدة وكثيرة. وهذا بالإضافة إلى أن قيادات الجيوش لم تكن تتبادل المعلومات والاستخبارات مع بعضها البعض.

مثل هذه الفوضى وهذه النتيجة ما كان يمكن أن تحدث لو كانت هناك قيادة موحدة، مهما كانت هذه الجيوش قليلة العدد، والعدة، ومحدودة التدريب؛ وبالعكس، فإن عدم وجود قيادة موحدة كفيل بتأمين هزيمة ماحقة لأي عدد من الجيوش، مهما كانت كثيرة العدد. جيدة العدة والتدريب.

إفساد خطة الهجوم الموحدة

إن الأهواء والمنازعات والاختلافات والمؤامرات التي أحاطت تشكيل القيادة العربية الموحدة، أحاطت أيضاً بخطة الغزو الموحدة؛ فمنذ قرار الدول العربية

بدخول القتال في فلسطين، أعدَّت خطة للغزو، ولكن هذه الخطة كانت هدفاً للاعتراضات والتعديلات والتغييرات مرات عديدة، حتى أنه يمكن القول إن الخطة قد تعدلت أساسيا أكثر من عشرين مرة.

وبالطبع، تتركز كل الخطط العسكرية على المعلومات الدقيقة عن أنفسنا وعن العدو، من حيث القدرة على القتال والتصميم عليه. وعلى هذا الأساس وعلى اعتبار أن معلومات الحكومات العربية عن جيوشها كانت دقيقة، وأن نية الحكومات للقتال كانت صافية خالصة، بدأت القيادة العامة لقوات فلسطين - وكان القائد وقتئذ أمير اللواء الركن اسماعيل صفوت - في إعداد خطة الغزو العامة للجيوش العربية.

وعلى هذا الأساس أُعِدَّت الخطة الأولى كمشروع أوّلي لعرضه على قادة الجيوش العربية لمناقشته. وكان هدف الخطة الرئيسي حشد القوى العربية في ثلاث نقاط انطلاق أمام أخطر المناطق اليهودية وأكثفها بالسكان، وهي: "رحوبوت" و"تل ابيب" و"حيفا"، على أن تكونْ خطوط المشروع أمام هذه المناطق، مباشرة، وأن توجه الضربة رأسا إلى هذه المناطق بدون مقدمات زحف أو خلافه. أي أن هذه الخطة قررت أن يبدأ الجيش المصري هجومه رأسا من جنوب رحوبوت، فيقتحم تلك المنطقة الكثيفة بالمستعمرات والبلدان اليهودية، وبعد اقتحامها يتجه شمالا إلى يافا وتل ابيب، وينتظر الهجمة الثانية على تل ابيب ومنطقتها. أمّا الجيش العراقي فيهاجم شرق تل ابيب حتى يصل إلى حدود البلد نفسها، ثم ينتظر الهجمة الثانية المؤقتة مع هجمة الجيش المصري.

أما الجيشان السوري واللبناني فيهاجمان بمحاذاة الساحل حتى يصلا إلى حيفا، وينتظران أمام حيفا لاقتحامها بمعونة نجدة عراقية تهاجم حيفا من الشرق، وتُرك للجيش العربي مهمة تصفية القدس بكاملها.

يمكن اعتبار هذه الخطة مثالية، وذلك للاعتبارات التالية:

١- إن ضباط الركن الذين أُوكلت لهم مهمة إعداد الخطة، افترضوا أن النية في القتال قوية، لو أنها لم تكن خالصة تماماً.

٢- خشي واضعو الخطة من التدخل الدولي لحماية "إسرائيل" بعد مدة من استمرار القتال.

٣- إن البدء بالقتال على أساس هذه الخطة يؤمن:

أ- بدء الجيوش العربية في قتال حاسم لا مجال للتردد أو للتراجع فيه.

ب- إن أي نجاح تحرزه أي من هذه الهجمات يزعزع كيان العدو من أساسه، ويخلق له صعوبات من حيث الذعر وإمكانيات السوق؛ كما أن كل ضربة يمكن اعتبارها موجهة إلى مقتل من العدو.

ج- إن في الشروع في القتال على أساس هذه الخطة توفيراً عظيماً للوقت والجهد العسكري.

هذا بالإضافة إلى أن أكثر نقاط المقاومة المعادية الأخرى، والتي يطلق عليها "أطراف المقاومة" تسقط بيد القوات العربية غير النظامية من تلقاء نفسها في حالة تركيز الهجوم على نقاط المقاومة المعادية الرئيسية، مثل حيفا وتل أبيب ورحوبوت والقدس.

وبالطبع افترضت هذه الخطة؛ أن تكون قدرة العرب في المناورة العسكرية قدرة معقولة، لأن هذه العملية من أساسها تعتمد على سرعة الضرب والمناورة والحركة العسكرية، وتركيز الهجوم، وسرعة الوصول إلى قرار عسكري حازم بدون تلكّؤ أو تردد. وكان من المفروض أن تكون نتيجة العمليات العسكرية بموجب هذه الخطة تقطيع أوصال العدو، وزعزعة كيانه، ونشر الذعر بين صفوفه، وبالتالي استسلامه بلا قيد ولا شرط خلال مدة عمليات عسكرية لا تتجاوز العشرين يوما.

الوضع العسكري عند إعلان الهدنة الأولى

لماذا لم يحتل الجيش العربي الأردني مدينة القدس الجديدة؟

الهدنة الاولى:

أُعلنت الهدنة الأولى: وكان الوضع العسكري في فلسطين كالتالي:

اولاً: بدأ دفاع الجيش المصري نحو الشمال يتصف بالتعثر والبطء.

ثانياً: احتل الجيش العربي، القدس القديمة وظل واقفاً أمام القدس الجديدة، وتمركز قسم آخر منه في اللطرون وباب الواد في وقفة دفاعية باسلة.

ثالثاً: ارتد الجيش السوري نتيجة هزيمته في معركة سمخ، واتخذ موقفاً دفاعياً هناك، ثم تحول إلى جبهة الحولة، وهاجم مستعمرة مشمار هاياردن واحتلها.

رابعاً: هاجم جيش الإنقاذ بمعاونة الجيش السوري، المالكية، وفتح الطريق الشمالي الشرقي لفلسطين، واندفع بقواته للتمركز في الناصرة والجليل الأوسط.

خامساً: بقي الجيش اللبناني مرابطاً على حدوده في الناقورة.

وكان العدو قد استعاد بعض أنفاسه في هذه الأثناء، ولكن وضعه بقي حرجا رغم تعثر الجيوش العربية؛ ففي القدس الجديدة كان العدو محاصراً يلفظ آخر أنفاسه، وتمكن الجيش العربي من ردّ كافة الهجمات البائسة التي حاول العدو شنها في اللطرون وباب الواد. لفك الحصار عن القدس. ولكن المؤسف أن الجيش العربي والمناضلين في القدس لم يستطيعوا، لسبب ما، تقدير الوهن وضعف المقاومة التي كان العدو عليها في القدس الجديدة، ولهذا لم يهاجموا ويحتلوها، وظلوا كذلك حتى إعلان الهدنة.

لقد قيل الكثير عن أثر الهدنة الأولى في تحويل مجرى القتال؛ حتى إن بعضهم

زعم أنه السبب الوحيد الذي أفقدنا النصر وأنقذ العدو من هزيمة محققة. ولكن الحقيقة أن هذا الزعم مبالغ فيه إلى حد كبير، وذلك للأسباب التالية.

أولاً: لا حاجة لإعادة سرد العوامل الأولية التي جعلت المجهود العسكري للدول العربية مجهوداً واهناً بدائياً، لقد ذكرنا تفصيلات عن التسلح، والتدريب، والقيادة، والطاقة العقلية، والخطة، والمؤامرات، وخلافها، مما لا يترك مجالا كبيراً للنصر.

ثانياً: هزّت فترة القتال الأولى الأوضاع البدائية التي كانت عليها الجيوش العربية هزاً عنيفاً. ولهذا رحّبت أكثر هذه الجيوش بالهدنة، على اعتبار انها ضرورة لإعادة التنظيم وإعادة النظر في خطة القتال.

ثالثاً: أما فيما يتعلق بوضع العدو، فإن الهدنة مكّنته من تثبيت موقفه في القدس الجديدة. وهذه النقطة ذات أهمية خاصة، إذ إن احتلال القدس الجديدة يعني ضربة معنوية هائلة تشل العدو، وذلك بدفع سكان القدس الجديدة كلاجئين، وملاحقتهم لاحتلال مراكز دفاعية غربي القدس وجنوبها وشمالها. والأرجح أن احتلال القدس ربما أصبح سبباً مهماً للاحتفاظ باللد والرملة على الأقل.

على أن النقطة الهامة في موضوع الهدنة، هي أن العرب لم يستغلوا فترة الهدنة لتقوية مركزهم وتجنيد قواهم وتعبئتها وتسليحها، بل تقيدوا بقرار الهدنة نصاً وروحاً وبكل طاعة. وبدأت المؤامرات والشكوك بين الدول العربية تتزايد وتشتد. وعلى العموم سيطرت على الجبهات الرسمية العربية وضعية الاستكانة، وعدم الأمل في تجدد القتال مرة ثانية.

أما العدو، وكما يعرف القرّاء، فقد بذل جهداً جباراً لتقوية مركزه، وزيادة سلاحه، وتجنيد قوة جوية لا بأس بها. هذا بالإضافة إلى أنه لم يتقيد بقرار

الهدنة، وظل يستعد على قدم وساق، حتى أنه قام بعدة عمليات عسكرية محلية لتحسين خطوطه، وعلى الأخص في منطقة الجليل أمام خطوط جيش الإنقاذ. وعلى العموم يمكن القول إن العدو تصرف خلال فترة الهدنة تصرف العازم على متابعة القتال، بينما أضاع العرب هذه الفترة هباء.

نخرج من كل هذا إلى القول إن الهدنة بحد ذاتها لم تكن سبباً رئيسياً لأضاعة النصر. رغم المزايا التي استفادها العدو منها؛ فموضوع ضعف مركز العدو بالقدس بشكل خاص هو استنتاج بالمستوى النظري، إذ ليس من المؤكد أن الجيش العربي كان عازماً على اقتحام القدس الجديدة لو لم تعلن الهدنة. وبغض النظر عن عزمه، لا يمكن التأكد بصيغة الجزم بأن إمكانيات ذلك الجيش كانت كافية وقتها لعملية الاقتحام هذه، رغم أن العدو بالقدس، كان على وشك إلقاء السلاح. وعلى ضوء هذه الحقيقة يمكن القول إنَّ الهدنة كانت فرصة متساوية لنا وللعدو على التساوي. وفي مجال الاستغلال. هذا، كسب العدو علينا سبقا سوقياً وتعبوياً، بالنظر لتصميمه وحسن تنظيمه العسكري والسياسي.

تجدد القتال والهدنة الثانية

ما إن انتهت الهدنة الأولى حتى بدأ العدو قتاله بشكل هجوم قوي جديد هدفه الوصول إلى نتائج حاسمة في القتال. أما أكثرية الجيوش العربية فكانت وكأنما جُرَّت إلى القتال جراً. وعلى أي حال بقي أكثرها ساكناً لا يفعل أكثر من ردّ الهجمات على جبهته، أو مجرد أطلاق النار من خطوطه. وأمام هذا الجمود المثالي أخذ العدو زمام المبادرة بكليته، وأخذ يحشد كل قواه ويركّزها في الوضع الذي يروق له: ففي الأسبوع الأول من الهدنة، ركّز العدو كافة جهوده على جيش الإنقاذ في الشجرة، قرب حطين، وبعد قتال باسل مستميت تبعثر جيش الإنقاذ، وأصبح الجليل الأوسط في حكم الساقط عسكرياً، إلا أن جيش الإنقاذ عاد ونظّم

صفوفه، وتمكّن من تقصير خطوطه. والتمركز من جديد في القسم الباقي من الجليل. وسقطت الناصرة أثناء ذلك جرى هذا، وجميع الجيوش العربية البعيدة والقريبة واقفة متفرجة، وتحوَّل العدو إلى مهاجمة الجيش السوري وأعادهُ إلى خطوطه في مشمار هاياردن، بعد أن حاول الجيش السوري أن يتقدم نحو نجمة الصبح.

الهدنة الثانية

وَأُعِلنت الهدنة الثانية، ولا شك أن جميع القيادات العربية قابلت إعلانها بابتهاج عميق، وأخذت تتقيد بتنفيذ شروطها وحذافيرها. أما العدو فقد ظل متمتعاً بحريته في العمل. وبقي طول المدة يهاجم جيش الإنقاذ حتى أوهنه، ثم تحول إلى الجيش المصري فبعثره في معركة النقب الأولى والثانية، ثم تحول إلى جيش الإنقاذ مرة ثانية وأجبره على الانسحاب من الجليل، بعد قتال أكثر من شهر. ولا حاجة هنا إلى الدخول في هذه التفاصيل، غير أن الشيء المهم هو أن يتضح للقارئ أن الوضع العسكري، بعد الهدنة الأولى، كان ومازال وسيظل أبداً ودائماً مثلاً عسكرياً كلاسيكياً للبرهنة على أن المتسلم لزمام المبادرة عقلياً وعسكرياً يستطيع التوصل إلى نتائج حاسمة أكثر من المتوقع، هذا ما حدث بالفعل خلال هذه الفترة من القتال؛ فبينما كان العدو يسرح ويمرح على حريته، ويحشد قواته كيفما شاء، كانت الجيوش العربية واقفة تتفرج على المحنة التي يعانيها جيش عربي آخر، وبقيت هذه الجيوش تنتظر دورها مستسلمة للمصير الذي ينتظرها.

على أن الجدير بالذكر أنه، بالرغم من وضع الجيوش العربية المتأخر من حيث الاستعداد والسلاح، إلا أن العدو لم يكن ليستطيع أن يتسلم زمام المبادرة، بهذا الشكل الفاضح للعرب، لو أن القيادات العربية أحسنت أستخدام فترة الهدنة

الاولى، أو أنها اتعظت بالدروس والأخطاء والنتائج، التي وضحت خلال فترة القتال الأولية، بحيث يمكن أن يراها حتى أجهل الناس بالفن القتالي والأصول العسكرية. غير أن القيادات العربية كانت بالفعل عمياء، أو متعامية عن هذه الدروس وهذه العبر، ولهذا ظلت الضربات تنزل بها تباعا. ولو كانت القيادة موحدة رغم ضعف الجيوش العربية وقلة استعدادها، لكان نصيبنا من فلسطين نتيجة القتال ضعف ما بقي بأيدينا حاليا.

الفصـ٣ـل

الأسباب الحقيقية لهزيمة ١٩٤٨

توطئة

في * أعقاب هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨، عالج المسؤولون الألمان موضوع الهزيمة على مستويين؛ الأول مستوى الدراسة الموضوعية لغرض العمل والعلاج، والثاني مستوى الدعاية والاعتذار.

في المستوى الأول عكف المسؤولون الألمان على دراسة أسباب هزيمة الجيش الألماني بصورة موضوعية مفصلة، قام بهذه الدراسة اختصاصيون، تناولوا بالبحث والتمحيص والتدقيق وإعادة النظر في جميع عناصر المجهود الحربي الألماني في الجبهات الداخلية وفي جبهات القتال، وقارنوا كل ذلك بمجهود الحلفاء المقابل، وناقشوا مجاهيد الإدارة والتموين، والتسليح، وأنواع السلاح، وأساليب الطرفين المتحاربين، وبحثوا أساليب السوق والتعبئة، وصفات القتال في جنود الطرفين.

وخرجوا من هذا البحث المُمَحّص إلى تشخيص واقعي لجميع نقاط الضعف والقوة في المجهود الحربي الألماني، مع مقترحات مفصلة للعلاج بتبديل أساليب التدريب، تناولت جميع النواحي والنقاط، حتى موضوع إنماء روح المرح والنكتة في الجندي الألماني، ليصبح نداً للجندي البريطاني في هذه الناحية.

---

* ورقة عمل قدمها الشهيد وصفي إلى "المؤتمر الدائم لقضايا الوطن العربي" المنعقد في القدس، بتاريخ ٢١ ايلول ١٩٥٥.

وبالطبع تحولت هذه الدراسات والمقترحات كاملة إلى قيادات التدريب ومعسكراته، لإعادة إعداد الجيش الألماني بموجبها.

أما في المستوى الثاني، مستوى الدعاية والاعتذار، فقد أذيعت قصص أخرى عن الهزيمة، تُلقي التبعة على غدر الشيوعيين، ومن ثم اليهود، الذين طعنوا الجيش المحارب من الخلف، وأرغموه على الهدنة، في وقت كان فيه ما يزال يحتل أرض الأعداء.

بهذين المستويين، بحث الألمان هزيمتهم في حرب، ليستعدوا لحرب ثانية. ويلاحظ أن المستويين قد سارا جنباً إلى جنب، كما انبثقا من مصدر واحد وتوجيه واحد، مع أن هدف الأول كان جماعة المسؤولين والعالمين، والذين لاتزعزعهم الحقائق مهما كانت مرّة. وكان هدف المستوى الثاني، عامة الناس، التي يفيد معنوياتها بالتنشيط، وتعليق الهزيمة على أمور تعتقد أنها خارج مجهودها، وذات صفة مفاجئة غادرة.

هذا مع الإشارة إلى أن رفع المعنويات هو بالفعل من جملة العوامل المهمة التي تسهل خطوات العلاج، وإعادة النظر في المستوى الأول، أي أنها عامل منشط محذر في الجبهة التي يجب بها التحذير والتنشيط، أي جبهة الشعب الذي لا يشرف جميع أفراده مباشرة على العلاج وإعادة التنظيم. وهي في، الوقت نفسه، إعلامٌ للمسؤولين عن الوقائع كما هي، وبذلك لا تؤثر على أعمالهم اعتبارات العواطف والدعاية. فالمستوى الثاني إذاً هو مستوى موجّه مقصود، لا مجرد سيل جارف من الأكاذيب والاعتذارات التي لا يضبطها ضابط، ولا يُعرَف لها أصل.

قصدت بهذه التوطئة، أن أبيّن أنموذجاً لمعالجة، أعتبرها مثالية، قام بها شعب أصيبَ بهزيمة عسكرية لا تقل عمقاً وعنفاً عن هزيمة العرب في فلسطين، مع ملاحظة أن الانفعال الأول الذي أصاب المسؤولين الألمان، وقتئذٍ هو الرغبة العميقة المخلصة في معرفة ودراسة عناصر القوة والضعف في المجهود الحربي الألماني، هذه الدراسة العميقة التي تميّزت بموضوعيتها ومواجهتها الحقائق

كل المواجهة، والاعتراف بها، وبالتالي القيام بعملية تشخيص واقعية لا تعرف المواربة ولا المخادعة. وعلى هذا التشخيص بدأ العلاج. ومعنى هذه العملية بدء معركة الثأر، وبدء الاحتياط لأي حدث مقبل، ومن ثم الاستعداد للجولة الثانية.

إن غاية بحثي هذا، هي أن أحاول قدر المستطاع أن أضع أمامكم دراسة موضوعية عن أسباب هزيمة العرب العسكرية في فلسطين، وأعتقد أنني مرجع أهل لهذه الدراسة بحكم مهنتي كجندي، وبحكم مرافقتي واشتراكي بمراحل الاستعداد العسكري العربي واهتمامي بتطوراته واتجاهاته بحكم مهنتي أيضاً، وبالتالي بحكم تشرفي بتحمل مسؤولية القتال في فلسطين، وعملي كضابط ركن، وآمر قطاع وقطعة مقاتلة في فلسطين، منذ بدء القتال إلى ما بعد الانقلاب السوري الأول.

أسباب هزيمة فلسطين
في ضوء الوسائل والإمكانات الايجابية

أولاً: يجب الاعتراف بأن الهزيمة في فلسطين كانت بالدرجة الأولى عسكرية، ذلك أن العرب أرادوا فرض إرادتهم في قضية فلسطين بقوة السلاح، وفشلوا في ذلك عسكرياً، والنكسة التي أصابت العرب في قضيتهم في فلسطين، بمرارتها وآلامها وصداها النفسي، كانت نتيجة للهزيمة العسكرية، من جهة، وخيبة العرب من قدرتهم العسكرية وقتئذ، من جهة أخرى.

ثانياً: إن الجهد العسكري لأي أمة في القتال هو المحصلة النهائية لجميع جهود الأمة في كل الميادين، سواء أكانت هذه الجهود سلبية أو إيجابية، معنى هذا أن الإمكانات الصناعية والاقتصادية والبشرية والعقلية وغيرها من الإمكانات الإيجابية، تتكاتف كلها لتشكل محصلة إيجابية للجهد. كما تتكاتف الجهود

السلبية، من خيانات ومؤامرات وسوء تنظيم وسوء قيادة، والمساوئ الإدارية والحكمية تشكل محصلة سلبية تنقص من قدر المحصلة الإيجابية، وربما طغت عليها ودثَّرتها، والناتج من اندماج المحصلتين وتفاعلهما هو الذي يذهب للمعركة.

ثالثاً: المقصود بالجهد العسكري هو الجهد الممكن دفعه للمعركة في زمان ومكان بعينهما. وهذا ما يعرف عند العسكريين بالنفير السوقي. معنى هذا أن الجهد العسكري، هو الرأسمال الممكن تداوله والتحكم به ودفعه للمعركة في زمان ومكان بعينيهما. وليس من الجهد العسكري الإمكانات المقبلة، أو التي لا حيلة لنا باستخدامها. وعلى هذا لا يجوز ان نُدخِل في حسابات المعركة أموراً ستتم أو تتوافر في المستقبل، ولا معنى للاعتماد على سبعين مليون عربي، بينما لا يمكن أن ندفع للمعركة سوى بفرقتين، كذلك لا معنى للاعتماد على البترول العربي، بينما لا يمكن أن تؤمِّن وقوداً لكتيبة مدرعة. إن الإمكانات والجهود العسكرية تُحدَّد بزمان المعركة ومكانها.

رابعاً: في الحرب الحديثة الشاملة، ليس من الممكن أن تنتج الهزيمة أو ينتج النصر، في المصادفة واعتبارات لو ولولا، فالحرب صدام شامل بين إبداع الطرفين المتحاربين وجهودهما. والطرف الأثقل وزناً في الإبداع والجهد المحشود، هو الكاسب لا محالة ضمن قيود الزمان والمكان.

خامساً: رغم خطورة وأهمية الوسائل المادية -النار والكتلة- في المجهود الحربي، إلا أن الناحية المؤثرة نهائيا، والتي تقلب الموازين في النهاية، وتعوض النقص في الوسائل المادية للحرب، وهي الطاقة العقلية والإبداعية للقوى المقاتلة -السرعة والمناورة- فمع أن صفة الحرب الحديثة هي صفة ثقل في النار والكتلة،

إلا انه من المؤكد أن وراء هذا الثقل طاقة عقلية متمرسة ومبدعة، هذه الطاقة العقلية، إذا عجزت، قد تسبب اندثار الكتلة الكبيرة وضياعها. وبالعكس، إذا كانت الطاقة العقلية عالية مبدعة فإنها تعوض نقص الكتلة وتزيد من فعاليتها، وعلاقة الكتلة بالطاقة الفعلية علاقة حسية فيزيائية مباشرة، تشبه معادلة ضرب الكتلة بالسرعة لإنتاج القوة. معنى ذلك أن الطاقة العقلية والتدريبية للضباط والرقباء والجنود هي العامل المؤثّر في المجهود الحربي، والطاقة العقلية لهؤلاء تعتمد على درجة ثقافتهم وتعليمهم وعقيدتهم وتدريبهم.

وهذه الأولويات تشكّل أساساً لهذا البحث، وهي:

أ- أنها تشكل أساساً لمناقشة وتفنيد أسباب الهزيمة التي سيأتي شرحها.

ب- إنها تضع حدوداً للبحث، بحيث تحصره بأسباب الهزيمة العسكرية حسب مفهوم محصّلة الجهد العسكري الذي سبق وبينته.

ج- إنها تحصر البحث بحيث لا يتطرق إلى إسهاب في إيراد عوامل الهزيمة في ميزان السياسات الخارجية والداخلية، ودعاوى المؤامرات والتواطؤ، والأوضاع الاجتماعية والنفسية في البلدان العربية. وهذا الحصر لا يذكر مطلقاً أهمية هذه العوامل، لأن الجهد العسكري هو، كما بيّنت، نتيجة لتفاعل هذه العوامل مع الجهود الإيجابية الأخرى، مع الإشارة إلى أن الجهد العسكري هو بالفعل استمرار للجهد السياسي بصورة قتالية.

تفنيد بعض الادعاءات

عن هزيمة العرب في فلسطين

أولاً: من الصعب الإلمام كلياً بجميع الاجتهادات الرسمية والشعبية في تعليل أسباب الهزيمة في فلسطين، إلا أنه من المؤسف أن أقرٌ أن معظم هذه الاجتهادات قد نحت منحى الدعاية والاعتذار، والتنصل مع المسؤولية، ومحاولة

إلصاق التهم بهذه الجهة أو تلك، ومن ثمّ إلقاء المسؤولية على الاستعمار، وعلى الخيانات، إلى آخر هذه القصة التي تطالعنا بها كل يوم الصحف والمذكرات والبيانات والمهاترات.

هذه الأسباب ليست دقيقة ولا صحيحة برمتها. وعلى فرض صحتها، فإنها تشكل انفعالاً عديم الفائدة، مثل النواح على الطلول، والانفعال المفيد في هذه الحالة هو الانفعال الذي يكتشف عيباً ويداويه.

هذا بالاضافة إلى أن الاجتهاد التنصُّلي هذا، هو اجتهاد مخدّر سلبي، يسعى إلى إقناعنا أن الهزيمة كانت غدرة من عالم الغيب لا نستحقها، وبالتالي لا حاجة لعلاج، ولا لإعادة نظر في نقاط الضعف والقوة.

ثانياً: الراجح أن الانفعال التنصّلي المشار إليه، قد استنفد القسم الأهم من جهود معظم المسؤولين العرب، والقسم الضئيل الإيجابي الذي تحوّل لمواجهة العيوب وعلاجها، لم تَبدُ نتائجه بصورة مطمئنة بعد. والمأمول ألاّ يكون حظ الانفعال العسكري من الالتفات كحظّ الانفعال السياسي، الذي يتصرف كأن العرب لم يبلوا بعد بهزيمة جارحة مؤلمة.

ثالثاً: هناك اجتهاد يدّعي أن نقص السلاح كان السبب الأول للهزيمة العسكرية، هذه الدعوى غير صحيحة لسببين:

أ- إن مصادر السلاح لم تكن مغلقة كلياً في وجه العرب، ولم يكن الأمر يحتاج سوى جهد عادي لتأمينه.

ب- إنه يمكن القول بصورة عامة إنّ وضعية السلاح عند العدو لم تكن أحسن من وضعية السلاح عندنا، وفي أغلب الحالات، كانت قوة النار العربية تماثل، بل وتزيد على قوة النار عند العدو فحتى معارك النقب، لم يكن العدو يملك فيها مدفعية مؤثرة. بينما كان جيش الإنقاذ -مثلاً- يستخدم مدفعية مؤثرة، ناهيك عن الجيوش العربية الرسمية، هذا مع الإشارة إلى أن قوة النار العربية كان

يبعثرها سوء القيادة، وقلة الضبط، وانعدام الأوامر.

رابعاً: هناك اجتهاد يلقي اللوم على الهدنة والحقيقة أن الاستعداد لقبول الهدنة من عدمه، هو جزء من محصلة الجهد العسكري. هذا ومن جهة اخرى، ومن المعلوم أن الإنهاك أصاب العرب كما أصاب العدو والفائدة الملموسة الوحيدة التي استفادها العدو هي نجدة القدس الجديدة بعد أن أوشك الجيش العربي على احتلالها، وبالنسبة لحجم الجيش العربي، فإنه من المشكوك فيه كثيراً احتمال محافظته عليها من هجمة معاكسة. مع العلم أن احتلال القدس الجديدة من قبل الجيش العربي لم يكن ليغيّر في الوضع العسكري العام تغييراً حرياً بالاعتبار، بالنظر لضعف التعرض عند مجموع القوى العربية.

بالإضافة إلى هذه الاجتهادات، هناك اجتهادات ثانوية في مستوى "لو ولولا"، ولو سُلّح الفلسطينيون ولو لم ينسحب الجيش الفلاني من المكان الفلاني.. إلى آخر ما هناك من اجتهادات لا أجد حاجة لبحثها وتفنيدها.

أسباب الهزيمة

إن تقدير الموقف، بدقة ورويّة، ركن أساسي يجب أن يسبق الشروع في أي عملية حربية يراد لها النجاح، والعملية الحربية لا تختلف من هذه الناحية عن أي مشروع بشري آخر، لا بدّ لتأمين نجاحه، من دراسة أولية موضوعية للظروف والإمكانيات قبل البدء عملياً بالمشروع. والحرب بداهة ليست مشروعا عادياً، بالنظر لعمق وشمول أثرها، وخطورة نتائجها، وعِظَم خسائرها، وعلى هذا فإن تقدير الموقف للحرب خطير خطورة الحرب نفسها، علَى اعتبار أن دقّته هي ركن النجاح الأول.

وتقدير الموقف هذا هو عبارة عن دراسة تجارية دقيقة إلى حد اللؤم، لكافة

إمكانات الجهد العسكري الشامل الذي يخصّنا أو يخصّ العدو، وهو يشمل الإمكانات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكفاءة القيادة، وعدد الضباط والجنود، ومستوى تدريبهم وتسليحهم وإمكانات السلاح والتمويل والنقل والمواصلات، وإمكانات حشد هذه الإمكانات مع تقدير دقيق للظروف النفسية في البلد، ومختلف ردود الفعل للحرب، والانفعالات المختلفة، داخلية كانت أم خارجية، مع دراسة كل هذه الإمكانات وعكسها على الوضع الجغرافي على الأرض؛ ومن ثمَّ البحث في كل الاحتمالات الممكنة، سيئة كانت أم جيدة، وطرق مواجهة هذه الاحتمالات.

ولا بد من تأكيد أن هذه الدراسة يجب أن تكون موضوعية إلى درجة المبالغة. ويجب أن يبذل المستحيل لجعل الدراسة عن المجهود العسكري للعدو أوضح وأدق ما يمكن، وطبيعي أن هذه الدراسة يجب أن تغلق في وجه العواطف ودواعي التفاؤل المثيرة كما أنها يجب أن تتقيد بالتعريف العسكري الفني لحدود المجهود العسكري، وإمكانات النفير السوقي، وأن تضرب بعرض الحائط دواعي التمنيات والأحلام والخرافات.

على ضوء تقدير الموقف هذا يجري النفير السوقي ومواضعه، ونقاط التماس، وصفحات العمليات وتطورها، وبالتالي توزيع القوات، ووضع الخطة العامة للقتال.

وفيما يلي الأسباب الرئيسة التي دفعت بنا إلى الهزيمة:

أولاً: سوء تقدير الموقف:

إن تقدير المسؤولين العرب للموقف كان أبعد ما يكون عن الصحة، حتى ليمكن القول إنه لم يكن هناك تقدير موقف فنّي على الإطلاق، فلم تكن هناك أية دراسات دقيقة عن إمكانات المجهود الحربي، وحتى في حالة وجودها فإنها لم تستخدم في تقدير الموقف.. ولم يكن هناك وزن لوضع القيادات والمقاتلين، ووضع

السلاح، ومستوى الكفاءة العامة ودرجة السيطرة على الإمكانات.

معنى هذا أن المسؤولين العرب الذين قرروا غزو فلسطين، لم يعرفوا مقدار رأسمالهم، وقوة رأس المال وأثره، وزاد الطين بلة أنهم قللوا من شأن المجهود الحربي للعدو، إلى درجة مضحكة، جعلتهم لا يهتمون بتقدير إمكانات العرب. وعلى اعتبار أن هذه الإمكانات، مهما كانت قليلة ومشوشة، فإنها كافية لإحراز النصر.

خلاصة الأمر، أن تقدير الموقف من هذه الناحية، قد نحا منحى غوغائيا عاطفيا لا أثر للروّية فيه، واعتمد بأساسه على بسالة العرب وجّبن اليهود، وعلى قصص وخرافات وإشاعات.

وعلى هذا.. يمكن القول إن تقدير الموقف من قبل المسؤولين كان من السوء بحيث أصبح أداة تضليل، لا أداة قتال.

ولقد ساعد، على هذا التضليل ما يأتي:

أ- سوء الوضع السياسي الداخلي بفلسطين في السنوات القليلة الحساسة والخطيرة التي سبقت بدء القتال، فقد سيطر على الجو السياسي فيها عمى وتعصب، أشغلا الجميع في المناحرات الحزبية والزعامية، بصورة ألهت العرب عن الاستعداد، كما ألهتهم عن استعدادات العدو، وأرهبت جميع الذين لمسوا الوضع على حقيقته، لكي يسكتوا أو يوصموا بالخيانة. وسيطر التضليل فأخفى الواقع. وانعكس ذلك على العرب خارج فلسطين، فأخذوا هذا التضليل على أنه الواقع.

ب- يؤسفني أن أقرر أن معنى الشجاعة الأدبية، قد انعدم كلياً في الجماعات والهيئات المؤثرة في تلك الفترة. فمع رؤية هؤلاء الأمر على حقيقته، فانهم لم يحركوا ساكناً لتوضيح الأمور وكان أكثرهم إمّا صامتاً، أو مندفعاً في التطبيل والتزمير لهذا الضلال أو ذاك، حتى أصبح الخطأ قناعة عامة، عند معظم أفراد الشعب العربي في فلسطين وخارجها.

ج- في هذا الوضع تمكن العدو من تضليل العرب في مجاهل بيزنطية. وتمكن من توجيه أنظار العرب إلى ميادين بعيدة عن ميادين العمل الحقيقي، بينما كان العدو يستعد باستمرار عسكرياً، وطيلة الوقت للوصول إلى حل عسكري لقضية فلسطين، أنجرٌ العرب إلى ميدان وهمي فتحه العدو أمامهم، وهو ميدان الكلام والدعاية، والكلام عن الحق التاريخي

والاستيعاب الاقتصادي، ومقابلة الصحفيين الأجانب والإدلاء بالتصريحات.

د- والغريب ان المعلومات عنا وعن العدو، كان اكثرها متيسراً فالمعلومات عن جيوشنا وأسلحتنا وإمكاناتنا لم تكن بعيدة عن متناولنا، وكذلك فإن معظم المعلومات الضرورية عن العدو، لم تكن سراً لم يكن سراً أنَّ، العدو كان يتدرب عسكرياً، ولم يكن سراً أنه يتسلح. والإرهاب الصهيوني في فترة الانتداب كان من الإحكام والدقة في التوجيه والقيادة بشكل يعلن بداهة عن مدى العزم العسكري للعدو.

رغم ذلك فلم تستخدم هذه المعلومات الأولية في تقدير الموقف، وأصابت عدوى التجاهل والإهمال المسؤولين العرب خارج فلسطين فلم تجرِ أية محاولة من قبلهم لمعرفة الأمور كما هي في الواقع، والاستعانة بهذه الواقعية في عملية تقدير الموقف.

ثانياً: نقص الاستعداد العسكري:

إن سوء تقدير الموقف بالصورة التي أوضحت دليل على انعدام الاستعداد، وحجز لأي محاولة للاستعداد وتثبيط لها. فمع أن العرب كانوا يهددون بالحرب في كل مناسبة، فإن التهديد لم يتعدَ مرحلة الكلام، ولم يبذل أي جهد معقول في الاستعداد للحرب. ففي داخل فلسطين، منع التصدع الداخلي أي استعداد مؤثر في الناحية العسكرية، من تدريب وتسليح. وفي خارج فلسطين بقي الاستعداد العسكري مجمدًا، إما بتأثير النفوذ الأجنبي، أو بسبب الجهل والإهمال.

وكانت الصبغة المؤثرة في الجيوش العربية. هي صبغة القيادات القديمة

التدريب، أو التي ورثتها الجيوش العربية عن عهود الاستعمار السابقة.

هذه القيادات القديمة العاجزة، لم تكن أهلاً للوصول بأي معركة إلى نصر، ولم تكن قادرة على تقدير الموقف، وليس باستطاعتها الإشراف على مستوى تدريب ناجح للضباط والرتباء والجنود، ولا تستطيع اختيار السلاح، ورفع مستوى التسليح، هذا بالإضافة إلى أن أقصى تجربة لهذه القيادات كانت في عمليات بوليسية، أو مناورات غير متقنة، وفي الاستعراضات والمراسيم.

إن التجربة القتالية الوحيدة، كانت من نصيب الذين قاتلوا بالثورات المختلفة، وبصورة خاصة ثورات فلسطين مع العلم بأن التجربة القتالية في الثورات لا تنطبق كلياً على القتال المنظم، إلا أن المؤسف أنه حتى هذه التجربة الثورية لم يستفد العرب منها ومن دروسها، ذلك أن حديث البطولات والأمجاد والاستشهاد، قد طغى بصورة منعت العرب من دراسة الأخطاء والعيوب.

أقول هذا، لا انتقاصاً من قدر الأبطال والشهداء، الذين يفرضون علينا الإجلال والخشوع لقَدْرهم وذكرهم، ولكن الحرب غايتها النصر وليس التغني بالبطولات، والذي غايته النصر، عليه أن يدرس الأخطاء ونقاط الضعف، ويعمل على تلافيها وتحاشيها.

ففي ثورة فلسطين، لم تدرس مثلاً الأخطاء التعبوية التي وقع بها الثوّار، ولا سيطرة الفوضى على المعارك، ولا ميوعة الأمر بحيث أن دورية صغيرة كانت في بعض الأحيان تهزم عصابة كبيرة. ولم يُدرس مبدأ الاقتصاد بالقوى وضبط المعركة، إلى آخر هذه المبادئ التي لها قيمة تدريبية كبيرة.

أما العدو فقد بدأ استعداده منذ الحرب العالمية الأولى، وبدأ بتشكيلاته العسكرية، منذ الانتداب. ومنذ تشكيل حرس المستعمرات بقيادة وتدريب "ونجت" واغتنم فرصة الحرب الثانية، فالتحق معظم القادرين بالجيش البريطاني، وحاربوا في إيطاليا كلواء يهودي مستقل.

هذا بالاضافة إلى تدريب مستمر لا ينقطع كان يقوم به شبان المدارس والمؤسسات

والأندية اليهودية، ومن ثمّ اتخذوا من الإرهاب وسيلة للتمرين ودراسة الأخطاء.

وكان تسلُّح العدو مستمراً طيلة الوقت. وكما هو معروف، لم يكن يمضي عام واحد دون أن يُكْتَشف للعدو شحنة سلاح كبيرة؛ أما القسم الأكبر من الشحنات، فقد بقي دون أن ينكشف.

بالإضافة إلى تفوق العدو في مستوى التدريب والاستعداد العسكري، لا بد من الاعتراف بأن مستوى قواته المسلحة، من حيث التعليم والثقافة، كان أعلى من مستوى القوى المسلحة العربية. ولا شك في أن هذه الناحية كانت من أولى النقاط التي رجّحت كفة قوى العدو على القوى العربية؛ إذ إنّ الحرب الحديثة -كما هو معلوم- حرب أوامر وخرائط وتعقيدات، تحتاج إلى مستوى ثقافي أدنى، لا بد من جوده لسير العمليات بصورة ناجحة. والجندي المتعلم يسهل تدريبه، وتعظم الاستفادة منه؛ والأمر نفسه ينطبق على الرتباء والضباط.

أما القيادات والأركان التي من ضرورتها المستوى الفني العالي، وسعة الأفق والإبداع، فإن المستوى الثقافي والتعليمي أمر خطير لا يمكن تجاهله بالنسبة إليها. من هذه الناحية، كان الاستعداد العربي مؤسفاً. وكانت القيادات والإدارات المعادية متفوقة بشكل واضح، ممّا أمّن لها المبادرة طيلة العمليات في فلسطين.

ومن مظاهر سوء الاستعداد العربي الأمور التالية:

١- نقص تدريب الجنود والضباط.

٢- انعدام الضبط.

٣- قبول مبدأ القيادات المتعددة.

٤- مشاكل التموين والتسليح.

٥- انعدام مبدأ الاقتصاد بالقوى وتركيزها.

٦- سوء خطة القتال العامة.

٧- بدائية زحف الجيوش العربية، وتلكؤها وترددها، وبعدها عن أي أساس فني.

٨- هزيمة القوى العربية في معظم المعارك المكشوفة المرنة التي تحتاج للمناورة

والإقدام والحركة الفنية.

٩- اللون البدائي الفني للقتال في أغلب نواحيه.

١٠- تعثرُ خدمات الإدارة والمواصلات والتموين.

والخلاصة أن العرب دخلوا الحرب كمجاهدين، لا كجنود. وفي عرف الحرب الحديثة هناك فرق كبير بين المجاهد والجندي، خصوصا وأن الاعتماد على روح التضحية والشجاعة الفطرية، لا يغني عن المستوى التعليمي والتدريبي الذي يخلق الشجاعة المنتجة المستمرة التي تؤدي إلى النصر.

ثالثاً - تعدد القيادات:

لقد أشرت في البند السابق إلى أن تعدد القيادات، والقبول بمبدأ التعدد، إنكارٌ لأبسط أسس الفن العسكرية، لما في ذلك من بعثرة للجهد وتشويش وتضارب. على أن المؤسف أنه رغم مصيبة التعدد، فإن هذه القيادات لم تكن تتعاون في العمليات. وفي بعض الأحيان كانت تكتم المعلومات عن بعضها بعضا. ناهيك عن التنافس على القيادة العامة، وعلى النفوذ. وعن الشكوك والمخاوف التي تكنّها كل قيادة تجاه الأخرى، حتى وصل الأمر إلى درجة أن العدو كان يحشد قوته كلها لقتال جيش عربي واحد، ويهمل الجيوش العربية الأخرى التي كانت تقف وقفة المتفرج، مع أن أبسط القواعد في القتال تقضي بترتيب التعرض وتوقيته بصورة لا تمكّن العدو من حشد معظم قوته في مركز واحد.

رابعاً: سوء خطة القتال:

إن سوء خطة القتال التي دخلت الجيوش العربية فلسطين بموجبها، كانت نتيجة منطقية لسوء تقدير الموقف، لسوء الاستعداد والتدّرب، وتعدد القيادات، وشكوكها، فالبرغم من كل الأخطاء والعيوب والنواقص التي سردتها حتى الآن، بقي زمام المبادرة في القتال بيد العرب، ولكن خطة الزحف أفقدت العرب الزمام.

إن الخطة إنكارٌ لمبدأ تركيز القوى في الحرب، وتجاهل للأسس السوقية الحديثة التي كانت كل معركة من الحرب العالمية الثانية، تضرب عشرات الأمثلة عليها، وكانت معروفة التفاصيل حتى من قِبَل الصحفيين.

هذا بالإضافة إلى أن كل جيش عربي زحف بشكل منفرد وبأسلوب متلكّيء ومتصف بالحذر غير المبرَّر. وعلى هذا الأساس لم يُوقَّت التعرض، وتمكّن العدو، من معالجة كل زحف على حدة، وإيقافه في أكثر الأحيان عند حده. فضلا عن أن طبيعة الخطة نفسها لم تكن تقصد، أو تستطيع، التوصل إلى قرار حاسم في معركة حاسمة، مما جعل الزحف باهظ التكاليف من حيث الذخيرة والجهد. واستنزفت الجيوش العربية معظم قواها في معارك ثانوية لا يمكن أن توصل إلى نتيجة حاسمة، ولهذا سرعان ما بدأت الجيوش العربية تطلب المدد بالجند والسلاح، وقبل أن تتوصل إلى أي هدف سوقي رئيسي.

لقد أشرت إلى أن سوء الخطة، أفقد العرب زمام المبادرة، الذي تسلمه العدو وأخذ يتصرف بعملياته بحرية، وفرض على أغلب القوى العربية وضع الدفاع المستكين الخائف الذي لا يقوم بأي عملية تعرّضية، وإنما ينتظر دوره بالضربة التي سيوجهها العدو.

إن انتزاع العدو زمام المبادرة كان أيضا نتيجة منطقية لسوء التدريب، وتعدد القيادات، وسوء الخطة والمستوى العقلي والفني للقيادات وقيادات القطعات.

وقد حافظ العدو على زمام المبادرة هذا طيلة القتال، وإلى ما بعد الهدنة الثانية، بسبب تفوقه بالتدريب والمستوى الفني، وبالتالي تفوقه في الحركة والمناورة، من الدفاع القلق إلى الهجوم الواثق.

وساعد العدو في الاحتفاظ بهذا الوضع الممتاز ضعف أجهزة الأمن السوقي في البلدان العربية والقيادات العربية ولهذا كان جهاز استخبارات العدو ناشطاً كلَّ النشاط، وتمكن من إعطاء العدو صورة قريبة من الدقة عن الوضع العسكري العربي، وعن العمليات العربية قبل حدوثها، مما سهل قتاله كل التسهيل.

يقابل ذلك أن أجهزة الاستخبارات العربية، لم تحصل على أي معلومات ذات

أهمية في أغلب الأحيان، وفي حالة حصولها على معلومات، كانت لا تستطيع الاستفادة منها، وفي بعض الأحيان لا تشارك بهذه المعلومات أجهزة الاستخبارات للقيادات العربية الأخرى.

هذه، حسب اعتقادي، أهم الأسباب التي أدّت إلى هزيمة العرب العسكرية في فلسطين.

ويلاحظ القارئ أنني لم أتطرق إلى الأسباب الثانوية التفصيلية من سيطرة الأهداف العاطفية على الأهداف السوقية في القتال، وفوضى الاتهامات بين العرب في فلسطين وخارج فلسطين.

كذلك لم أتعرض إلى دعاوى الخيانات والتواطؤ لقناعتي التامة بأن جهدنا العسكري، وقتئذ كما كان، وبدون خيانات أو تواطؤ أو مؤامرات استعمارية، لم يكن كافياً لإحراز النصر ودفع الكارثة.

وعلى أي حال فإن إفساح المجال للخيانات والتواطؤ والعجز والجبن، هو جزء من سوء الاستعداد وسوء الاحتياط، ومن الجريمة أن نلقي ثقل التهمة في الهزيمة على جهة ما، بل أن نسأل أنفسنا لمعرفة أسباب الهزيمة؟

خاتمة

ليس الطريق الذي سلكه العدو، حتى هزمنا في الجولة الأولى، بالطريق المجهول؛ ولا هو بالطريق الجديد. وكذلك لم يأت العدو بمعجزة نقف حيالها مذهولين واجفين.

أن جزءاً يسيراً من إمكانات الوطن العربي، إن حَسُنَ استخدامه، كفيل في كل وقت بالقضاء المبرم على الخطر الذي اغتصب جزءاً عزيزاً من بلادنا.

لقد كانت التجزئة، وما زالت، ركن الهزيمة الأولى وعنوان الضعف أما طريق الثأر للهزيمة فمعروف: مجموعة أوّليات وبديهيات؛ أولها الوحدة، وثانيها الاستعداد. وطريق العلاج يبدأ بالوحدة، ثم بالتدريب والاستعداد على الأسس نفسها والطريق عينها التي تبعها العدو.

القسم الثاني

الهزيمة الثانية ١٩٦٧

الفصـ٤ـل

الهزيمة الثانيـة ١٩٦٧

بعد* استقالتي، في تشرين الثاني ١٩٦٦، نشأ تيار سياسي في الأردن يقول بالتقرب من "الرئيس" عبد الناصر، وأقصد بالتيار، خليطاً من كل شيء: بطانة الملك الجديدة، وضغط محترفي السياسة، وانفعالات الرأي العام، ولا أنسى المناورات التي قامت بها الولايات المتحدة الأميركية.

ولم أكن مرتاحاً إلى تطور الأمور على هذا الشكل؛ لأنني كنت أتوقع حدوث ما حدث، وما توانيت لحظة واحدة في تحذير أصحاب العلاقة، ولكنهم أصمُّوا آذانهم عن سماعي.

كان رأيي أننا غير مستعدين للحرب. وكنا قد قررنا تعزيز دفاعنا لحماية خطوط الهدنة، وتفادي كل ما من شأنه إعطاء إسرائيل مبرراً لاستدراجنا قبل الأوان إلى نزاع مسلح، وعملاً بهذا المخطط، أمسكنا عن الأخذ بثأر "السموع" وحاولنا منع الفدائيين من القيام بأي نشاط على خطوط الهدنة، كل ذلك بانتظار استكمال استعداداتنا، لاسترداد حقوقنا. سواء أكان بالوسائل العسكرية أم السياسية.

كان هذا نهجنا السياسي في الأردن، بالاتفاق مع سائر الدول العربية، حيث كنا جميعنا حريصين على تفادي كل ما يمكن أن يشكل مبرراً تتذرّع به إسرائيل لشن نزاع في وقت غير ملائم لنا.

لذلك كانت سياستنا المشتركة، أو المفترض أن تكون مشتركة، بعد مؤتمر

*مقابلة مع وصفي التل اجراها الصحفيان الفرنسيان فيك فانس وبيار لوير؛ ونشرت في كتاب "حربنا مع إسرائيل". ترجمة ونشر دار النهار. بيروت ١٩٦٨.

القمة الأول، قائمة على الامتناع عن تشجيع نشاط الفدائيين.

لقد كان بوسعنا أن نتفادى هذه الحرب التي سبقت أوانها. وربما لم يكن أحدٌ يتوقع هزيمة من هذا العيار، غير أن المعلومات التي كانت متوافرة لدينا لم تكن تسمح لنا بالتفاؤل بإمكان خروجنا منتصرين.

كان هناك خطة دفاعية عربية مشتركة. ولكنها خطة نظرية ليس إلا. وحتى أثناء حرب حزيران لم توضع هذه الخطة موضع التنفيذ، لأنه ما من زعيم كان يتوقع نشوب الحرب بالفعل، على الرغم من ظهور بوادر تنبئ بإمكان نشوبها *.

وجدير بالذكر أن الأردن كان منذ مدّة طويلة قد نظمً دفاعه بالوسائل المتوافرة لديه. ففي الحالات العادية، كانت لدى قواتنا المرابطة على طول خط الهدنة تعليمات دائمة تقضي بمنع تسلل العناصر المعادية، من غير أن يعود القادة المحليون إلى المراجع العليا او ينتظروا توجيهات رؤسائهم. ولا شك في أننا لو اعتمدنا نظامنا الدفاعي المألوف بدلاً من أن نترك أمر التقرير للقائد المصري عبد المنعم رياض، منتظرين انتهاءه من اختيار هذا التكتيك أو ذاك، لجاءت عملياتنا وردودنا على العدو أجدى وأكثر فعالية.

لقد ارتكب عبد المنعم رياض غلطتين كبيرتين:

الغلطة الأولى: تصديقه ما كانت تردده القاهرة: "سحقنا طيران العدو

*كان الشهيد وصفي التل. يرى أن الرئيس عبد الناصر لم يكن راغباً في الحرب او مستعداً لها، وانه كان، قبيل حزيزان ١٩٦٧، يخوض مناورة سياسية افلتت من يده؛ وأنه كان في ذلك أسيراً لخط التوريط الذي تبناه نظام الرئيس نور الدين الأتاس في سورية ومنظمة فتح، في إطار صراعهما مع الناصرية ومضمون ذلك الخط يتمثل في وضع الرئيس عبد الناصر امام خيارين: انحسار نفوذه العربي أو تأكيد زعامته العربية بالتصعيد الفوري ضد "إسرائيل" وإذ اتبع الرئيس المصري، الخيار الثاني، بدون أن يكون مستعداً للحرب، أعطى "لإسرائيل" ذريعة وفرصة شن عدوان ناجح على مصر وسورية والأردن.

وبدأنا نجتاز الحدود الإسرائيلية". ولم يكن لدينا ضابط ارتباط في مصر يوافينا بالخبر اليقين. لهذا كنا تحت رحمة الأخبار التي تذيعها وسائل الإعلام المصرية.

وفي يوم الإثنين ٥ حزيران وهو أول أيام الحرب، ظل رياض جاهلاً حقيقة ما حل بسلاح الجو المصري، حتى المساء، حين وصلت برقية -ونحن محيطون بالفريق- تعترف بما حصل. ورياض هو الذي نقل اللوائين المدرعين ٤٠ و٦٠ من مواقعهما على الرغم من معارضة جميع من يعنيهم أمر هذه التحركات، فكانت تلك غلطته الثانية.

وحتى لو كانت الأخبار التي زفت بشرى تدمير سلاح الجو "الإسرائيلي" صحيحة، فصحتها لا تبرر إقدام عبد المنعم رياض على نقل اللوائين "المدرّعين من المواقع التي كانا يحتلانها، لأنه لم يكن لهذا التدبير أي مُبرر استراتيجي. يضاف إلى هذا أن الدبابات الأردنية التي كانت تجهل أنها لا تستطيع الاعتماد على غطاء جوي يُساندها، انطلقت نحو المواقع الجديدة لها تنفيذا للأوامر الصادرة، فكان أن وجدت نفسها هدفاً سهل المنال لصواريخ أعداد كبيرة من طائرات العدو، وهي الظاهرة التي حملتنا على الاعتقاد بحصول تدخل إنكلو - أميركي.

وما يستوجب الرضى والفخار، أن ضباطنا كانوا يعترضون على أوامر الفريق عبد المنعم رياض، بالرغم من إدراكهم أنهم ملزمون بتنفيذها على علاّتها.

وقد كان رياض محاطاً بأربعة أو خمسة ضباط مصريين كبار، يؤلفون أركان حربه وكان المصريون في المقرّ العام يقبضون على الزمام، ويتحكمون بالمواقف والمقررات، مع العلم أن الأصول المتعارف عليها لا تسمح بإطالة الأخذ والرد، وعرض المقترحات المضادة داخل مقر قيادة. العمليات، إلا أن هذا لم يمنع اللواء الأردني عاطف المجالي "توفي بعد الحرب"، معاون الفريق رياض من انتقاد بعض المقررات التي اتخذها رئيسه، غير أن هذا ذهب في التمسك بقراراته إلى حد

العناد. وهكذا كانت الحال في مراكز قيادات الفرق والألوية المشتبكة مع العدو على الضفة الغربية، إذ كانت معظم أوامر رياض تثير اعتراض ضباط الوحدات المذكورة فيبادرون إلى الاتصال بعاطف المجالي لإقناعه بخطر رأي الفريق المصري، ومطالبته بأن يدافع عن وجهة نظرهم أمام الفريق. ودائما كان رياض يتشبث برأيه وينتهي الأمر برضوخ الضباط وتنفيذهم الأوامر الصادرة لهم.

عبد المنعم رياض رجل ذكي، يضجّ بالحيوية، ما في ذلك من ريب؛ لكنه بدا لي، في الظروف العصيبة، دون المستوى المطلوب، وذلك بالرغم من هالة الوقار التي أحاط بها نفسه، ليُدخِل في روع الآخرين أنه يعرف أكثر مما يبدو أنه يعرف. مع أن الرجل من خريجي الأكاديمية العسكرية البريطانية، وقد أمضى سنوات في التخصص في الكليات العسكرية في أميركا وروسيا وحتى في فرنسا، وهو رئيس أركان القيادة العربية الموحدة منذ ١٩٦٤، ولهذا كان مفروضاً فيه أن يعرف الجيش الذي دُعي إلى تَولّي قيادته. وأن يعرف الأرض التي سيناور عليها، "أي أنه لم يحصّل هذه المعرفة بالرغم من أنه زار الأردن مراراً لهذا الفرض.

الخلاصة

إن أمام "إسرائيل" فرصة أخيرة للانسحاب إلى خط الهدنة السابق بينها وبين الأردن. فإذا لم تفعل ذلك الآن، فحالة الحرب السائدة ستستمر، ويتضاعف أوتوماتيكيا نشاط الفدائيين.

وإذا استمرت الاعتداءات "الإسرائيلية" على الأردن، فسينتهي الأمر بالعرب إلى الاتفاق، فيما بينهم على وجوب مساعدة الأردن، ودعمه بالغطاء الجوي الذي لا غنى عنه. فإذا سرنا على هذا المنوال، فالوقت سيكون حليفنا لا حليف "إسرائيل" . وسيركز جميع العرب جهودهم على دعم الأردن، باعتباره رقبة جسر المقاومة العربية.

وهنا لا بد من التأكيد على القضية الأساس، وهي أنه لا يمكن أن ينفرد الأردن

بالدخول في مفاوضات صلح. وهذا الموقف هو وليد الاقتناع، ومستوحى من المبادئ التي نؤمن بها.

أما الفدائيون، فيشكّلون ظاهرة عفوية طبيعية جدا. وروابطهم مع المصريين والسوريين، لا تقلل، بحال من الأحوال، من رغبتهم في أن تكون لهم هويتهم الوطنية.

وفي حال انسحاب "الإسرائيليين" إلى خط الهدنة الذي كان قائما قبل حرب حزيران ١٩٦٧. فمفاوضات الصلح يجب أن ترتكز على أساس تنفيذ قرار التقسيم الذي اتخذته الأمم المتحدة عام ١٩٤٧.

الفصــ٥ـل

وقـائـع حـرب حـزيـران
علـى الجبهة الأردنـيـة

ما * يدعوني للحديث عن حرب حزيران، هو علمي الأكيد أن حقائق هذه الحرب لم تكتب حتى الآن، لأسباب عديدة أهمها: أن معظم التفاسير والتشخيصات التي أُعطيت لأسباب الهزيمة، كانت أسباباً وتشخيصات اعتذارية، بمعنى محاولة التغطية على قصور ما، أو، على العادة العربية المؤسفة، محاولة إلقاء اللوم على هذه الجهة أو تلك، على العادة العربية الأكثر مدعاة للأسف، محاولة إلقاء اللوم على جهة بعيدة. كأنما قمنا بواجبنا بكل تمام وكمال، وكانت الهزيمة نتيجة عوامل بعيدة عن طاقتنا وعن يدنا، الأمر الذي أدى إلى طغيان الأكاذيب والتأويلات، في كل ما سمعت وقرأت عن حرب حزيران.

وفي هذا المقام، سأقتصر في حديثي على المسرح الأردني من حرب حزيران، لأسباب كثيرة، أولها أنني أعرف معظم التفاصيل، وثانيها أنني عشت هذه الحرب في غرفة العمليات، وفي أثناء تجوالي على مختلف الأماكن والقطاعات العسكرية، ولحقيقة معرفتي بالأحوال التي سبقت الحرب، بالتفصيل.

لعبة الجيـوش السيـاسيـة

قبل أن أبحث المعركة بالذات، أحب أن أعود معكم في عرض سريع لما سبق

---

*محاضرة ألقيت في نادي الأردن في عمان؛ ونشرت في جريدة الرأي الأردنية ٥ حزيران ١٩٧١

حرب حزيران. فالدعايات العربية، صوّرت لنا أن معظم العرب كانوا مستعدين للحرب منذ هزيمة عام ١٩٤٨ أو منذ هزيمة عام ١٩٥٦ وواقع الأمر أن هذا الزعم بالاستعداد لم يكن صحيحاً بجملته؛ لأن البلدان العربية القادرة، بحكم مواردها وحجمها، كانت متورطة في لعبة الجيوش السياسية.

لعبة الجيوش السياسية، كانت أسياسية في هزيمة حزيران، والسبب بسيط؛ وهو كثرة الهزات وكثرة الانقلابات، ودخول السياسة إلى الجيوش، جعلت الاعتماد على الضابط أو الجندي، من حيث رأيه السياسي لا من حيث مقدرته. ولهذا السبب، فإن مجموع الضباط الذين سُرِّحوا، في ثلاثة بلدان عربية، خلال عشر سنوات، زاد عن ألفي ضابط، هذا العدد لم يسرّح لاعتبارات المقدرة أو الكفاءة العسكرية، وإنما سُرِّح بسبب الهزات السياسية، وبسبب الانقلابات المتوالية، بسبب الإصرار، في بعض أنظمة الحكم الانقلابية، على ان الجيش هو امتداد للتنظيم السياسي، وبالتالي فإن اللون السياسي للضابط أو الجندي هو الأساس، لذلك فإن التدريب، وبدلاً من أن يكون تدريبا على السلاح، وعلى التعبئة، وعلى العسكرية، أصبح بجملته تدريباً على اللون السياسي. هذا الوضع مثَّل دوامة استمرت إلى ما بعد عام ١٩٦٠ - ١٩٦١، حيث اجتمع وزراء الخارجية العرب في بغداد، لبحث موضوع تحويل العدو لروافد نهر الأردن، وقد قرر الوزراء أن يُنسِّبوا إلى حكوماتهم أنّ أي مس يقوم به العدو لأي رافد من روافد الأردن، يعني شنّ الحرب عليه فورا وبدونِ إبطاء. كان هذا عام ١٩٦٠. وقد قُدمّت تنسيبات بهذا المعنى إلى الحكومات وأَقرّتها، واتخذت مقررات سرية بهذا الخصوص، ورُجِع إلى ميثاق الضمان الجماعي، وإلى القيادة العسكرية الموحدة المنبثقة عنه، تبعاً للجامعة العربية الاّ أن الضمان الجماعي ظل في واقع الأمر حبراً على ورق حتى مؤتمر القمة الأول في عام ١٩٦٤.

في هذا المؤتمر بُحِثَ موضوع تحويل العدو لروافد نهر الأردن، وقيل إن العمل العربي يجب أن يأخذ شقين أو منحيين: المنحى الأول، منحى تحويل الروافد من

قبل العرب وهذا المنحى الفني لا أريد أن أتحدث عنه. وأما المنحى الثاني، فكان المنحى العسكري القاضي بتشكيل قيادة عسكرية موحدة، وتأمين دعم مالي لدول المواجهة العربية، حتى تزيد من حجم جيوشها، وتحسن أسلحتها. وبالفعل، بدأت الدول العربية تدفع للأردن ولسوريا ومصر، مبالغ مالية لا بأس بها بل وجيدة. وكما تعلمون، بدأنا في زيادة حجم الجيش العربي. وبدأنا نشتري السلاح والطائرات وبالفعل بدأت العملية على مستوى لا بأس به من الجدّية.

استمر هذا الجهد، جهد التعزيز العسكري والإدامة العسكرية، ببرنامج لا بأس به، وبالطبع كان فيه صعوبات كثيرة فيما يتعلق بالمقررات، وفيما يتعلق بمن يدفع ومن لا يدفع، وقصص طويلة قد يعرف البعض طرفاً منها، ولكنّ المهم أنه، في مؤتمر الدار البيضاء عام ١٩٦٥، وكان الموعد لبحث الخطة التعرضية للعدو، ثمَّ عمل تقدير موقف عام جديد، وُضعت على أساسه الخطة التعرضية، وتقرر وقتها أن الجهد العسكري العربي بحاجة إلى ثلاث سنوات، وإنفاق ما يقرب من ١٣٠ مليون دينار، حتى تصبح الجيوش العربية في وضع لا يكون الإشتباك فيه بالعدو مغامرة، وإنما على أساس حساب عسكري معقول. وأكَرّر ثلاث سنوات، و"١٣٠" مليون دينار، عام ١٩٦٥ كذلك اشترط المؤتمر إنهاء مشكلة اليمن فوراً، وعودة الجيوش المصرية والقطاعات العسكرية المصرية والموجودة في اليمن إلى الجبهة. وكذلك حل مشكلة كردستان، وبالتالي عودة الجيش العراقي من المناطق الكردية في الشمال إلى الوضع المناسب للخطة التعرضية العربية.

تعليمات القيادة الموحدة

وقد اشترط المؤتمر على الحكومة السورية، أن تعيّن ضباطا بدل من معلمين في قيادة القطاعات، والتركيز مرة أخرى على الكفاءة العسكرية في التعيينات المسؤولة في الجيوش والقيادات، واشترط كذلك الاحتماء الكامل بالهدنة؛ وعدم

إثارة أي نقطة تعطي العدو عذراً في شن حرب وقائية، يحتج بها؛ بسبب أي تصرف من تصرفاتنا. وبالتالي، طُلب الاحتماء الكلي بالدبلوماسية الدولية. وبنفس الوقت وزّع القائد العام، في ذلك الحين، تعليمات على كافة الجيوش العربية، بأن تمنع الفدائيين الذين بدأوا العمل في عام ١٩٦٥؛ كما طلب من الحكومات العربية أن تمنع الفدائيين من الإثارة أو العمل أو القيام بأي حركة على خطوط الهدنة. والمقصود بذلك أن لا نعطي العدو عذراً لشن حرب وقائية لأي سبب كان. وقد كان هذا أول مشكل بين الحكم الأردني والعمل الفدائي في عام ١٩٦٥، فالشتائم كلها انهالت على الحكم الأردني، والواقع أنّنا كنا ننفذ أوامر القيادة العربية الموحدة، حيث كنا ننفذ أوامر علي علي عامر، والمرحوم عبد المنعم رياض، والأوامر كانت صحيحة.

السموع والاستنتاج السليم

بعد مؤتمر الدار البيضاء بدأت المزايدات العربية من جديد. وطلع علينا الشقيري يريد أن ينقذ فلسطين في ٢٤ ساعة. والعمل الفدائي أيضا بدأ يتهم الحكومات العربية، تهماً شتى. وقد نتج عن مواقف الشقيري ومواقف العمل الفدائي. خصومات كثيرة داخل القيادة العربية الموحدة. وهذه القصة غير العسكرية طويلة، وأحب أن أمُرَّ عليها فقط لتذكيركم بالفترة تلك.

في هذه الأثناء. كان واضحاً لنا كما هو واضح للعرب كلياً، أن العدو كان يتحين الفرصة ليشن الحرب علينا، حين شنَّ عدوانه على السموع، وكشفت لنا المعلومات فيما بعد أن العدو حشد قواته في ذلك الحين لاحتلال الضفة الغربية كاملة. وبالفعل لقد حشد نفس القوة التي اقتحمت الضفة الغربية فيما بعد في حرب حزيران.

في ذلك الحين، كنا قد استنتجنا أن عملية العدو في السموع هي محاولة

لجرّنا إلى معركة، يتحجج فيها العدو بالعدوان عليه، وبالعدوان الفدائي على منشآته ومعسكراته ليهاجم الضفة الغربية. ولقد حاربنا العرب كلهم مقابل هذا الاستنتاج. وبعد هزيمة حزيران عرفنا نحن أن استنتاجنا الغيبي آنذاك كان بالفعل صحيحاً، وأن العدو كان يريد أن يقتحم الضفة الغربية، عقب الاعتداء على السموع.

قضية السموع أيضاً أذكرها بالتفصيل، فالعرب لم يدرسوها. ولم ندرسها نحن كما يجب. إذ كانت نموذجاً للعمليات العسكرية التي حدثت فيما بعد؛ دروع في أمكنة لا يتوقع فيها استخدام الدروع، وغطاء جوي يمنع الإمداد للنقطة المهاجَمة، وكثافة جوية تمنع التدخل في مسرح العمليات. والحقيقة أننا وقتئذ كنا مشغولين في ردّ التهم على أنفسنا. وما درسنا المعركة دراسة صحيحة. بحيث نستعد بالفعل لما حدث فيما بعد. لم ندرسها الدراسة الكافية، لأنها في واقع الأمر كانت "بروفة"، ولم ندرس معركة السموع دراسة يمكن أن تؤثر على تخطيطنا العسكري في مواجهة أي عدوان مقبل والسبب في هذا كان بسيطاً، حيث صرفنا الوقت في الدفاع عن أنفسنا، وصرفنا الوقت في تهدئة الأحوال الداخلية التي نتجت عن السموع، التي أثّرت علينا بعض الشيء؛ حيث صارت كل قرية تطلب حماية لها، وبالتالي فإن العدو كان يقصد نتيجة ذلك أن ننشر قواتنا في كل مكان، بحيث تكون مشتتة وضعيفة. وأظن أنه نجح جزئيا في هذا القصد الذي قصده من معركة السموع.

وفي الواقع أن العرب، في تشخيصهم لأسباب الهزيمة، ذكروا عشرات الأسباب ذكروا الطيارات، وذكروا ليبرتي، وذكروا الاستخبارات. كما ذكروا عشرات الأسباب الصحيحة والمؤثّر. ولكن الشيء الأساسي المؤثر، هو نظرية القتال "الإسرائيلية". ففي ١٩٦٥/١١/٦، حاولنا في الأردن أن نناقش القيادة العربية الموحدة في نظرية القتال "الإسرائيلية" وفي الطريقة المطلوبة منّا بحيث نكيّف شعبنا لمواجهة القتال "الإسرائيلي" وأذكر أن نتيجة عدة مناقشات جرت مع

القادة في الضفة الغربية، وقادة من الجيش، وقادة من القطاعات الموجودة، هناك، أننا بدأنا نرى هنا في الأردن بصورة جزئية جدا، أن تمركزنا على الأرض، وأن الطريقة الكلاسيكية التي نتّبعها قد لا تكون كافية لمواجهة نظرية القتال "الإسرائيلية" الجديدة المتبعة. ونظرية القتال "الإسرائيلية" هذه كُتِبَت في عشرات الكتب. وكما طُبّقت بالضبط في سنة ١٩٤٨، طبقت بالصورة نفسها سنة ١٩٥٦ وسأورد لكم هنا مقطعاً، يتعلق بنظرية القتال "الإسرائيلية" مستخلصاً من محاضرة لإسحق رابين، علّقتْ عليها عدة جهات عسكرية خبيرة.

الأسلوب والخبرة المطلوبان

قال الميجر جنرال رابين: "**إن الأسلوب الوحيد المفاجىء الجديد بالاتباع، هو المفاجأة التي تربك قيادة العدو، وتضللها حتى نهاية العمليات** (إن هذا الأسلوب الجديد الذي عناه رابين يمكّن من القيام بعمليات حربية حاسمة ضد أراضي العدو مباشرة، ويكون الغرض منها، فرض نتيجة سريعة ونهائية وقاطعة. إذ ان هذا الأسلوب الجديد، يقتضي تأكيداً خاصاً من القوات المدرّعة والمظليين والفدائيين أي المغاوير أو القوات الخاصة) **إن هذا الأسلوب يستدعي اللامركزية في السيطرة والقيادة، بحيث يُدرَّب صغار الضباط على اتخاذ قرارات مستقلة، وإعطاء الأوامر بأعمال حربية على مسؤليتهم الخاصة، دون الرجوع إلى القيادات العليا. وعليهم هم أنفسهم تقرير الوسيلة التي يبلغون فيها هذه الأهداف**". هذه مقاطع من محاضرة الجنرال رابين، وهي بطبيعة الحال تشكل ركائز التفكير المسيطر على هيئة الأركان "الإسرائيلية"، حيث ثبت على هذا الأساس تدريب وتنظيم وتجهيز القوات المسلحة "الإسرائيلية" وعلى كل المستويات، النظرية وشبه النظرية. وبطبيعة الحال يجب أن يكون لدينا خبرة تجاه العدو، دفاعية كانت أم هجومية أم انتقامية، تعتمد على عين هذه الركائز.

إن لدى أجهزة الاستخبارات العربية المختلفة، الكثير من الدلالات الوثيقة عن حجم العدو، وعن تسليحه وتدريبه. والقيادات العربية تحاول بأقصى جهدها، معرفة قوة العدو، كمًّا وكيفاً، للتوصل إلى مركز القوة دفاعياً، ومن ثم تعزيزيا. إلا أن المؤسف أن معظم هيئات الأركان العربية. غارقة في بحر التفكير الكلاسيكي، بحيث تصبح محاولة المداراة والتوصل إلى مركز القوى عملية مستحيلة، حتى ولو تمكّنت القيادات العربية من مضاهاة قوة العدو كمّاً وكيفاً، جندياً بجندي، وقطعة سلاح لقطعة سلاح والسبب في هذا، وحسب رأيي: ان العدو بأسلوبه الجديد، وبإحاكة المؤامرة، سيظل يمتلك زمام المبادرة الاستراتيجية اعتماداً على أسلوبه المرن، وإرادته التعرضية والتي على أساسها يبني تشكيله وتسليحه وتدريب ضباطه وجنوده. والتي على أساسها كذلك بنى خطته الدفاعية والهجومية. بالطبع يمكن، وبالاستناد إلى ذلك، أن أتصوّر خطة العدو الدفاعية، وهي بالتأكيد من دوافع استقراره، لأنها ليست دفاعاً موضوعياً عن الأرض التي يغتصبها الآن. وبالتأكيد لن يعتمد كلياً على خرافات المفهوم الكلاسيكي في الخطوط الداخلية والخارجية. بل سيكون دفاعه مبنياً على سلسلة هجمات، واختلاقات مبتكرة خلاقة، ومخالفة لكل ما ورد في كتب الحرب، وإشارات التدريب. وبحسب تقديري، وأرجو الله أن أكون مخطئاً. سيكون التوفيق حليف العدو إن بقينا غارقين في عمل المدرسة العسكرية الكلاسيكية. وهذا الكلام قلناه سنة ١٩٦٥.

في وسعي الآن أن أسرد عشرات البراهين والأدلة، لكي أثبت أن أساس التفوق الدفاعي - الهجومي، الذي يتمتع به العدو الآن، مردُّ إلى الأسلوب والتشكيل الذي يمثل، بحد ذاته، قوة ردع تحسب القوى العربية المتاخمة "لإسرائيل" حسابها.

نحن نتحدث عن أعباء جبهتنا الطويلة مع العدو، وأرجوا أن لا ننسى، أن العدو كذلك يتحمل أعباء جبهته الطويلة معنا مع مصر وسوريا ولبنان. ولكن من الواضح، إحصائيا، أن الجهد الذي يبذله العدو، في تحمل هذه الأعباء، هو أقل

بكثير من مجموع الجهد الذي تبذله الدول العربية المتاخمة "لإسرائيل". وسبب ذلك هو أننا. في الوقت الحاضر، مدافعون، كما أن المبادرة في يد العدو. وبالمقارنة في موازين القوى بين العرب وبين العدو، يصبح من السهل القول بأن العدو أيضاً في وضع دفاعي، وأن موازين القوى كلاسيكياً ليست بالشكل الذي تسمّى مغامرة العدو الهجومية دولياً وعسكرياً بالمغامرة مأمونة الجانب. خصوصاً عندما نأخذ بعين الاعتبار وضعه على الأرض، ومدى الاتساع الجغرافي عنده وعند العرب، فضلاً عن الاختلافات في الكثافة السكانية للمناطق.

هناك ناحية أخرى جديرة بالبحث؛ هي التساؤل عن الإمكانيات الأردنية خاصة والعربية عامة، من حيث القدرة على الاستمرار مادياً واقتصادياً، في تحمل أعباء الحشد من كافة نواحيه.

نظرية القتال الإسرائيلية

خلاصة البحث، أن نظرية القتال "الإسرائيلية" معتمدة على "قصة السيريت بكوك دوه"، بمعنى أن هذه النظرية تقول ما يلي: إن من يريد أن يدافع عن نفسه ضد جبهة معينة، فعليه، إذا كان فاقداً لعقله أن يمسك مسدساً ويظل منتظراً.. وهذا بالذات ما كنا نفعله قبل حرب ١٩٦٧. "فقليل العقل" من يمسك بمسدسين ويظل قاعداً. وبالطبع، فإن مَنْ هذا شأنه، عليك واجب أطعامه، وخدمته وإلباسه، وكل شيء. وهناك آخرون يخالفون هذا ويقولون، بدل كل هذا، من الأفضل أن يجري تدريب الجندي على سحب مسدسه بسرعة وتركه يقوم بعمله.

نظرية القتال "الإسرائيلية"، تعتمد على الردع. فالردع هو خطهم الدفاعي. بمعنى أننا أذا هاجمناهم بأية طريقة، فسيردعوننا، لأنهم هيأوا أنفسهم أنه في اللحظة التي نهاجمهم بها في منطقة من المناطق، فسيضربوننا في منطقة أخرى.

هذا الفرق ليس له علاقة بكمية الدبابات عندنا وعندهم، ولا بعدد الجنود

عندنا وعندهم. الحقيقة هنا هي الإرادة والعقلية.

عندما يختلف الأمر

لكن، عندما يكون الوضع مفصلاً على طريقة الجبهات العربية قبل حرب ١٩٦٧، حتى عندما تكون جيوشي ودباباتي وحجم قوتي العسكرية بحجم العدو؛ ويكون قصدي دفاعيا وإرادتي دفاعية، فإن هذا، بدون شك، يعطي العدو قدرة على امتلاك المبادرة والتحرك كما يريد، فيما أظل أنا منفعلا. وبطبيعة الحال ليس عندي قوة تغطي كل الحدود، التي أريد حراستها، وبالتالي أضطر للانتشار عليها. وهذا الانتشار يضعفني في كل مكان، ويزداد ضعفي أكثر فأكثر، وأصبح تحت رحمة مبادرة العدو. وهذا بالضبط ما حدث عام ١٩٦٧.

بطبيعة الحال، إن نظرية القتال "الإسرائيلية" تحتاج إلى دراسة، كما تحتاج إلى أن نكيّف أحوالنا على هواها، فنحن "نُدرِّب ونُشكِّل جيوشاً. والواجب، أن نُفصِّل" أوضاعنا بما يتلاءم مع مستلزمات المجابهة مع عدونا الأول الذي هو إسرائيل". والتفصيل يكون في العقل والتدريب، وفي تفكيرنا العسكري، وفي مركزنا، وفي نوع السلاح الذي نستخدمه. ويجب أن نأخذ بعين الاعتبار نظرية القتال "الإسرائيلية"؛ لأن هذه النظرية في الواقع، كانت عنصر النصر الأول الذي امتلكه العدو منذ بدأت المعركة في حزيران ١٩٦٧.

فعندما بدأت المعركة في حزيران، كان عند العدو كفاية في الاستعداد معقولة؛ بمعنى أنها ليست كاملة وليست معجزة كما حاول العرب والمؤرخون العرب أن يدّعوا.. كانت كفاية العدو جيدة كما قلنا. ولا أقدر أن أقول أكثر من ذلك. كانت عندهم دقة كاملة في الاستخبارات. وهذا نصف المعركة. كما كان عندهم نظرية القتال "الإسرائيلية" التي تدربوا عليها، وبنفس الوقت، اختاروا وقتاً دولياً ونفسياً ودعاوياً مناسباً جداً. أما نحن فقد أعطيناهم العذر، وأعطيناهم

الغطاء، والستار الدخاني، الذي أجابونا على أساسه. إن التسلسل الذي قاد المعركة معروف. ففي منتصف أيار عام ١٩٦٧، خطب رئيس وزراء العدو، آنذاك، ليفي أشكوك، بمناسبة احتفالات عيد "الاستقلال" اليهودي، خطاباً كلُّه تهديد ووعيد. وكان مقصوداً فيه الاستثارة. نحن بالطبع كان جوُّنا النفسي في العالم العربي جواً متهيجاً ومثاراً. الخطاب جرى تهديد لسوريا عقب حادث "أظن أنه حادث فدائي"، وبعد ذلك قفزت مصر، وقالت: إنها تقف إلى جانب سوريا، فيما قال الروس: إن هناك حشداً يهودياً كثيفاً أمام الجولان. وبدورنا سألنا السوريين، ولم يكن هناك حشد في الواقع.

ثُمَّ جاء المرحوم عبد الناصر، وطلب من القوات الدولية أن تنسحب من سيناء، وبالفعل انسحبت، وتقدم الجيش المصري وأخذ مواقع جديدة، واحتل شرم الشيخ، وبعدها وُقِّعت معاهدة الدفاع المشترك بين الأردن ومصر، والأردن والعراق، ومصر والعراق. وكنا طوال هذا الوقت نقول ونعلن؛ باننا نريد رميهم في البحر، فهيأنا لهم القوة والفرصة لإقناع العالم الخارجي أنهم محتاجون لحرب وقائية. وفي نفس الوقت كانت دعايتنا المبالغ فيها تخلق عكس المراد في العالم الخارجي، إذ خُيِّل لهذا العالم أن اليهود على حق، ويجب أن يدافعوا عن أنفسهم.

قبل الوعد المقرر

تجدر هنا الإشارة إلى أننا قد دخلنا المعركة قبل الموعد الذي قَدَّره مؤتمر القمة بحوالي سنة ونصف، مع العلم أنه في السنه والنصف التي مرت منذ سنة ١٩٦٥، لم يجر أي شيء إيجابي في الحقيقة. وبالتالي بقي تقدير الموقف من حيث نقصنا الأساسي الذي بُحِثَ عند بحث الخطة في الدار البيضاء، على ما هو؛ بمعنى أن النقص في التجهيزات العسكرية، وفي الأسلحة والأسلحة الجوية،

بقي على حاله. ولم تكن مشكلة اليمن محلولة بعد. وكذلك مشكلة كردستان. وبالتالي فإن العدو جابهنا في حزيران ١٩٦٧، بكفاية واستعداد وباستخبارات متقنة جداً، وبمبادرة جديدة جداً، لنظرية قتال ممتازة بعد أن هّيأ لها في الجو العالمي والخارجي جوّا دعاوياً ممتازاً جداً، بحيث أن أكثر الناس حتى أولئك الذين لم يكونوا متحيّزين "لإسرائيل"، اعتقدوا أن هذه الحرب شيء لا بد منه؛ ما دام العرب قد تجمّعوا لإغراق - اليهود في البحر.. فإذا الحرب الوقائية شيء مشروع، وبالتالي فإن العالم الخارجي، بدون استثناء، شمت فينا.. وانتصر لليهود ولنتيجة المعركة.

الآن ماذا جرى في الخامس من حزيران؟

كما قلت في مطلع حديثي، التسلسل يتعلق بالمعركة في الأردن، أوّلا، إننا نعرف أننا بدأنا الاشتباك مع العدو، بعد ساعة تقريبا من إعطاء الجيش المصري في سيناء أوامر الانكفاء العام والانسحاب. ولزيادة الإيضاح فإننا دخلنا المعركة بعد أن صدرت الأوامر بالانكفاء العام لكافة القوات المصرية الموجودة في سيناء. هذه الحقيقة الكبرى الأولى لم نكن نعرفها في الخامس من حزيران، والحقيقة الثانية كانت معلوماتنا عن المعركة الجوية، كما شاهدناها في غرفة العمليات، تقول بأن كل مطار للعدو، كان يتعرض لغارات عنيفة من طائرات عربية. وهذه أول خطيئة وقعنا فيها، فقد بدأت معركتنا أول ما بدأت جوياً، كان المفروض بحسب خطة التعرض الجوي، أنه في حالة نشوب الحرب يجب أن يغير الطيران السوري والعراقي والأردني معا على أهداف معينة. كان هذا المفروض، أمّا ما جرى، فقد بقينا ننتظر السوريين الذين قالوا "إن طيراننا طالع بالتدريب" ويصعب علينا تجميعه، فتأخروا حوالي الساعة أو ساعة ونصف. والعراقيون لأسباب فنية، قالوا لم نصل، والذي صار أن الطائرات الأردنية، أغارت على مطارات كانت الطائرات "الإسرائيلية" قد اقلعت منها، مع أنه كان التوقيت، حسب خطة

العمليات الجوية، أن نغير نحن على المطارات في الوقت الذي تكون فيه طائرات العدو عائدة لاغراض التزويد. لكن طائراتنا أغارت على مطارات لم نجد فيها شيئاً؛ وضربت معمل المنيوم جانب بيت راكفا. وعلى العموم، فان الغارات العربية الأخرى، لم تقم إلا بما قامت به طائراتنا، ولا أعتقد إنها لاقت أي نجاح فيما يتعلق بواجبها الرئيسي؛ وهومباغتة جزء من طيران العدو وهو يتزوّد بالوقود والذخيرة في المطارات.

هداسا والمكبّر

بعدئذ صارت قضية الهجوم: احتلال هداسا أو احتلال المكبّر؟. وهذه نقطة نوقشت في غرفة العمليات لمدة طويلة، وضباط الركن تشاتموا وتخاصموا حولها، وانتقلت شتائمهم في التليفونات.

جماعتنا، كانوا يقولون إننا مدربون على احتلال هداسا، وعندنا تقدير موقف جيد لها، وبالتالي فإن واجبنا احتلال هداسا لكي نعزز دفاع القدس في العمق.

أما المرحوم عبد المنعم رياض، فقد كان يرى الهجوم على المكبّر. وكانت جماعتنا تقول: إنه حتى لو احتللنا المكبّر، فلن نقدر على الاحتفاظ به؛ لأن هناك دروعاً في الجانب الاخر، وبالفعل احتللناه لمدة ساعة أو ساعتين ثم هاجمتنا دروع العدو وأجلتنا عنه.

البرقية

في حوالي الساعة الواحدة ظهر اليوم نفسه، جاءت برقية من المرحوم الرئيس عبد الناصر، ونصُّ البرقية يقول: إن سلاحنا الجوي دمَّر ٧٥ بالمئة من سلاح العدو. وأرتالنا العسكرية يجري تقدمها داخل "إسرائيل"، باتجاه بئر السبع. وإن الدول الكبرى ستفرض وقف إطلاق نار في ذلك اليوم مساء، وبالتالي فإن المطلوب من

الجيش الأردني، أن يحتل أرضا بأسرع ما يمكن قبل وقف إطلاق النار.

مثل هذه البرقية جاءت من المرحوم عبد الحكيم عامر إلى المرحوم عبد المنعم رياض. وعلى أساسها بدت المناقشة حول أين تكون هذه الأرض؟ قائد الجبهة الغربية وبعض الضباط الموجودين في القيادة، قالوا إنهم يريدون القيام بالعملية "طارق"، وهي العملية التقليدية القديمة للجيش العربي، والتي تعني قطع كل سور القدس كاملا من جهة باب الواد والنبي صموئيل حتى حوسان، بمعنى أن الجيب الذي تشكّله القدس المحتلة يُقطَّع. وكان هناك إصرار كلّي على أن "طارق"، هي العملية الواجب القيام بها لأسباب كثيرة. منها أنها داخلة بفرضيات كل ضباط الأركان، وداخلة في تدريباتنا، وداخلة في استعداداتنا، ونحن منتبهون لها طوال الوقت، وبالتالي كنا نعتقد أننا قادرون على القيام بالعملية "طارق" بدرجة معقولة جداً من النجاح. ولكن المرحوم عبد المنعم رياض رأى أن الأحسن، أن نتقدم من جهات الخليل حتى نلتقي بالجيش المصري الزاحف نحو بئر السبع..

والحقيقة أن تفكيرنا نحن، معروف في الكم والكيف. لقد كان عندنا مجموعة ألوية أمامية. وفي القطاع الشمالي منها اللواء أربعون الذي كان احتياط منطقة جنين ونابلس، وبنفس الوقت جاهز للاندفاع أمام أية محاولة اقتراب يهودي من سهل بيسان نحو أريحا. وكان عندنا اللواء ستون الذي هو احتياط للقدس، أي احتياط رئيسي يتعلق بالقيادة العامة في القدس، ولو قمنا بالعملية طارق، كنا نريد استخدام اللواء ستين لمعونة القوات الموجودة في القدس حتى نقطع كل دور القدس من جنب النبي صموئيل إلى حوسان. ويظل اللواء أربعون بمثابة الاحتياط للقطاع الشمالي، ولمنطقة جنين، واحتياط لأي هجوم من العدو من غور بيسان.

وبعد نقاش طويل وشتائم طويلة، غضب المرحوم عاطف المجالي، فلبس كوفيته وأراد أن يغادر غرفة العمليات، كما تشاتم عبد المعنم رياض مع قائد الجبهة الغربية، وحدثت فوضى من النوع الذي تعرفون.

الاتصال بالمصريين

بعد هذا تقرر القيام بعملية الاتصال بالمصريين في بئر السبع، وبالتالي أُمر اللواء ستون واللواء أربعون بأن يقطعا من جبهة النبي موسى -سعير الرشادية- جهات الظاهرية، ويلتقيا مع القوات - المصرية القادمة من بئر السبع. وطبعا لست أدّعي التقييم؛ إنما القيمة العسكرية لالتقاء جيشين متحركين في منطقة شاسعة مثل بئر السبع، ليس له أهمية حسب اعتقادي، لأن أحداً لا يقدر أن يقطع أحداً أو يقوم بقسمة جيش العدو إلى قسمين. هذا برأيي كان أشد قرار خاطئ، اتُّخذ في المسرح الأردني يوم الخامس من حزيران. هذا الرأي كان مبنياً على أساس أن يتوفر لدينا تفوق جوي؛ لأن برقية عبد الناصر وبرقية عبد الحكيم عامر، وصورة العمليات التي رأيناها في غرفة العمليات، والقتال الجوي في غرفة العمليات، تدلّ وتطمئن على أن القسم الأكبر من طائرات العدو كان قد دُمِّر. وقد تبين أن هذا الكلام لم يكن صحيحاً، كان الصحيح أن الطيران المصري كان منتهيا، وطيران العدو متفوق بالكلية. على أي حال فقد تحرك اللواء أربعون واللواء ستون بعد أن صدرت لهما الأوامر بالتحرك، على فرض أن الغطاء الجوي مُتيسّر وما حدث أن اللواء أربعين واللواء ستين، انقضّت عليهما أعداد من الطائرات لم تكن في حساب أحد بالمرة، بحيث أن الناس الموجودين في القيادة المعتمدين على برقية المرحوم عبد الناصر والمرحوم عبد الحكيم عامر، لمّا قيل إنها طائرات أمريكية وإنجليزية صدّقوا وأنا من الجملة. صدّقنا بدون نقاش لأنه ما دام أن ٧٥ بالمئة من طائرات العدو قد دمرت، فمن أين جاءت الطائرات الجديدة؟

طائرات أميركية وإنجليزية..

وعندما قيل إنَّ هذه يجب أن تكون طائرات أميركية وإنجليزية، صدقنا جميعا بدون مناقشة، لأن أعداد الطائرات التي انصبَّت على ألويتنا المدرعة في الطريق، كانت أعداداً أظنّ أنها بالمئات؛ ثلاثمائة وأكثر، وكان يجري هذا بنفس

الوقت إلى شنَّت فيه الغارات علينا في عمان، وفي المفرق وحتى في الاجِفايف، وفي الحبانية، وفي دمشق، وفي الضمير وفي حماة، وفي كل محل. وعندما أُثيرت قصة أن هناك طائرات أخرى لم تكن في حسابنا، وبالتالي يجب أن تكون أنجليزية، أو أميركية، صدّق أكثرنا طبعا. وفيما بعد عرفنا أن هذا ليس صحيحاً. أما الألوية المدرعة، فقد انكسر ظهرها بصورة نهائية من سلاح جو العدو، الذي تركّز عليها وخصوصا وهي على الطريق، ولو بُلِّغَت أنه ليس هناك غطاء جوي، لربما كانت الخسارة أقل، غير إنها كانت ماشية على الطريق، معتمدة على غطاء جوي، وفوجئت وضُربت ضربة قاسية جداً في الطريق.

وفي هذه الأثناء، اقترب العدو من منطقة جنين، واللواء أربعون الذي ظلّ تحت الضرب من الجفتلك إلى ما يقرب أريحا، وبعد أريحا، اضطر للرجوع كل هذه المسافة، تحت القصف حتى يسدّ الثغرة في جنين.

وخلال هذا وردت البرقية التالية من عبدالناصر، تقول: إن سلاحنا الجوي ضُربَ في الصباح ضربة قاسية جداً، وقواتنا تتراجع والظرف سيىء، ويجب العمل لوقف إطلاق النار، بعد هذا بدأ الانهيار عندنا في القيادة وصارت الاوامر تصدر في الرجوع إلى شرقي النهر، خاصة بعد أن ضُرِبَت القوى المدرّعة على الطريق من قبل سلاح الجو المعادي.

وبعدها بدأت الأوامر والتعليمات والبرقيات الموجودة في غرفة القيادة تصدر وتتناقض: قفْ، وارجعْ توقفْ، وتقدمْ.. وعلى العموم، القيادة انشلّت بالضبط كما أراد اسحق رابين عندما قال: " ان سلسلة عمليات مفاجئة تجعل قيادة العدو في وضعية شلل عام كامل." وهذا ما حدث بالفعل بقيادتنا في عمان.

الأخطاء والخطايا

في رأيي كان أول الأخطاء، توقيت دخولنا المعركة جنبا إلى جنب مع دخول الجيش المصري المعركة. وأنتم تعلمون أنه ليست هناك قلّة نقاد من العسكريين

الذين ينصحون بدخول جيشين في المعركة بنفس التوقيت. أكثر النقاد ينصحون أن تدخل القوة الصغرى في ضوء الصدمة الأولى التي تحدث بين العدو والقوة الكبرى. وعلى القوة الكبرى أن تختار توقيت دخول القوة الصغرى المعركة. ذلك لأن القوة الكبرى بالحجم الذي تقرره للاصطدام مع العدو، تستطيع معرفة نوايا العدو وخططه وكيف يتحرك، وماذا يقصد، وماذا سيعمل في ضوء المعرفة الناتجة، وهكذا تصنع القوة الكبرى توقيت معركتنا مع العدو.

هذه النقطة نوقشت في القيادة. ولم أكن حاضرا لهذا النقاش. ولكني علمت به فيما بعد، وكان هناك تلميح حول هذه المناقشة، وتغليب فكرة دخول الجيشين في المعركة في آن واحد، والضباط الأركان يعلمون أن هناك مدرسة أخرى. ولكن مدرسة الأقلية تقول أن لا مانع من دخول القوة الصغرى، المعركة مع العدو، أولاً، بحيث يتم الاختبار في القوى الصغرى. وفي ضوء الصدمة الأولى بين العدو والقوة الصغرى، يجري توقيت دخول القوة الكبرى لساحة المعركة.

أما أنصار المدرسة الأولى فلا يقبلون بهذه النظرية. إلا إذا كان لابد من التجربة والمغامرة، وعلى القوة الصغرى أن تظل خارج المعركة، وفي حالة تأهب. ويجب على القوة الكبرى لأنها أقدر على أن تتحمل الصدمة، وأقدر على الاختبار في التجربة أن تبدأ هي الاشتباك وفي هذه الحالة، يتم اختيار المكان والوقت المناسبين لدخول القوة الصغرى، المعركة للإخلال بتوازن العدو.

الخطيئة الأولى التي وقعت، أننا وصلنا إلى المعركة معا في نفس اللحظة. وبطبيعة الحال، عرفنا فيما بعد أننا دخلنا المعركة بعد أن صدر الأمر العسكري للقوات المصرية في سيناء بالانكفاء والتراجع. والمعلومات الصحيحة والدقيقة لم تكن متيسرة. وبالتالي فإن خطيئتنا الأولى أننا خالفنا نظرية عسكرية مضمونة في توقيت دخول قوّتين للمعركة. أما الخطيئة الثانية، فهي خطيئة التمركز عندنا. وهذه خطيئة على ما يبدو لي، نتكلم عنها ونقع فيها. وحجّتنا طبعا أنه لا يوجد غطاء جوي، فقمنا بترتيب آخر، حيث تمركزنا آنذاك. وكان تمركزاً ضعيفاً في كل مكان.

الوحدات التي كانت في منطقة جنين، وبصورة خاصة الوحدات الأمامية، شُكِّلت من الحرس الوطني. ولم تكن في مستوى عال للمجابهة. وتركنا هذه الوحدات قريبة من قراها، وبالتالي انفرطت لدى أول صدمة. وهذه خطيئة لأنه مهما بلغت انضباطية الجندي، فعندما يكون هذا الجندي قريبا من قريته، ويراها تتعرض لنيران العدو، فمن غير المعقول أن لا يترك موقعه ليرى ما حل بأهله. فأحد أخطاء، القيادة من هذه الناحية، أنها تركت الحرس الوطني في منطقة جنين، بين قراه وبين أهله. وعندما بدأت الرماية على تلك القرى، انفرط عقدهم مما لا شك فيه أنه حدث إخلال بالانضباط العسكري، ولكن واجب القيادة ان لا تُعرِّض الجندي إلى مثل هذه الضغوط، فقلَّة هم الذين يصبرون وهم يرون بيوتهم وقراهم وأولادهم يتعرضون للرماية المعادية.

هذه خطيئة قيادة بالدرجة الأولى، لذلك عندما صدمنا العدو في منطقة جنين لم تبق إلا وحدات دروع صغيرة تتحمل وحدها ضغط القتال. بعد أن انفرط عقد لواء الحرس الوطني بقيادة عواد الخالدي. والحق ليس على اللواء بالدرجة الأولى، وإنما الحق على القيادة التي لم تنتبه إلى ضرورة تحريك هذا اللواء من منطقة جنين إلى منطقة أخرى، حتى لا يتعرض الجنود إلى ضغوط إنسانية لا قبل لأحد بها تفرض عليهم التخلي عن انضباطيتهم.

الخطيئة الهامة الثانية، مصدرها الارتباط عادة بين جبهتين، مثل الجبهة المصرية والجبهة الأردنية. فلقد كان من الواجب أن يكون عندنا ارتباط للقيادة المصرية وارتباط للقيادة الأردنية هناك. والمقصود بهذه العملية أن يتمكن ضباط الارتباط من إعطاء صورة دقيقة أخرى، موازنة للصورة التي تعطيها القيادة. ولو كان هذا الشيء موجوداً، لما حصل ماحصل، من تحريك ألوية الدروع في اتجاهاتها المعروفة. ودون غطاء جوي بالاعتماد على معلومات مغلوطة. ولكنا عرفنا أن الأوامر صدرت للجيش المصري بالانسحاب من سيناء، قبل ساعة من دخولنا الحرب.

لقد انتهى سلاح الجو المصري، وانتهى الجيش المصري، وانسحب، ونحن هنا لا نعلم شيئا، بسبب عدم وجود ضباط ارتباط بين القيادتين؛ حتى أننا كنا نخطط للمعركة على أساس أن لدينا تفوقاً جوياً، وأن المصريين يتقدمون داخل الأراضي المحتلة نحو بئر السبع. إن معلوماتنا في القيادة كانت تصل بجهاز اللاسلكي، الموجود في الرادار مباشرة إلى القائد العام، في ذلك الحين، عبد المنعم رياض، وهكذا كانت القيادة غائبة كلياً عن الصورة الحقيقية.

قضية أخرى، خطيئة قصة الاحتياطي، حيث لم ندعُ الاحتياطي سابقاً ولا في أية مناسبة، باستثناء مرّة واحدة فقط عام ١٩٥٦، ولم يُدعَ بعدها. وعندما دُعي قبل بدء حرب حزيران، والعدد كان حوالي ١٥ الفاً. حضر عند الدعوة ٣٠٠ من ١٥ ألفاً. في نابلس كان المطلوب حضور ٣٥٠٠ من الاحتياطي، لم يُلبِّ دعوة الاحتياط سوى ٩٠ شخصا. وهكذا لم تتوفر الكثافة في توزعنا على الأرض، وانتشر ذعر كلّي أصاب القيادة، وأصاب الوحدات، وأصاب الجنود وبالتالي وقعت الهزيمة.

ان الهزيمة، بحدّ ذاتها، شيء بسيط فالجيوش تنتصر وتنهزم، وأقول الحقيقة من نوع الحب والتعصب لجيشنا. بأني تألمت على الطريقة التي اندحر بها جيشنا بقدر ألمي على ضياع القدس.

إن ضباطنا وجنودنا لا يستحقون الاندحار بهذا الشكل أبداً. لا أقول أن يحققوا النصر في تلك المعركة. وإنما الاندحار الذي حصل في ٥ حزيران لا نستحقه. وصحيح أننا لم نك لنحقق النصر بسبب حجمنا، وإمكانياتنا، وانهيار الجبهات العربية الأخرى، فالجبهة السورية لم تتحرك أبداً ولم نقل عنها شيئاً والجبهة المصرية انتهت قبل أن ندخل الحرب. فالأمل في النصر كان ضعيفا، لكن الطريقة التي اندحر بها جيشنا لا يستحقها. القياس في هذه الحالة يكون على الاندحار، القياس في فترات القتال أو جيوب القتال التي وقعت عندنا، وهذا هو مستوى الجيش؛ الجيش يقاس بأحسن ما عنده. وأعني أن جيشنا من نوع

الجيش الذي قاتل في القدس، وفي كل مكان أتيحت له الفرصة فيه، لكن سوء القيادة وسوء الإدارة والكذب في المعلومات والتشويش والفوضى، هي التي تسبّبت في هذا الانحدار الذي لا يستحقه جيشنا أبداً.

والحقيقة أن جيشاً يقاتل، مثل قتال ألوية المدرعات في معارك جنين، ومثل معركة القدس، ومثل غيرها من جيوب البطولة، لهو جيش لا يستحق هذا الانحدار. هذا مستوانا، وعليه يجب أن نقيس بطولة جيشنا. أما الأسباب التي أدت إلى انحداره، فتعود إلى الضلال الذي كانت فيه القيادة، وإلى انهيار الأعصاب وإلى الترتيبات المتخذة استنادا إلى المعلومات الكاذبة.

ومن جملة الأخطاء، أننا قدمنا للمعركة عقلية قيادية وقيادات كلاسيكية في تفكير كلاسيكي عتيق، وقدّمنا جيشاً جيدا، حتى يصطدم بتفكير مدرسة حديثة هي مدرسة القتال "الإسرائيلية". فالحرب أولاً وأخيراً، هي قتال إرادات. المعركة كانت بين إرادة اسحق رابين وإرادة عبد الحكيم عامر، بغض النظر كم دبابة مع عبد الحكيم وكم دبابة مع رابين. الدبابات والجنود والوحدات لا تختلف عن بعضها. ربما كنا نملك الأحسن والأفضل، لكن إرادة القتال هي العامل الحاسم في المعركة؛ فإرادة مدرسة القتال "الإسرائيلية" المتمثلة في اسحق رابين، كانت أقوى ومؤهلة للنصر أكثر من إرادة القتال العربية، المتمثلة في عبدالحكيم عامر وعبد المنعم رياض.

ولا أعتقد أن الوقت قد حان لكتابة القصة الكاملة لهزيمة العرب في حزيران؛ لأن فيها ضرراً نفسياً وسياسياً. ولكنه مناسب لمعرفتها بدقة وتفصيل لا عن قصد إلقاء اللوم على هذه الجهة أو تلك، بل بقصد العبرة والدروس والاقتباس، وهذه مهمة التاريخ العسكري. فهزيمتنا أصبحت جزءاً من التاريخ العسكري، وعلينا أن نستفيد من دروسها حتى تتحول هذه الاستفادة إلى نصر بعون الله.

القسم الثالث

رؤية في المجابهة

الفصـل ٦

الحل السلمي مع إسرائيل تكريس للاحتلال

المجتمع المحارب ضرورة قومية لمحو الهزيمة:

يعيش * الوطن العربي في الوقت الحاضر، أخطر مرحلة في تاريخه الحديث.. وهي تلك التي تسمى "مرحلة ما بعد الهزيمة" والتحفز للنصر".

ومع الظلال التي تبدو في الأفق في مثل هذه الظروف، وومضات الأمل، بل الاصرار على العمل، من أجل تبديد الظلام، تتشابك في الأذهان مواضيع شتى... كل منها يلقي ضوءاً على طريق الخلاص..

لكن الأضواء المتفرقة تبقى باهتة ما لم تجمعها عدسة خبيرة، وتحولها إلى نور ساطع يحد معالم طريق النضال بكل خطواته وتفصيله. لذا كان من الأهمية بمكان، عرض "موضوعات المرحلة الحاسمة" على رجل يؤمن بالتخطيط لا العاطفة. ويضع الفكر الهادف الواعي فوق الاعتبارات الدعائية السطحية.. وتحقيقا لهذا الهدف تم اللقاء مع دولة الرئيس الأسبق وصفي التل.

هناك، في دارته بصويلح، امتد الحديث لأكثر من ساعتين

الطريق للوحدة الوطنية

- من أهداف الأردن وأمتنا العربية تحقيق الوحدة بين أقطارها.. ترى كيف ترى دولتكم الطريق لتجسيد هذا الهدف؟

---

*مقابلة صحفية أجراها السيد ممدوح حوامدة، ونشرت في مجلة اخبار الأسبوع الأردنية العدد ٤١١، ١٩٦٨/٩/٢٧، السنة العاشرة.

■ أعتقد أنه بحسن العمل والتفكير والتخطيط تتحول هزيمة الخامس من حزيران إلى مفتاح حاد صارم، من شأنه تعميق القناعة الكاملة في أنفسنا بضرورة وحدة الجهد العربي.

وفي رأيي أنه لا ضرورة للعودة من جديد إلى قناعات المزايدات السياسية والعاطفية والكلامية، أو إلى الاقتراحات الكثيرة حول طرق الوحدة وأساليبها ومقوماتها وخطواتها، وإلى آخر هذا الكلام.

وأعتقد أن خطة جدية عاجلة لمواجهة العدو المغتصب، يتعاون بها العرب كلهم، كلٌ حسب إمكاناته، هذه الخطة هي بنفسها ستصهر كافة العوائق في طريق وحدة الجهد العربي.

- وتعتقدون.. أن هذا هو الطريق لمحو الهزيمة؟

■ أعتقد أن طريق الخطة الفورية لمواجهة العدو، هو السبيل الوحيد لمحو الهزيمة، وإزالة آثار العدوان.

- وواجب الدولة والمواطن لتحقيق النصر في الجولة القادمة؟

■ خطة المواجهة الفورية للعدو يجب أن تكون بحيث يحمل كل مواطن عبئاً فيها. ومن مزايا مثل هذه الخطة، أن يكون هدف كل نبضة جهد في الأمة بشقيها الرسمي والشعبي، موجها لإنجاح هذه الخطة، في شتى مجالاتها. وبالتالي لا تكون المواطنة أو وحدة الهدف مجرد كلام خطابي، بل تغدو عبئاً يتحمله كل إنسان في خطة كاملة وافية، تقود نحو هدف واحد، وهو إزالة آثار العدوان الصهيوني.

إعادة النظر

- إذن دولتكم توافق على الرأي القائل بضرورة إعادة النظر في الأساليب والمقاييس التي واكبت التجربة التي سبقت النكسة؟

■ بطبيعة الحال، إذا نجح تشخيص الأسباب التي أفضت إلى هزيمة حزيران، وتشخيص الأخطاء السياسية والعسكرية التي أدت إلى الهزيمة، وتحديد كافة العوامل والمؤثرات التي ساهمت في صنع الأخطاء السياسية والعسكرية.. أقول

إنه إذا نجح التشخيص بصدق وشرف وشجاعة، فإن كافة الأخطاء والمواقف غير السليمة سوف تظهر أمام أعيننا، الأمر الذي يحُتّم إزالتها فوراً حتى لا تتكرر الهزيمة

ومن جهة أخرى، فإنه عندما تُوضَع خطة كفاح متكاملة، يغدو من السهل تقييم كل موقف، وكل جهد، وكل إنسان بمقدار فائدته لتلك الخطة. وعلى هذا ترتفع الخطة من مجرد منهاج عمل، إلى مقياس يُقيَّم بواسطته الأشخاص والمواقف والأعمال.

المجتمع المحارب

- استناداً إلى الأسس التي ذكرتها دولتكم، كيف يمكن إعداد المجتمع المحارب؟

■ اولاً: توضع خطة الكفاح، وتفسر كافة متطلباتها المعنوية والمادية، وتُوضَّح كافة خطواتها الدبلوماسية والنضالية، والإدارية والمادية. والمجتمع المحارب هو مجتمع قتال وإنتاج في آن واحد، بقصد دعم النضال وضمان استمراريته حتى النصر. وعلى هذا تُوزَّع أعباء القتال والإنتاج والشؤون الإدارية على كافة المواطنين وبمقتضى هذا الترتيب، يعرف كل مواطن الدور الواجب عليه القيام به، في نطاق الخطة. وعندما يتم ذلك يتحول المجتمع إلى مجتمع حرب. لأنه، من خلال هذا التوزيع، تزول كافة الجهود التي لا تخدم القتال أو الإنتاج، أو لا تخدم الشؤون الإدارية المتعلقة بالقتال والإنتاج.

إمكانية التنفيذ

- ومدى إمكانية تنفيذ تلك في تقديركم؟

■ التنفيذ ممكن طبعاً، ليس هناك مواطن عربي لا يعتقد بقناعة عميقة أن العدوان "الإسرائيلي" أمرٌ يجب إزالته بسرعة. وكل مواطن عربي على استعداد لبذل كل ما يستطيع في سبيل هذه الغاية.

التنظيم

- المطلوب إذن؟

■ التنظيم من أجل الخطة. وهي القوة القادرة على تجسيد الجهود والعواطف إلى عمل في دنيا الواقع.

نقد ذاتي

- لو طلِب إليكم نقد أنفسكم من خلال المرحلة الماضية، ونتائجها ماذا تقولون؟

■ لم أكن شرساً بما فيه الكفاية في نقد أو منع الأخطاء التي كنت أصرّح بها وأشير إليها، والتي قاومتها بكل ما استطعت، وكنت أتّهم مع ذلك بالشراسة والعناد. ونقدي الوحيد لنفسي هو أن تلك الشراسة وذاك العناد، لم يكونا بالقدر الكافي.

القتال سنة ١٩٤٨

- يتذكر الكثيرون أنكم حاولتم، عام ٤٨، مواصلة قتال "الإسرائيليين" مع القوات التابعة لكم في جيش الإنقاذ.. ما الذي حال دون ذلك.. وما تفسيركم في هذا الصدد؟

■ كانت هناك مدرسة رسمية تقول: إن الهدنة خير وأبقى، حتى يُستغل وقف القتال للاستعداد وحشد الجهد، في جولة أخرى بفلسطين. وكانت هذه المدرسة هي الطاغية، وبالتالي منعت كل الذين رغبوا في مواصلة القتال، وأنا منهم من تحقيق ما يريدون.

والذين رغبوا في مواصلة القتال كانوا يهدفون إلى الاستمرار في حمل السلاح ضد، إسرائيل، وكان نصيبي وبعض رفاقي السجن..

الطريق الصحيح

- والآن.. ما هو تقديركم للموقف آنذاك لو بقي القتال مستمراً؟

■ الأرجح أن الطريق الصحيح آنذاك كان يتمثل في الاستمرار بمواصلة القتال وانهاك العدو، بصورة أو بأخرى.

الحل السلمي والعسكري

- والسؤال الذي يشغل الأذهان.. المفاضلة بين الحل السلمي والحل العسكري للأزمة، أو بعبارة أخرى، أي الطريقين دون سواه هو الموصل إلى إزالة آثار الهزيمة؟

■ ليس هناك حل سلمي..

والسبب؟

■ لأن الحل السلمي مضيعة للوقت، وتكريس للاحتلال والاغتصاب. وتجارب العرب عام ٤٨، ٤٩، وبعد ذلك، أثبتت لهم أن الجري وراء الأمم المتحدة وغيرها من الأجهزة والأساليب هو جري وراء السراب.

- قبل نهاية اللقاء، أحب أن أسأل دولتكم عن مدى صلاحية المرأة الأردنية للاضطلاع بدور فعّال في هذه المرحلة.

■ الحقيقة أن المرأة الأردنية يجب أن تكرس طاقاتها لغايات الخطة التي تحدثت عنها، على نفس المستوى الذي يجب أن يُجنِّد له الرجل الأردني. طبعاً فلكل مواطن ومواطنة دور في معركة المصير.

- هذا الحديث يدور ودولتكم خارج موقع السلطة، تُرى ماذا يكون مصير هذا الكلام إذا أصبحتم في موقع السلطة؟

■ لم أعتد أن أقول رأيا أو خطة إلا بذلت غاية جهدي في عملها وتنفيذها.. سواء أكنت في السلطة أن خارجها.

الفصل ٧

النضال والذاكرة السياسية

حديثي* هذا تلخيص لجزء من بحث طويل عنوانه "دور الخلق والعقل في معركة التحرير".

لقد أُتيحت لي، قبل مدة، وبفضل من النادي العربي في إربد، فرصة حديث سريع مختصر تناول بعض نقاط هذا البحث. وتتاح لي اليوم، وبفضل مشكور من نادي الأردن، فرصة التوسع بعض الشيء في ناحية مهمة من هذا البحث، وهي "دور الذاكرة في المعركة".

حتى لا يكون هذا الحديث مطلقا على عواهنه، وحتى تتحدد أبعاد هذا الحديث، وحتى لا يغمط هذا الحديث أهميات نقاط أساسية أخرى، وحتى يتوضح عنوان هذا الحديث؛ لا بد أن أبدأ حديثي بتوضيحات ثلاثة:

الاول: ليس هناك نضال عربي خارج معركة التحرير. وبعبارة أوضح، ليس هناك نضال عربي خارج معركة فلسطين، أي أن كل نبضة نضال أو نبضة كفاح أو نبضة جهد، فوق كل شبر من الأرض العربية، يجب أن تكون نابعة من متطلبات وحدود والتزامات هذه المعركة -معركة فلسطين- بالذات، ومستواها الفوري الذي يستلزم الصدام الفوري مع العدو، بدون تسويفات الاجتهادات التسويفية الكثيرة المعروفة.

الثاني: هذا التحديد الصارم للنضال والكفاح والجهد، من حيث التركيز

---

*محاضرة ألقيت في نادي الأردن بعمان في ٦ تشرين الاول ١٩٦٩.

والتوجيه إلى معركة واحدة بالذات، تفرضه -حسب قناعتي- مصيريّة المعركة وأنّها البدء والنهاية، وأن النصر بها سيحمل معه بالضرورة النصر على أيّة مشكلة أخرى، اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، تشكّل هذه المعركة بالذات معايير الخطأ والصواب، ومقاييس الأولويات النضالية لكل نضال عربي. وعلى أي مستوى وفي كل ميدان، تقرر المعركة ومتطلباتها، كل ما يجوز وما لا يجوز. هي تقرر التقييم القاطع الحاسم للخطوات وللتحركات وللأشخاص، ولما حدث وما يحدث وما سيحدث. ما يصلح للمعركة فهو صالح وما لا يصلح فهو غير صالح، وكل ما عدا ذلك هو ترّهات أو انحرافات أو كماليات هامشية، كائناً ما كان مضمونها أو مصدرها.

الثالث: لا أقصد بالذاكرة الجهد الببغائي الذي يسجل الأحداث والخطوات لغايات التسجيل، بل أقصد بالذاكرة الجهد الواعي الذي يسجل الأخطاء، والحسنات، ومواضع الخطأ والصواب، حتى يُستَغل هذا التسجيل لغايات المعركة، ويتفاعل مع الجهد لها، وليكّون التسجيل، معالم التخطيط العقلي للمعركة، التخطيط الذي تعيه الذاكرة من الأخطاء الماضية، وتنبه فيه على مواقع الخطأ والصواب. المقصود بالذاكرة إذاً، ليست الذاكرة بمعناها الأكاديمي النظري، بل الذاكرة التي تخدم النضال؛ تخطيطاً وتنفيذاً، أي التي تخدم معركة التحرير.

ليس جديداً القول أن أهم أسباب هزائمنا المتوالية في معركة فلسطين، غياب العقل العربي عن المعركة، وتقاعس العقل العربي عن ممارسة واجبه تجاه المعركة، سواء في التخطيط لها أو في تنفيذها. والمقصود بالمعركة؛ بالمعركة بشقيها السياسي والعسكري اللذين هما امتداد لكفاح واحد، تختلف فيه الوسائل لغرض الوصول لهدف واحد هو التحرير المطلق الناجز.

سأسرد عليكم فيما يلي نماذج قديمة وحديثة عن أوجه هذا الغياب أو التقاعس العقلي، أو هذا القصور العقلي، أو على الأصح، هذا الجبن العقلي:

أولاً: حتى الآن لم يجمع العقل العربي على تشخيص واقعي علمي لأسباب انتصاراتنا أو هزائمنا السياسية والعسكرية منذ مطلع هذا القرن حتى اليوم، فالمحاولات القليلة الصافية التي جرت في باب التشخيص حتى الآن كانت عبارة عن خواطر وومضات وعواطف لا يمكن أن تبلور حقائق ترتكز عليها الذاكرة، أو ترتكز عليها أية محاكمة عقلية بعملية عقلية تحاول أن تضع هذا التشخيص على الأرض أو على الطبيعة.

ثانياً: طفت على محاولات التشخيص القليلة الصافية والقاصرة -بكل أسف- محاولات، صارخة، مثيرة لوناً وصوتاً، طغى فيها التهريج على الصدق، والإثارة على العقل. هذه المحاولات خدمت أغراضاً انتهازية آنية قصيرة النفس. كان جلُّ محتواها ادعاء أمجاد زائفة، أو توجيه اتهام زائف، أو خوف من الاعتراف بالخطأ، أو بسبب التزام ضيق، أو نتيجة مسايرة أو تملق للحكام أو لعواطف الناس. بطبيعة الحال، لم تساعد هذه المحاولات على بلورة أية دروس أو قواعد تشكّل مرتكزات عقلية ثابتة تعتمدها الذاكرة عند التخطيط والتنفيذ.

ثالثاً: لعل أوضح ما يمثل القصور العقلي محاولات ما سُمِّيَ بالنقد الذاتي، عقب هزيمة حزيران، والذي كان الخط الطاغي عليه الاعتراف بذنوب ثانوية لا تؤثر، وحتى لم تُرتكب، لإخفاء ذنوب خطيرة ارتُكِبت فعلاً. إنَّ النقد الذاتي كما جرى كان من المحاولات الضبابية. وعلى أي حال فقد كانت محاولات ناقضت بعضها بعضا، وخلطت الحابل بالنابل، وعجزت عن وضع النقاط على الحروف، وبالتالي كانت مستخلصاتها العقلية لغايات الذاكرة السياسية محدودة ومشوشة.

إن ما سبق وبيّنته في النقاط الثلاث الآنفة، يشمل باب العظة بالنفس، والدروس المستخلصة من التجربة الذاتية والشقي من وُعِظ بنفسه، والسعيد من وُعِظ

بغيره. وباب العظة بالغير هي الدروس المستخلصة من التاريخ النضالي، ومعارك السياسة والحرب لكل أمة وفي كل دروس التاريخ ومرتكزاته بالقدر وبالشكل الصحيحين، معظم ما أُخِذَ من دروس وعبر عن التجارب النضالية، إما اقتبس مزاجياً، وحسب الأهواء، أو اقتبس سطحياً بدون تعمق، أو اقتُبس كشعار مثير غير ملائم للتطبيق وللتبعات، أو رُفِضَت التجربة من قفا اليد باستعلاء الجاهل الذي يعتقد أنه محيط بكل شيء.

المهم في هذا أنه، رغم التشويش في عمليات التشخيص، رغم ضبابيات النقد الذاتي، ورغم الاستفادة المزاجية من تجارب الغير ودروس التاريخ، رغم هذا كله تمخضت هذه العمليات عن مجموعة مرتكزات حقيقية، أو نقاط دروس وعِبَر يجب أن لا تنسى ويجب أن تعيها الذاكرة باستمرار.

لا يتسع المجال في هذا الحديث إلى ذكر كل هذه النقاط، لكني سأذكر بعضها لأُبينّ كيف عاملها العقل العربي، أو كيف عاملتها الذاكرة العربية:

أولاً: بعد تجزئة سايكس – بيكو، ووعد بلفور، وإعلان صكوك الانتداب البريطاني والفرنسي، بدأ العقل العربي عملية نواح متواصلة على الغدر ونكث العهود. واستمرت عملية النواح هذه مدة تزيد على ربع قرن، وما زالت لها ذيول حتى اليوم، وعذر العقل العربي في النواح آنذاك، أن التماس الدولي على النهضة العربية جرى بعد عهود تخَلّف وظلام طويلة، ولم يكن من السهل اكتشاف أحابيل الدول الكبرى ومصالحها الامبراطورية. ولهذا السبب خُدِعَ العرب بما أعلنه الحلفاء عن مبادئ ولسن وحق تقرير المصير.

المهم أن العرب، رغم ذهولهم، اكتشفوا أن المبادئ المعلنة من الدول الكبرى شيء، وأن ثباتها ومصالحها شيء آخر، وأن الوعود والمبادئ السامية الرنانة، ما هي سوى ستائر تخفي وراءها المصالح الامبراطورية والاستعمارية. واكتشف العرب كذلك من الاستعمار مبدأ "فرِّقْ تَسُدْ"، وإصراره على التجزئة مهما كلَّف الأمر، بكل وسيلة. مع ذلك نسيت الذاكرة العربية أو تناست كل هذه الدروس.

وأورد فيما يلي خطا بيانياً سريعاً لذاكرة السياسات العربية تجاه دروس التعامل مع الدول الكبرى، وإصرار الدول الكبرى على "فرّق تَسُد".

ففي العشرينات كانت هناك ثقة في ديمقراطية وعدل أميركا ونصرتها للحرية وحق تقرير المصير!

وفي الثلاثينات كان هناك ما يشبه الإيمان برغبة المحور في تحرير العالم العربي من الاستعمار والاستعباد البريطاني - الفرنسي - اليهودي.

وفي الأربعينات كان هناك إيمان بمبادئ الحلفاء، وحقوق الإنسان وتقرير المصير وشرعة الأمم ومبادئ العالم الحر!

في الخمسينات والستينات، إيمان بالقوى والدول المحبة للسلام والعدل، نصيرة الشعوب المناضلة من أجل الحرية والمساواة!

وخلال هذه المدة كلها، تقديسٌ رسمي عربي لحدود اتفاقية سايكس - بيكو، وإصرار عليها وعلى التجزئة وتشكيل محاور على أساسها. وحتى تمَّ اتهام بعض خطط وأفكار ومحاولات التوحيد بأنها استعمارية، صهيونية وهدامة.

ثانيا: بعد هزيمة ٤٨، أغرق العرب أنفسهم في سببيات لو ولولا، وإلقاء اللوم على هذا وذاك. وبعد الذهول اكتشف العرب بعض الحقائق عن أسباب الهزيمة.

فأول هذه الأسباب التجزئة السياسية والعسكرية التي بدأتها سايكس - بيكو وأصرَّت عليها الاستقلالات العربية.

وثاني هذه الأسباب أن "إسرائيل" رأس جسر عزيز على كل الطامعين في العالم العربي، وكل الدول الكبرى الطامعة في النفط والأسواق ونشر النفوذ والقواعد السياسية والعسكرية. هذه كلها، ضمناً وفعلا، حامية "لإسرائيل"، مُصِرَّة على أنها وجدت لتبقى. تهدد العرب، وتلهيهم عن مطامع الدول الكبرى.

وثالث هذه الأسباب أن التخطيط والاستعداد والصدام يجب أن يخضع لحساب علمي، ودقة علمية، ولحشد شامل، كما فعل العدو في معركة ١٩٤٨.

الذاكرة السياسية العربية تناست، على العموم، هذه الأسباب. وهذه الأسباب هي عينها أسباب هزيمة الـ ١٩٥٦، وهي عينها أسباب هزيمة ١٩٦٧.

سأتوقف قليلاً عند هزيمة حزيران؛ لأسباب لها حجم الهزيمة، والصدمة العنيفة التي أحدثتها في العقل العربي وفي النفس العربية. لقد قيل قبل الكثير من الدروس المستفادة من هزيمة حزيران فهي:

- أكدت من جديد صفة الصهيونية وخطر السرطان الصهيوني التوسعي، وأن إسرائيل قاعدة ورأس جسر لكل طامع ومُستغل ومستعمر، أي أنها أداة وقاعدة لكل عدو للعرب.

- أكدت ضرورة الصدام الشامل الفوري حتى لا يتمكن هذا السرطان من هذا الجزء العزيز من الأرض العربية، وحتى لا يقوى على التوسع والانتشار.

- أكدت ضرورة تقدير الموقف تقديراً عقلياً يعتمد على الحساب لا على العاطفة، وعلى العلمانية لا على الخيال والتوهم.

- أكدت وجوب الحذر من الجرى وراء السراب، ووراء رغبات الخيال.

- أكدت ضرورة الصدق والاتزان، وعدم المبالغة وعدم التهرب من مواجهة الحقائق.

- أكدت ضرورة الحريات الفكرية والسياسية وحرية النقد.

- أكدت ضرورات الحد من طغيان الحكم وطغيان الأصنام وطغيان العواطف والشعارات، وفتح صفحة جديدة تسود فيها الحركة العقلانية والحساب.

- وأكدت مع هذا، آلاف النصائح التي تناولت أصول الأخلاق، وأصول الوطنية والسياسة والعسكرية والصحافة والاقتصاد والاجتماع والحشد والتقشف، وكل ناحية بشرية تخطر على بال الكثرة اللجبة من الوعاظ والكتاب والباحثين والناصحين وراسمي الخطط والقواعد.

وليس من غايات هذا الحديث، تقييم كل هذه النقاط ولا ترتيب أولوياتها؛ بل الغاية السؤال بعد عامين وأربعة أشهر من هزيمة حزيران، وهو هل تعي الذاكرة العربية كل الركائز والنصائح؟

كما هو واضح، وبعد عامين وأربعة أشهر، ما زال الجزء الأكبر من المجهود العربي العام يتصرف وكأنَّ ذاكرته قد نسيت الهزيمة. وجزء أكبر يتصرف وكأنه نسي الأسباب التي سببت الهزائم المتوالية، وهزيمة حزيران بشكل خاص. الذاكرة العربية، عملياً، نسيت أو تناست النصائح والمواعظ والبرهان على هذا كله، أنه ليس هناك أي مجهود جماعي ملموس لإزالة أسباب الهزيمة. وكذلك عدنا من جديد نحافظ بحرارة وشوق عى كافة نقاط التصرف والسلوك التي قلنا وعرفنا أنها جرّتنا للهزيمة، ولا يعّزيني عن هذه الصورة القاتمة سوى النور الذي يشع عن الفئة الماجدة التي تحمل السلاح، وعن الفئة الواعية التي ما زالت تتذكر كل الدروس.

من الواضح لي أن الحكم العام على الدنيا العربية، يبّين أن فقدان الذاكرة قد عاد من جديد. ما زالت دنيانا العربية، وحتى المواجهة للعدو، وبدون خطة قومية شاملة لصدام الخطر، ما زالت بأكثريتها تنتظر أو تأمل أن يُصبح الصدام فرض كفاية تتولاه هذه الفئة أو تلك، وتبقى الأكثرية في عداد المعجبين والمصفقين والداعين بالنصر والمتفلسفين.

فقدان الذاكرة، هنا يتأجج عن بعض أسبابه باختلاف الاجتهادات وتباين المعاناة واختلاف الرؤية. وفي قناعتي أنه، بعد ما يقرب من قرن من ممارسات الخطأ والصواب، ومن التعامل أو الصدام السياسي والعسكري، وبعد ثلاثة هزائم متوالية في فلسطين بالذات، وبعد وضوح أهداف الصهيونية وأبعاد خطرها، إلى حد أصبح التحدث عنها تكراراً مملا لبديهيات.. في رأيي أن العبر والدروس والتجارب فيما مضى من صدام، مع كل حقائق الوضع، تُمكّننا، مجتمعين، من أعادة هذه الممارسات إلى عناصرها وركائزها الأصلية والخروج

من كل ذلك بقواعد معرفة أساسية تصبح كالأرقام في معطيات مسألة رياضية، لا بد أن تصل إلى نفس النتيجة.

إن قواعد المعرفة هذه ليست للاختزان أو للاجترار أو للفرجة. فالمعرفة التي لا تخدم المعركة هي أسوأ من الجهل.

لا مناص إذاً، من أن نتذكر ركائز هذه المعرفة، لنقرر، بشكل قاطع حاسم، أن الصدام الفوري مع الخطر هو أول ما تتطلبه المعرفة. وما يجب أن يتذكره العقل العربي مما اختزن من دروس عاناها بنفسه، أو دروس تعلمها مع معاناة وتجارب أمم أخرى. أن الصدام لا يكون عفويا ولا فرض كفاية، ولا بد أن يكون بكل ما نستطيع، وبالتالي لا بد أن يكون وفق خطة قومية شاملة.

هذه بديهات تتذكرها الذاكرة العربية من تذكر حجم الخطر ومداه، والقوى التي بإمرته. فإذا وعيت كل هذه الدروس، وتذكر العقل العربي كل ما عاناه وما جرّبه وما تعثّر به وما عرقله، إذا تذكرنا كل ذلك، فالخطة القومية لا بد أن تكون محكمة، ولا بد أن تحشد معها للتنفيذ كل نبضة جهد. عندئذ نصبح في طريق النصر الحتمي. حتى يتم ذلك يجب أن نتذكر، وأن لا ننسى وأن لا نتناسى.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

الفصـل ٨

سياسات اللهاث وراء الحل السلمي

سيدي* الرئيس، حضرات السادة الأعيان

في العام الماضي، وفي جلسة مناقشة الميزانية الماضية، تشرفت أمام هذا المجلس الكريم، بتوضيح أهم المرتكزات التي ناقشت على ضوئها الموازنة، وامتنعتُ، على أساسها، من الموافقة على الموازنة تلك. وأرجو أن أذكر المجلس الكريم، مرة أخرى بهذه المرتكزات، لأن العيوب والانتقادات التي انطوت عليها تلك المرتكزات ما زالت هي هي؛ بالعكس، فإن تلك العيوب قد تضخّمت وتطورت وتفاقمت، ولا بد من إعادة سردها لمناقشة الموازنة الحالية، والمرتكزات هي:

أولاً: إن الموازنة بأساسها وبروحها وبتفاصيلها، هي ميزانية سلم وطمأنينة. وتتجاهل متطلبات المعركة، ولا يؤثر على لون السلام الصارخ في الموازنة، الإنفاق على الشؤون العسكرية، ولا ترديد كلمات الصمود وشدو الأحزمة والتقشف، وغير ذلك من شعارات غير مقصودة، ترددها خطبة الموازنة أو أحاديث الحكومة!

ثانياً: إن لون السلام والاستسلام لم يأت صدفة إلى الموازنة، بل هو انعكاس للهاث الحكومة وراء الحل السلمي، ووراء التوهمات السرابية للحل الذي لن يأتي، أو أن الموازنة انعكاس لخواء في الحكم الذي لا يعرف خطته ولا طريقه.

ثالثاً: مَيَّع الحكُم الدورَ الطليعي لهذا البلد كقاعدة أولى ورئيسية للتحرير،

---

*الكلمة التي ألقاها الشهيد في مجلس الأعيان الأردني، بمناسبة مناقشة مشروع موازنة الدولة في ١٩٧٠/٣/٧.

لقد تحولنا إلى عالة فكرية في السياسة والنضال والتخطيط، همُّنا الانتظار لما ستأتي به الأيام، وتطورت هذه الشحاذة الفكرية فجعلت الحكم عاجزاً من اتخاذ أي قرار، أو رسم أية خطوة. ولهذا السبب تعددت وتناقضت وجوه هذه الحكومة: وجه جديد مختلف لكل جهة مهما كانت.

رابعاً: تحوُّل الحكم إلى الاستجداء الفكري، جعلنا نلهث وراء الأحداث بدلا من أن نصنعها، وفي قدرتنا صنعها. وتقوقعنا إلى مجرد منفعلين لا حول لهم ولا قوة كريشة في مهب الرياح العاتية. هذا السبب، وأسباب أخرى، تحُوِّل العزم والصمود والكفاح وشدّ الأحزمة إلى مجرد شعارات هوائية، بينما جمدنا بذلك الميزات النضالية لهذا البلد لمجرد أن الحكم عاجز عن التفكير وعاجز عن التقرير.

خامساً: من أهم ظواهر الحكم في السنة موضوع البحث، أن الحكم بدلا من أن يبني لنفسه قاعدة شعبية على أساس عمله واستقامته، عمد إلى تشكيل قاعدة للحكم عن طريق "..."

سادساً: من أخطر ما وقع في ولاية هذه الحكومة انعدام ولاء الحكومة بأفعالها لهذا البلد، ولرسالة هذا البلد..

هذه المرتكزات التي حَجَبتُ على أساسها الثقة عن موازنة العام الماضي، أوردتها، الآن لأناقش، هنا كانت وصفاً صحيحاً صادقاً للأحوال، ولما جرى في السنة الماضية؟ يؤسفني أن أقول أن ما جرى كان أسوأ مما بيّنته المرتكزات آنذاك، وما جرى وحدث فعلاً، كان توكيداً واضحاً على أن كل المخاوف التي انطوت عليها تلك المرتكزات كانت صحيحة وأكثر من صحيحة. وفيما يلي التفصيل:

أولاً: الموازنة التي نناقشها اليوم كالموازنة السابقة، لا تمت بصلة إلى ظروفنا، ولا إلى تطلعاتنا، ولا إلى ما يجب أن تكون عليه مسيرتنا، ولا إلى الكفاح المرّ

الطويل القاسي الذي هو قدرنا وقدر هذا البلد العزيز. الموازنة كالموازنة الماضية تتجاهل كل بديهيات التعبئة، وأولويات الأنفاق، ومتطلبات المعركة في القتال والإنتاج. كذلك لم يدخل في حسابها أي تصعيد للمعركة، أو أي تطور مفاجئ سيضطرنا للخروج من دوامة انتظار المعجزة التي لن تتحقق. الموازنة كذلك ليست تعبيراً عن خطة، بل هي تعبير مستكين عن خواء لا خطة فيه، وحتى من نواح قانونية ورقمية لم تضع الموازنة قواعد تفصيلية رقمية واضحة، سواء بقانون ملحق، أو بنظام يرتب دعم الصمود وأسلوب الدعم وفوريته. وكذلك ليس في الموازنة قيود لأولويات الإنفاق، كما تفرضها ضرورات المعركة في القتال والإنتاج، فعدة ملايين من الدنانير كانت تكفي لمزيد من المنعة، في تحسين رواتب الجنود والموظفين والملكفين بالخدمة العسكرية. وهؤلاء كلهم أدوات أساسية في المعركة.

السياسات الضريبية ما زالت في شكلها، والمعدلات المباشرة التي تطلبها، استمرارٌ لسياسات أيام الخير السابقة، قبل الهزيمة. هذه السياسات لم تعد تصلح أو تناسب متطلبات المعركة والصمود، بمعناهما الحقيقي لا الوهمي، وكما يتطلبها وضع الحرج والشدة الراهنين، هذا بالإضافة إلى أن الميوعة الإدارية والإجرائية التي اتصف بها الحكم، سهلت التهرب من الضريبة، وزادت أوجه وأحجام التهريب والتهرب من دفع الرسوم الجمركية وغيرها.

لماذا لم تضع الحكومة قاعدة أساسية للأنفاق: ما يصلح للمعركة يبقى ويزداد، وما لا يصلح للمعركة يزول. إن أية موازنة لا يتسلط عليها هذا المقياس الحاسم بمقياس المعركة لا يمكن ان تصلح لأن تكون موازنة بلد هو قاعدة التحرير الأولى.

ثانياً: الحكم هو الأداة التي تنفذ الموازنة. وبحث صفات الحكم وتصرفاته وانطباع المواطنين عنه، أمرٌ لا مندوحة عنه عند بحث أية موازنة.. الصورة التي بدأ المواطنون يرونها في الحكم لم تعد صورة الحكم الدستوري الحازم النظيف الحريص على القانون والنظام والمصلحة العامة، بل حكما تنكّب جادة الصواب،

لا يأبه بالدستور ولا بالقانون ولا بالمصلحة العامة.

ثالثاً: التمييع واللاانضباطية، وتَرْكُ الأمور على عواهنها، واللامبالاة والاستهتار بما يمكن أن يجره هذا التصرف على البلد وعلى معركة التحرير من عواقب وخيمة. ظلت، هي الصفات السائدة على الحكم. لا أود أن أنكأ جراحاً يرغب كل مخلص أن تندمل. ولكني مضطر أن أشير إلى أن ميوعة الحكم وعدم انضباطيته واستهتاره وتلونه، كانت السبب المباشر لأحداث الشهر الماضي المؤسفة "بين الجيش والمنظمات"، وهي الأحداث التي تركت، بالإضافة إلى الدماء البريئة، بداية شرخ وتصدُّع لا يجوز أن نتعامى عنه، بل من واجبنا معالجته بالمزيد من الإيمان بالتحرير.. بالصمود والمقاومة والخط العربي، والإيمان، قبل هذا وذاك، بقَدَر هذا البلد من حيث أنه منطلق التحرير.

الحكم ليس واجهة نفوذ واستغلال، بل هو عمل وقدرة. عندما تميع الأمور ويتفشى الاستهتار وعدم الانضباطية في مستويات الحكم نفسه، تنتقل وتتفشى هذه الميوعة خارج الحكم. وعندما لا يتقيد الحكم بهذه الأسس، لا نستطيع أن نلوم من هم خارج الحكم من تفشّي نفس العيوب التي يعانيها الحكم نفسه، مالك الشيء يعطيه وفاقد الشيء لا يعطيه. لا أعتقد أن هذه الحكومة، كما خبرها كل مواطن، وكما عرفنا كل تفاصيل سلوكها، بقادرة على أن تكون القدوة الحسنة الصالحة للسلوك العام، ولا بقادرة على أن تتسامى إلى مفاهيم ومتطلبات المعركة، وما تحتاجه المعركة من تجرد واستقامة وانضباطية.

رابعاً: استطراداً من هذه النقطة، لا بد من مناقشة تصرف الحكومة أثناء، تلك الأزمة. التساؤل الذي يثور، ما دام المشكل قد حُلَّ بالعقل والتفهم، هو لماذا لم تستشر الحكومة السلطة التشريعية في هذا الموضوع بالذات؟ لماذا لا تفسر الحكومة في حديث صريح كل ما حدث؟ فالأزمة بحد ذاتها كانت نتيجة منطقية ومعروفة "..."، ولغموض الرؤية وانحلال المسؤولية، والتلوّن وانعدام الصراحة.

خامساً: في الوقت الذي يتخّبط فيه الحكم عندنا في ظلمات التيه الذي

حدثتكم عنه، تمضي ثلاث سنوات تقريبا على الهزيمة. وتمشي سنة على احراق العدو للأقصى.

وينشئ العدو عشرات المستعمرات على أرضنا المغتصبة ويُسام أهلنا العذاب والتنكيل.

ويلحّ العدو في سياسات الإفقار والتفريغ والتهجير في أرضنا المحتلة.

ويحشد العدو كل نبضة من جهده لتكريس الاحتلال والاغتصاب. ويُعطِّل إنتاجنا في غورنا اليانع، وينكشف سراب الحل السلمي عن حقيقته. والتساؤل الآن:

إلى أين، إلى أين نسير؟

هل تظل الميوعة، ويظل التخبط، ويظل التعامي على حاله؟

بأيّ وجه نقابل جندنا الرابضين في وجه العدو، يفدوننا بالدم والجباه والصدور. ماذا فعلنا من أجل أن لا تذهب شهادة الذين يفدوننا بأرواحهم كل يوم، ويدلّوننا بدمائهم على طريق النصر؟

هل يظل دعمنا لهم، المزيد من التخبط والميوعة والتلون واللاجدية؟

وهل هناك فعلاً جبهة خلفية مُصممة تسند الرابضين على خط القتال، وما هو الأثر الذي تتركه قصص الميوعة والفساد واللاأبالية على نفوس الرابضين في الخنادق؟

وفي رأيي، أنه ما زال في الوقت متسع لأن يتحول الحكم إلى أداة نضال. لا أداة استغلال، وفي وسع الحكم أن يكون الأداة المناسبة، ليتبّوأ هذا البلد مكانه الطبيعي والطليعي من المعركة. وفي وسع الحكم أن يعكس حزمه واستقامته ووضوحه وحريته وانضباطيته على كل نبضة جهد، وعلى كل تصرف في هذا البلد. وفي وسع الحكم أن يعمل كل ذلك.. لكنّني، وبكل أسف لا أعتقد أن هذه الحكومة، ولا هذه الموازنة، بقادرتين أن تكونا ذلك الحكم.

الفصل ٩

حقائق المعركة

تخضع * المعركة، أية معركة، إلى مجموعة من الحقائق والقواعد التي تُبنى، على أساسها، طبيعة تلك المعركة، من حيث الحشد والاتجاه والتوقيت. إن المعركة قمة أي مجهود إنساني. والحوافز الإنسانية التي تدفع إليها هي حصيلة كافة مجاهيد المجتمع الإنساني الذي يواجه المعركة، سواء أكانت عقلية، نفسية أم مادية. وقواعد المعركة وحقائقها وأسسها هي مجموعة معطيات دقيقة محسوبة تُبنى على أساسها خطة المواجهة. ولما كانت المعركة تستهدف عدواً فإن من أهم حقائقها تلك التي تتعلق بالعدو الذي تستهدفه.

وعلى هذا لا بد، أولاً من مسح موضوعي دقيق للعدو، ومن تقييم موضوعي لمواطن القوة والضعف فيه، ومن تقييم لأساليبه وتفكيره ونفسيته، وكل ما من شأنه أن يؤثر في جهده في المعركة، من قريب أو بعيد. ولا بدّ كذلك من مسح موضوعي شامل دقيق لمواطن القوة والضعف، عندنا. وفي ضوء هذين المسحين، وتبين أبعادهما الزمنية والمكانية يجري تقدير الموقف وتعيين أسلوب المواجهة وفق قواعد عقلية، مستمدة من دروس القتال وتجاربه عبر التاريخ البشري، وتؤخَذ تلك القواعد باعتبارها معطيات حاسمة ودقيقة لا بد من التقيد بها وأخذها بالحساب مهما كانت نوعية المواجهة.

عندما تكون المعركة مصيرية، لا بد أن يكون تقديرها والإعداد لها في مستوى من الفكر والموضوعية يتناسب وخطورتها المصيرية. وعلى هذا، لا بد أن يجري

*نص المحاضر التي ألقاها الشهيد في الجامعة الأردنية في أول حزيزان ١٩٧٠، بدعوة من اللجنة الثقافية في نادي موظفي الجامعة الأردنية.

تقييم لأساليب المعطيات، تقييما عقلياً محضا بعيد النظر، لا تؤثر فيه العواطف والانفعالات والاعتبارات العابرة والقصيرة النظر.

ولتوضيح حقائق المعركة، وأبعادها الحقيقية، لا بد لنا أولاً من تعريف العدو الذي تستهدفه المعركة وتقييمه، وقد يبدو إيرادي هذا التعريف الآن، وبعد نصف قرن من التماس المباشر مع العدو، نوعاً من التكرار أو الترديد لبديهيات معلومة. والواقع أنه على الرغم من أننا نكرر، كل يوم، أوصاف الصهيونية، وكونها حركة عدوانية، عنصرية، توسّعية فاشية، ركيزة للاستعمار، ورأس جسر لمحاربة التجديد والتقدم، وأنها مناقضة لمسيرة التاريخ وحتميّاته، وما إلى ذلك من عشرات النعوت الصحيحة، التي تتردد باستمرار في بحوثنا وبياناتنا.. أقول: على الرغم من هذا الترداد المتواصل، فانه لم ينفع في أن يوجد في أعماقنا، بلورة حقيقية لمعنى هذه النعوت وأبعادها، وكما يمكن ان تستخدم بالفعل وعلى الطبيعة. والدليل على ذلك ما نلمسه من "ضبابيات" تقديرنا للموقف في بعض حساباتنا السياسية او القتالية.

لقد سبّب التكرار المتواصل للنعوت والصفات التي نطلقها على العدو، نوعاً من السطحية العقلية التي تلازم الترداد المتواصل لعين الألفاظ. وقد قيل قديماً "اعرف عدوك"، والمعرفة هذه لا تعني محض ترداد الالفاظ والصفات.. وانما هي النفوذ بعمق إلى المرتكزات التي تشير إليها تلك النعوت، وتقييمها وتقديرها حق قدرها. ومعرفة ما تنطوي عليه من عناصر لغايات المعركة.

وفيما يلي أهم هذه المرتكزات:

أولاً: إن قناعات العدو، والعناصر المؤثرة في تصرفاته، وسياساته، وأطماعه وأساليب تحركاته، هي نتائج تلقين وغسيل دماغ استمرا آلاف السنين، بواسطة التوراة والتلمود وشتى الطقوس والنبوءات الدينية والعرقية. فالتلقين المتواصل، في العقل اليهودي، قد أصّل وعَمّق مفهوم "شعب الله المختار"، وارتباط هذا الشعب بمفهوم "أرض الميعاد". لقد أنتج التلقين والإيحاء المستمران عبادة

الأرض وعبادة الذات. وهذه بدورها خلقت في النفس اليهودية "انطوائية" عمياء جعلت الجماعات اليهودية غير قابلة للانسجام مع أي محيط إنساني وجدت فيه. وبالتالي لقد امتنع تمثُّلها، وظلَّت عقدها وانطوائيتها، تتسارع وتتفاقم، فأنتجت، فيما أنتجت، أجواء من الشك والريبة والاضطهاد، أحاطت بالجماعات اليهودية في كل مكان حلّت فيه.

ثانياً: وقد رسَّخت الانطوائية وعبادة الذات؛ وردّ الفعل لأجواء الشك والريبة والاضطهاد، في نفوس اليهود، قصص التوراة والتلمود، وما توحي به من حقد على الغير، ورغبة في إفنائه، وفي اعتبار دم هذا الغير حلالا "لشعب الله المختار". وهذه بروتوكولات حكماء صهيون، وإن زعم زاعم أنها قد زوِّرت على اليهود، ما هي في الواقع إلا ترجمة صادقة لما يعتمل في نفوس الجماعات اليهودية من رغبة في التسلُّط والسيطرة على الآخرين، مهما تكن الوسيلة. إنَّ قواعد الخلق والسلوك اليهودية ذات وجهين: وجه يختص بالتعامل فيما بينهم، ووجه يختص بالتعامل مع الآخرين. أي أن هذه القواعد السلوكية لا تتصف بالشمول والانفتاح اللذين تتصف بهما قواعد السلوك المتعارف عليها إنسانيا.

ثالثاً: إن تراث الانطواء والحقد والاستعلاء والعنصرية وعبادة الذات وعبادة الأرض، قد جعل علاقة اليهود بالأديان والمذاهب والمدارس الإنسانية الفكرية المختلفة، وبكل الكيانات والدول والسياسات العالمية، علاقة انتهازية واستغلال. ورغبة حقود في التسلط عليها... رغبة تتسم بحذر واستعلاء... ومن بعيد لبعيد دون الارتماء في حضن أيّ منها.. وكذلك انطوى التعامل اليهودي مع كل هذه الجهات والمذاهب، على محاولة الامساك بمفاتيحها حتى تستَغل حركاتها كلها لمصلحة النفوذ اليهودي.

رابعاً: نتيجة ذلك كله، فقد وُجِدَ نوع من المؤامرة الكبرى: مؤامرة متواصلة رهيبة، عبر سنين طويلة، فرضت على الجماعات اليهودية "انضباطيات" في التخطيط، وفي التحرك، وفي توزيع الأدوار لاستغلال كل فرصة، والاستفادة من كل عثرة يقع فيها الغير. ولم تعد الجماعات اليهودية، بسبب ما ذكرت آنفاً، محض جماعات بشرية ذات حرية أو خيار، بل غدت أدوات مؤامرة منضبطة ملحة لا إنسانية. أصبحت صفة كونها أداة في مؤامرة هي صفتها الأولى الغالبة الفعّالة التي تعطي الاولوية والرجحان على ما اصطلحنا على تسميته بالتناقضات الفكرية والأيدولوجية، وراح اليهود يعتبرون أن الفكر العالمي والأيدولوجيا العالمية، أدوات ووسائل لتحقيق مآرب الشعب اليهودي.

إنني أكتفي بسرد الركائز الآنفة، لأنها هي التي استند إليها العدو في معركته معنا. إن الصهيونية كما نعرفها ليست حركة يهودية جديدة. بل هي تسمية جديدة لمؤامرة قديمة، نشأت مع اليهودية، ولكنها فسرت من جديد، بأبعاد جغرافية وسياسية واقتصادية.. وهيّأت نفسها من جديد للغزو والاغتصاب والقهر. لا أود الحديث مطوّلا عن الصهيونية، ولكن لا بد لغايات هذا الحديث من تعداد اهم ملامحها وأساليبها:

أولاً: يقول اليهود إن الصهيونية هي تحقيق أحلام التوراة ونبوءاتها، بعودة اليهود إلى ما يسمونه "أرض الميعاد"؛ أي عودتهم إلى مجال جغرافي يحققون فيه ذاتهم. تحقيق الذات هذا كما تمارسه وتفهمه الصهيونية، هو اقتلاعنا من ديارنا، والتسلط على هذه المنطقة، بالاستغلال السياسي والاقتصادي.

ثانياً: الصهيونية ليست أداة للاستعمار.. بل هي، بأهدافها ووسائلها، استعمار، يوازي ويوافق ويحالف الاستعمار المعروف، والصهيونية تستغل وتحرك الاستعمار لمصلحتها الذاتية.

ثالثاً: بَنَت الصهيونية خطتها لتحقيق أهدافها على مراحل التدرّج.. والهضم ثم القفز من هدف مرحلي إلى آخر يليه. ووراء التسلل والتدرج، إصرار أعمى على بلوغ الهدف لم يتغير ولم يتبدل. ولكن الخطوات إليه، كانت تختفي أو تتسم بالتريث او السرعة بحسب الظروف والطاقات المتيسرة.

رابعاً: إن "انضباطية" الجماعات اليهودية، وقدرتها على خفض تناقضاتها، إنْ وجدت، إلى أدنى درجة، لمصلحة الهدف الواحد ذي الأولوية المطلقة، قد ساعدتا الصهيونية على الإصرار على الهدف، وعلى تسخير أقصى قوة فعلية وعقلية ونفسية لديها في معركتها ضدنا.

خامساً: ولغايات الهدف الصهيوني المطلق، كتمويه ميكافيلي، توزعت الأحزاب والمدارس الصهيونية، أدوارا مموَّهة شتَّى، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، ومع كل جهة خارجية، حتى تترك لنفسها أقصى مرونة للاستغلال والخداع، ولشتى المناورات في إطار الخطة العامة التي تصرّ على هدف صهيوني لا يتبدّل ولا يتغير. إن ركائز اليهودية وملامح الصهيونية ومعالمها، تلك التي سردتها آنفا، قد فرضت نفسها على الأرض وعلى الطبيعة وعلى الحياة والجهد اليهوديين، داخل "إسرائيل" بصورة لم تبق معها محض مشاعر وعواطف ومجرد كتب وشعارات، بل غدت حقائق ملموسة تسلّطت، وفق أحدث الأساليب العلمية، على كافة المجاهيد السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية؛ ونظمت مجاهيد السلم والحرب.. وضبطت اتجاهات كل خطوة وكل نبضة جهد.

وبعد، فإننا حين نتحدث عن حقائق المعركة فإن أول ما يجب أن نعيه هو حقيقة هذا الحشد الفعلي المعادي المحكم، هذا الحشد الذي يجب علينا مواجهته، وإعداد العدة له، مهما كان تقييمنا له، من جهة نظر خُلقية أو إنسانية. ولا

شك عندي في أن تلك الملامح والمعالم التي يتصف بها العدو من عبادة الأرض والقتال دونها، حتى مفهوم "شعب الله المختار" هي من أخطر الحقائق التي علينا حسبان حسابها في معركتنا معه. إن حقائق التكنولوجيا، والطائرات والدبابات وحتى الأسلحة الذرية، تظل ثانوية بالنسبة إلى إرادة القتال والقهر وعبادة الأرض، التي يتصف بها العدو، مستغلا تلك الركائز التي تتسلط على كل تحركاته وكل أساليبه وتفرض عليه انضباطية الإصرار على الهدف، وإغلاق الطريق دون كل مسرب جانبي من شأنه أن يضعف الاندفاع نحو الهدف. إن هذه الركائز هي أقصى الأسلحة التي يقاتلنا بها العدو، فالمعركة، كما هو معروف، ليست صداماً بالسلاح والرجال فحسب، بل هي أولاً صدام إرادتين. والإرادة هي وليدة عقيدة واقتناع وإلى جانب هذا الإتقان العدواني الذي يجب أن نعترف به، وأن نحسب حسابه، وأن نحشد ما يوازيه أو يتفوق عليه.. فإن من أهم نقاط الضعف في البنيان "الإسرائيلي"، أنه متشنج ومشدود ومتوتر، هذا التشنج أو الشد أو التوتر، يظل مظهر قوة فعالة حتى تنزل أول ضربة مضادة، عميقة، قوية، مصممة، به. ومثل هذه الضربة، شرط أن تكون وليدة خطة، وإذا أُحسن استثمارها، ثم تتابعت بمثيلاتها، أمكن أن تتحول إلى اندحار وربما إلى انهيار.. ومن هنا خشية العدو من أنه لا يستطيع تحمل هزيمة واحدة.

ومن نقاط الضعف لدى العدو، الغرور والاستعلاء، الأمر الذي يجعله أحيانا لا يرى بعيداً؛ فقد حدث، بعد هزيمتنا في حزيران مثلاً، وخلال الأشهر القليلة التي تلت الهزيمة، حين عمَّ بيننا اليأس وساورنا الشك في قدرتنا على القتال، أن منع الغرور والاستعلاء العدو من استثمار هذا الظرف، فتشدد وتغطرس واستعلى؛ فانقذنا، بغرور وغطرسته، من وخامة دوامة ضياع واندثار طويلة لا يعلم إلا الله مداها.. هذا الغرور وذلك الاستعلاء، حسب تقديري كانا في تلك الفترة أول خطيئة مهلكة ارتكبتها الصهيونية في تاريخها. والراجح أننا إذا عرفنا كيف نقاتل، وصممنا على القتال، أن تكون تلك الخطيئة قاتلة حاسمة.

إن المعلومات التي بيّنتها عن العدو هي حقائق المعركة الأولى. والفهم العميق لهذه الحقائق، يُوجب أن نُزيل من أذهاننا، وبالتالي من تخطيطنا، الأوهام والخرافات التالية:

أولاً: خرافة الحلول السلمّية بشتى أشكالها وصورها.

ثانياً: خرافة احتواء "إسرائيل" أو إمكان التعايش أو الانسجام معها.

ثالثاً: خرافة الاعتماد على ما يُعتَقد أو يبدو أنه متناقضات بين مختلف الشيع والأحزاب والطبقات اليهودية داخل "إسرائيل".

رابعاً: خرافة الاعتماد على الضغوط والوساطات الدولية والرأي العام العالمي.

خامساً: خرافة الأوهام التي تتوقع إمكان انسحاب "إسرائيل"، من بعض الأراضي المغتصبة أو كلها، من دون ثمن غال تأخذه، أو من دون إكراه شديد، لا يكون بمحض إرادتها وبلا ثمن تتقاضاه.

سادساً: خرافات وأوهام مَن يعتقدون أن في وسعنا أن نتحاشى صداماً مصيرياً مع الصهيونية.

هذا هو الجزء الأول من حديثي إليكم، أما الجزء الثاني فيتعلق بنا نحن، وسأحاول بأقصى ما أستطيع من موضوعية، ولغايات المعركة، أن أحدد أهم ركائز القوة والضعف فينا. إن وجودنا نحن هو نتيجة أو وليد عقيدة دينية، قومية، سمحة متفتحة، ذات رسالة إنسانية تؤمن بالقيم الإنسانية، بالحق والعدل والمساواة. كما تؤمن بالعقل وبالقتال من أجل الحق. لدينا فريضة الجهاد، وانضباطية الجهاد، وما يستتبع هذا الجهاد من متطلبات التضحية، والبذل، والشهادة في سبيل الله. ولنا الأرض الرحبة، ولنا الزخم في العدد والموارد، ولنا كل ما يؤهلنا لأن ندفع لأية معركة بعناصر قوة تحقق لنا النصر، مهما تكن شراسة العدوان. وإن وراءنا، وفي تاريخنا، صفحات كثيرة مشرقة طافحة بدروس الكفاح والجهاد، ومُثُل رائعة للتضحية والصبر على المكاره. هذا الزخم لم نجنده للمعركة كما

يجب أن يُجَنّد، على حين أن العدو قد جنّد حتى خرافاته وعقده، وحوّلها إلى ركائز قوة للمعركة. إننا لم نتمكن حتى الآن من استخدام عناصر قوة حقيقية، متوافرة لدينا، في معركة يقاتلنا بها العدو بباطله. إنني لست هنا مؤرخاً، ولست محللاً للتاريخ، أو للطباع؛ ولكن الذي يتضح لي أننا في مواجهتنا للعدو إنما نحاول أن نلتمس أو أن نقتبس مصادر قوة من بعيد، ومن كل مكان، ولا نتلمّسها في أنفسنا وفيما نملك. قد يكون مردّ ذلك إلى عصور التخلف والاستعمار والتجزئة والسذاجة والتقليد الأعمى. وقد يكون من أسبابه ذلك الصغار الذي أحس به أكثر المفكرين والمخططين ورجال السياسة تجاه كل ما هو جديد وغريب. وقد يكون في طليعة الأسباب، عقد المراهقة السياسية وبريق الشعارات الجديدة. وقد يكون في الأسباب، تلك الدسائس والمؤامرات التي سبقت أو وازت المؤامرة الصهيونية لإبعادنا عن مَعين قوتنا وعزمنا، فساد بيننا الضياع والجبن العقلي، والتنافر وانعدام الإجماع... إنني لا أستطيع أن أضع أُصبعي على سبب واحد معيَّن، ولكنني أعرف أننا في ضياعنا لم نحاول أن نستخدم، حقّ الاستخدام، ركائز القوة الحقيقية، التي هي في متناول يدنا وعلى العكس من ذلك، ربما حولنا بعضها في تطبيقنا إلى نقاط ضعف، كالاعتزاز الاتكالي بزخم الموارد، وامتداد الأرض، وضخامة العدد، والاعتماد على أن الحق لا يهزمه باطل.

إن من أهم نقاط الضعف، عندنا، التجزئة، وتعدد القيادات والإرادات وما ينجم عن ذلك من فوضى، وتناقض، وتنافر، يستغلها وينفذ، من خلالها عدوّنا المصمّم، صاحب القيادة الموحدة، والإرادة الواحدة. وإن من نقاط الضعف لدينا، خوف العقل العربي من مواجهة المعركة بتجرد عقلي شجاع، يلتزم بالنتائج العقلية التي يتوصل اليها. ولهذا السبب حلّ الشعار محل الفكر، وحلّت العواطف محل التخطيط والحساب، حلت الدعاية محل الصدق، وحل التصفيق محل المشاركة والتضحية. وهذه كلها مَقاتِل لتقدير الموقف الذي يؤمِّن للمعركة النصر.

تلاحظون أيها الأخوة، أنني في مسحي لركائز القوة عندنا وعند العدو، لم أؤكد

الناحية المادية من ركائز القوة، سواء ما كان منها متعلقاً بالرجال أو بالسلاح أو الموارد. هذه كلها ضرورات للمعركة ولكنها لا تأتي في المرتبة الأولى.. ولا حتى في المرتبة الحاسمة، فالمعركة، كما قلت وكررت ولا أزال أقول وأكرر، هي صدام إرادتين. فمفتاح المعركة ومفتاح النصر هو في الإرادة.. والإرادة انبثاق عن عقل وعن عقيدة. الإرادة المصممة هي التي تخلق الرجال والسلاح والموارد: وهي التي تجعل منها كلها وسائل نصر، بينما تحول الإرادة الهزيلة، الرجال والموارد والسلاح إلى وسائل هزيمة.. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، ورغم التفسيرات الكثيرة التي أعطيت لهزائمنا، أقول إن سببها الأول لم يكن قلة السلاح وندرة المال وعدد الرجال، وإنما السبب كل السبب هو فقدان الإرادة المصممة.

إن من حقائق المعركة التي لا بد من رعايتها، عنصر الزمن، والزمن المقصود ليس الزمن المطلق البعيد، بل الزمن الذي تقيِّد امتدادَه إنانية الأحياء. الزمن الذي أعنيه هو الزمن ذو الامتداد المقيد والمتعلق بالمعركة التي نواجهها.. إن العدو يتحرك في استراتيجيته العظمى على مبدأ قفزات، يغتصب ثم يناور، حتى يكسب أطول وقت ممكن لتثبيت اغتصابه وتوطيده، وحتى يهضم ما أغتصب.. ثم ينطلق للقفزة الثانية. لقد وضحت هذه الاستراتيجية المعادية بصورة ملموسة، خلال تماسنا المباشر معه، منذ الحرب العالمية الأولى، وحتى اليوم. ويستطيع الواحد منا أن يواكب، بذهنه وبالوقائع، تلك القفزات. من مؤتمر بال، وما قبل مؤتمر بال إلى وعد بلفور، إلى قيام "إسرائيل" حتى حرب حزيران. والدلائل تشير إلى أن أسلوب القفزات، بعد فترة من التخندق والتحفز، هو الأسلوب السائد الذي يتبعه العدو. وهناك وجه آخر لعنصر الزمن يتعلق بنا نحن، ذلك عندما نلقي السلاح بعد أية قفزة ناجحة للعدو. فإذا ألقينا السلاح، وتنكبنا عن الطريق الوحيد الصحيح، ترانا نتحول إلى دوامات من الشكوك، والمرارة، والضياع، والتنافر، والتفسّخ الذاتي. حقا إننا حين لا نواجه الطريق الوحيد الصحيح؛ وهو استمرار الصدام، يتحول الزمن وطوله إلى سم زعاف،

وتتشعب بنا الطرق، والاجتهادات، وتعد المسارب الجانبية، وتبدأ عملية استنزاف ذاتية، تتسارع وتتفاقم. وبذلك نخدم العدو، ونعطيه مزيدا من القوة، مزيدا من الزمن للاستعداد لقفزته التالية. إلا أن قاعدة الزمن بهذا المفهوم يجب، بالضرورة أن تصحح ما يلي:

أولاً: حجج الزعم الساذج المطلق أن الزمن يعمل لمصلحتنا.

ثانياً: حجج الاعتماد ونحن نيام أو نسير في متاهات، أو تلفّنا دوامات، فلا نعرف الطريق، على الحتميّات الطوبائية؛ بأن كفاحنا هو في اتجاه التاريخ، وأن الصهيونية حركة همجية تناقض مسيرة التاريخ، أو سنن الاجتماع. وفي وسعي أن أسرد أمثلة عدة من التاريخ نفسه، أنتجت به ميكانيكيات هذا التاريخ نتائج عكس ما توقعه الطوبائيون، لأن الحتمية ليست قاموساً فارغاً، بل لا بد من أن يفرضها العمل الواعي الصحيح، وأن نتميز بالاتجاه الصحيح، وفي الزمن الملائم الصحيح.

ثالثاً: وَهْمُ تاجيل الصدام، مهما تكن المبررات للتأجيل، من دعاوى الاستعداد إلى انتظار الحل السلمي.

من حقائق المعركة، مبدأ الإصرار على الهدف. والمعركة المصيرية هدف بحد ذاته. وإن أولى مزايا المعركة المصيرية، أنها، في شمولها، تنتقي وتحقق الخطوات والأهداف اللازمة لمتطلبات المعركة وعلى هذا الأساس، فإن أية محاولة اعتباطية قَبْلية لتحميل المعركة المصيرية قَبْليا أهدافا اخرى، هي، أولا، إضعاف لقوة الإصرار على الهدف الرئيسي، وتوهين لتركيز الجهد.. وهو قاعدة مهمة سأتحدث عنها فيما بعد. قلت إن المعركة المصيرية هدف بحد ذاته، والنصر فيها هو انتصار على كل العيوب والتناقضات وتحقيق لكل الأهداف والأماني الصحيحة.

إن من حقائق المعركة، مبدأ تركيز الجهد كله، فلا يجوز أن يجري الصدام ببعض الجهد. لا تجوز تجزئته، سواء في الزمان أو في المكان، إن الحكمة، في قاعدة الإصرار على الهدف، هي حشد الجهد كله، لا بعضه، توجيهه توجيهاً مركّزا نحو هدف واحد. وإنّ أهم مظهر من مظاهر تجزئة الجهد أو بعثرته، تعدد القيادات، وتعدد الإرادات، أو بالأحرى هذا التناقض في تحديد الأولويات، وتَشعُّب الخطط وتعددها، وتفاوت زمان الشروع فيها، مع أن تركيز الجهد يتطلب إرادة واحدة ذات خطة واحدة تسيطر على كل المجاهيد، وتجعل من كل تحركات المعركة الشاملة، ومن كل معاركها الجزئية المساندة، أجزاء من شمول واحد، وبإطار واحد مرتب. إن كل معركة جزئية، وكل خطوة تكون ضمن هذا الشمول، يساند بعضها بعضا، وتدفع الواحدة الأخرى، التي بدورها تستفيد إيجابيا حتى من النتائج السلبية لأية معركة مساندة، ضمن الخطة الشاملة. على هذا الأساس، وتوكيداً لمبدأ الجهد، يتضح لنا عقم التجزئة، وعقم تعدد القيادات، والإرادات. كما يتضح لنا كذلك عقم تعدد الخطط وعقم تباين الرأي في ترتيب الأولويات. كما يتضح أيضاً العقم في أن يقاتل بعض جهدنا، بينما يتفرج أو يصفق البعض الآخر. أجل إنه يتضح العقم في أن تلتهب جبهة عربية، بينما تبقى الجبهات الأخرى ساكنة. وعليه فإن أسلوب الصدام في معركة المصير يجب أن ينبع من إرادة واحدة. مُصرّة على هدف واحد. ووليدة حساب واحد في الحشد وتقرير الأولويات.

إن من حقائق المعركة، أنها لا يمكن أن تكون نسخة طبق الأصل عن معركة غيرها. فالمعركة دائما تبنى على حقائق تقدير الموقف، المتعلق بنا وبالعدو الذي نقاتل. وبحدود زمنية ومكانية معينة. لذلك فإن من الخطأ أن نتلمّس الإجابات في التقليد، وفي التعميمات الجارفة التي تحاول اقتباس أساليب، معينة بالذات، على اعتبار أنها ما دامت قد صلحت في معارك معيّنة، فلا بد من أن تكون صالحة لمعركتنا نحن.

إن أسلوب معركتنا يجب أن يكون جديدا، مبتكرا، مبدعا؛ على يأخذ بعين الاعتبار والحساب كل الخبرات، والدروس، والعظات، والتجارب التي انطوت عليها جميع تجارب القتال والكفاح، في كل زمان ومكان. إن اخر ما أودّ أن أذكر من حقائق تتعلق بالمعركة، هو التوكيد على أن المعركة ليست فقط استراتيجيةً وتكتيكاً، بل إن الاستراتيجية والتكتيك يعتمدان بأساسهما على ما يُصطلح عليه عسكرياً باللوجستيك. وأحب أن أستعمل هذه الكلمة بأصلها اليوناني، عسى أن يشيع هذا الاصطلاح في بحوثنا شيوع الاستراتيجية والتكتيك اللذين هما سقف هوائي، إنْ لم تسنده أعمدة اللوجستيك. ومعنى هذه الكلمة، في اليونانية، علم إتقان الحساب، وهو فرع من فروع علم المنطق. وتعني الكلمة في المصطلح العسكري، ولغايات المعركة: العلم الذي ينظم، ويهيء كل المجاهيد المطلوبة للمعركة، حتى يستخدمها الصدام في استراتيجيه وتكتيك، ضمن حدود مكان وزمان معينين. إن فهم هذا الركن من أركان المعركة يعني الاعتماد المطلق على حسابنا، وعلى قدرتنا على تهيئة متطلبات المعركة ضمن حساب دقيق. هذا الفهم يعني من جديد إزالة كل وهم يعلق بالذهن، من أن جهدا لا تتسلط عليه إرادتنا نحن، يستطيع أن يكون عاملاً حاسماً في تقرير ما تطلبه المعركة، هذه الفهم كذلك يجب أن ينفي عن تفكيرنا، وعن تخطيطنا، كل الآمال والأوهام الشاعرية، بأنه يمكن خوض المعركة، من دون حشد شامل، محسوب، دقيق فعلي، أو خوض المعركة بقوى أو أعداد أو إمكانات، لم يوصلها اللوجستيك إلى مكان المعركة وزمانها.

إنني، فيما سلف من حديثي، حاولت انتقاء ما أعتقد أنه أهم قواعد المعركة، وأسسها. وقصدت بالذات تلك القواعد والأسس التي أشعر استناد إلى ما أعرف، أننا لا نأخذها بعين الاعتبار، ولا نتقيد بها عندما نبحث المعركة أو نخطط لها.

وسأحاول في الجزء المقبل من حديثي، أن، أوضح، قدر الإمكان، الصورة العربية، كما أراها، مستندا إلى المحكات، والمقاييس التي انطوت عليها قواعد

المعركة وأسسها.

إن كون المعركة معركة مصير، أمر أعتقد أنه لا يحتاج إلى بيان، ومع ذلك فإننا نردد هذه الكلمة بدون أن نتحرك التحرك المصيري الذي يعطي كلمة "المصير" مضمونها الفعلي، وبدون أن نضطلع بالتبعات التي يفرضها علينا معنى المصير وخطورته.

ما هي ملامح المواجهة العربية لمعركة المصير؟

باستثناء صفحة واحدة مشرقة، هي صفحة أولئك الذين لم يلقوا السلاح، باستثناء هؤلاء وباستثناء تلك الصفحة المشرقة، ليس في الصورة العربية فهم عميق شامل للعدو الذي نقاتل. غايات المعركة لا تكفي بمحض العلم والمعرفة. ذلك لأن المعرفة لغايات المعركة، لا تكون معرفة مجدية إلا إذا انتقلت إلى معاناة وجدانية، وإلى خطة عمل، وإلى عمل ينقل معرفتنا بالعدو حقاً، إلى مجموعة استعدادات واحتياطات وخطوات وإجراءات وتضحيات.

ولأن فهمنا للعدو ليس عميقاً، ما دمنا نعطيه الزمن الذي يناسب خطته، وما زلنا نناور في الميدان الذي اختاره هو. وهو يعلم تفوقه في هذا الميدان. ولأن فهمنا للعدو ليس عميقاً، ما زال، في أكثر الحالات، يدفعنا إلى مجالات تُناسبه هو، فنحث الخطى فيها، بعيدين عن منازلته في ميدان، لا يريد هو أن يواجهنا فيه. ولأن فهمنا للعدو ليس عميقاً. ما زال الجزء الأعظم من جهدنا مكبلاً بانتظار الحل السلمي. وما زلنا نفكر بتسويات حلول، يُثبت أي فهم عميق للعدو ولطبيعته أنها مستحيلة. ولأن فهمنا للعدو ليس عميقا، رغم تماسنا معه مدة نصف قرن من الزمن، ما زلنا لا نعرف كيف نضع أصابعنا على مواطن القوة ومواطن الضعف فيه. مواطن القوة عندالعدو ليست معجزات ولكنها منجزات بشرية يستطيع عقلنا أن يصنع مثلها -وذلك أضعف الإيمان- أنْ لم يبزها في نقاط قوة تكون أشد منها، فتطغى عليها او تبُطِل مفعولها.

ولأن فهمنا للعدو ليس عميقاً، ما زلنا نمر بسطحية عابرة بالأساليب التي تمكنه من أن يدفع إلى المعركة بكل خرافاته وأوهامه وعقده وتناقضاته، جاعلاً منها أسلحة فعالة مؤثرة تتفوق، في فعاليتها، ضمن مجهوده العام، على فعالية السلاح الحديث، ولأن فهمنا للعدو ليس عميقاً، لم نتعلم منه الانضباطية، وكيف تُستغل الفرص، وتُنتَهز عثراتُ الخصم، وكيف نفيد من التيارات. وأكثر من هذا وذاك لم نتعلم منه كيف نتعلق بالأرض، وكيف تهون التضحية في سبيلها.

هذا من جهة ومن جهة اخرى، لأننا لا نتمثل في أعماقنا معنى معركة المصير، ولا نستطيع استغلال مواطن القوة لدينا، لغايات المعركة، رحنا نردد الحديث عن مواطن القوة، ونتغنى بالدين، والقومية، وامتداد أرضنا، وكثرة عددنا؛ مع أن مواطن القوة ليست بالمساحات والأعداد، ولكنها صفات عقيدة، تستغل تلك المساحات والأعداد من أجل المعركة. عندما نفهم بأعماقنا معنى معركة المصير، نستطيع نحن أيضا أن ندفع للمعركة بأوهامنا وتناقضاتنا، إذا هي وجدت، ونُحوّلها في الخطة العامة إلى أسلحة فتاكة.

ولأن فهمنا لمعنى تركيز الجهد ليس عميقاً، ما زلنا نواجه المعركة بإرادات عديدة، وقيادات عديدة، وخطط عديدة، وأولويات متناقضة.

ونحن كذلك، لم ندرك بعد معنى الإصرار على الهدف، وتركيز الجهد على الهدف. إن التحرير في معركة المصير هو الهدف، وهو أيدولوجية بحد ذاته. ولا داعي مطلقاً لأن ندور في دوامة البحث عن الأولويات. إنَّ المبالغة في تصور ما يسمى بالتناقضات، وتحويل الجهد الذي يجب أن يركز على هدف بعينه إلى معالجة أوهام متصورة أو مآرب جانبية، يجب أن يُتركا، وأن يوفر الجهد المهدور عليهما، ليصب في المعركة المصيرية، تلك المعركة التي لا بد من أن تعالج، في اندفاعها الكبير، ثانويات التلفت نحو اليمين ونحو اليسار. الصورة السريعة التي حاولت أن أبيّن بها الفهم العربي العام لمعنى معركة المصير، وقواعد الحشد، وأسسه، وعدم توفر الرؤية الواضحة للأولويات، ولنقاط التركيز، ولنقاط التقيد بحقائق المعركة. هذه الصورة لا تبدو مشرقة بالقدر الذي نريد. الصورة هذه،

على العموم، وأستثنى الذين يقاتلون، هي تكرار للتخبط والتوزع الذي عاناه العرب بعد هزيمتهم ١٩٤٨. التيه وعدم مواجهة حقائق المعركة، ونشوء عشرات المدارس التسويفية، التي تحاول تجميل المعركة عشرات المهمات، والأهداف التي لا يجوز أن تسبق أولوياتها أولوية التحرير.

وطبقاً لحقائق المعركة وقواعدها، وفي مواجهة عدو متقن الحشد نفسياً ومادياً، يعني ذلك كله فقدان المبادرة من بين أيدينا كلياً، وإمساك العدو لزمامها، وبالتالي قدرته على وضعنا في وضع موازنة قلق، تتحول تحركاتنا معه إلى مجرد ردود فعل وقائية يائسة، لا تقوى على مواجهة قفزته التالية، ناهيك عن مواجهة معركة التحرير والمصير. إننا إذا لم نمسك بأيدينا، من جديد، زمام المبادرة، فان دوامة الضياع ستظل تلفنا على حسب حياتنا ومصيرنا. ولن تنفعنا يومئذ أحاديث الحتميات، ومنطق التاريخ، وأفكار اليمين أو اليسار.

حتى هذه اللحظة يبدو حديثي كأنه ضرب كف بكف، ومناداة بالويل، مع أنه في الواقع مبنّي على قناعة لا حدود لها، بقدرة هذه الأمة على انتزاع النصر، حتى لو كانت الغزوة الصهيونية، رأس جسر لغزوة صليبية أعنف وأشدّ.

عندما نحلل حقائق المعركة، ونردها إلى أسسها البسيطية، ونقيّم، بواسطتها، العدو تقييماً دقيقاً، ونُقيّم أنفسنا، ونواجه أخطاءنا، وسوء حسابنا مواجهة صريحة صادقة، فهذه هي في والواقع بداية الخطى للنصر. لقد قلت، في مطلع هذا الحديث إن حشد العدو وتقيّده بقواعد المعركة، ليس معجزة، وإنما هو مجهود بشري يعتمد على إرادة بشرية، تستند إلى عقل وقناعات نمّاها التلقين، والإيحاء والتكرار، وصممتها الأوهام والعُقَد؛ فتحولت بيد العدو إلى سلاح مؤثر. إن حقائق هذا المجهود البشري وأساليبه ليست سراً، ولا هي وقفاً على أحد. وفي وسعنا ونحن نملك معيناً لا ينضب من العزم في الروح والعقيدة والموارد، أن ندفع للمعركة بحشد لا يبُقي ولا يذر، حتى لو حصرنا مسرح الحشد في البلدان التي تواجه العدو. هذا المعين الذي لا ينضب، ما زال محبوساً بقمقم الضياع والتردد، وشكوك ما بعد الهزيمة.

ما هو الحل إذن؟

ترد على هذا السؤال عشرات الإجابات، قد تكون صميمية ومخلصة، ولكنها حسب قناعاتي، مخطئة. وسأناقش أهمها على ضوء حقائق المعركة.. فهناك:

- الحلول التي تقترح احتواء العدو بالصمود، وكسب الوقت لحشد القوة بالوحدة والإصلاح، وتنمية الطاقات الروحية، والمادية والعسكرية والاقتصادية والاستعداد والتوعية ومن ثم التحرك للتحرير.

- والحلول التي تقترح "الاجتماعية"، كوسيلة أساسية، من أجل الحشد للتحرير.

- والحلول التي تقترح استمرار التماس مع العدو، على مستوى الاستنزاف التدريجي الراهن، وعلى الصورة الحاضرة، وتصعيده حتى يختل توازن العدو، ومن ثم القضاء على ذلك العدو، بالحرب الشعبية أو النظامية.

هذه الإجابات، وغيرها من نفس القبيل، هي درجات من التسويف. وبُعدٌ عن الفورية التي هي الأساس. إن التسويف في معركتنا يعني مخالفة قاعدة الزمن، ويعني إعطاء العدو فرصة لهضم ما اغتصب؛ وبالتالي الاستعداد لقفزة آتية، وهو يغرقنا في دوامة ضياع أخرى؛ وبالتالي استمرار الموازنة القلقة التي نعيشها الآن، واستمرار الدوامة بكل مخاطرها، من حيث اليأس واستمرار التيه. إن بعض هذه الحلول لا يأخذ بعين الاعتبار قواعد حشد الجهد، وتركيزه وهي كلها تتجاهل معنى ترك المبادرة بيد العدو.

الحل الوحيد الصحيح. هو أن نبدأ فوراً بجعل المعركة عنوان وجود وقناعة حياة، ومقياس حياة؛ تستحوذ كعنوان وكمقياس وكقناعة، وعلى وجودنا كله، وعلى كل نبضة من نبضات حياتنا. وأن نتمثل المعركة في الصغير والكبير، في كل جهد، وفي كل عمل. الحل هو أن نربط حياتنا، في العمل والقول والقناعات والتصرف الخاص والعام، بما يتماشى ومقياس المعركة. ما يصلح للمعركة هو الذي يجب أن يبقى، وأن يتزايد، وما لا يصلح لها يجب أن يزول.

ما تتطلبه المعركة، يُتَمسك به، ويُحَرَص عليه، ويُعمَل له. وما ترفضه يُرفَض. في ضوء مقياس المعركة نعيد تقييم الناس، والعلاقات، والولاءات والسياسات

وأنظمة الحكم، والأحزاب، والآراء، والبحوث والمشاريع، ونشاطات الإدارة، والإنتاج، والثقافة. ومع قناعة المعرفة، يبدأ الصدام الفوري الشامل، بالعدو. ولا أقصد بالصدام، الصدام الانفعالي المرتجل، وإنما أقصد الصدام المحسوب، من كافة الوجوه؛ لوجستيكياً واستراتيجياً وتكتيكياً، والذي يتقيد بكافة قواعد المعركة من تركيز للجهد، وإصرار على الهدف. هذا الصدام الفوري سنجعل منه درعاً ووسيلة لاستنفار كافة المشاعر الدينية والقومية، وهي كفيلة بتحويل كل الإمكانات العربية إلى وسائل قتال، ترفد الصدام، وتواصله بمزيد من الحياة والعنف. الصدام بهذا المستوى هو مرادف للنصر. ومرادف للتحرير. وهو ليس مجرد عمل عسكري تقتضيه استراتيجية المعركة، بل هو أهم من ذلك، إنه مفتاح نفسي وعلاج حاسم يُنهي دوامة الضياع.. إنه مفتاح للقُمقُم الذي مازال،لظروف وأخطاء وعقد شتى، يحبس الجزء الأكبر من معين عزمنا في الروح والعقيدة والموارد واستعدادنا الأصيل للفداء والتضحية.

كذلك، وبعد أن أخفقت معظم مجاهيدنا حتى اليوم في الوحدة وفي الإصلاح وفي معالجة عشرات العيوب. سيكون الصدام مفتاحاً ووسيلة لتحقيق كل أمانينا وأهدافنا، ولمعالجة كل العيوب التي سيفرض علينا هذا الصدام معالجتها، لأنها كلها عوائق لا يمكن للصدام أن يبقيها عثرة في طريقة.. ومن مزايا الصدام أنه يُسرِّع الخطا، ويختصر التاريخ. فهو عدا كونه ضرورة تحرير، فهو ضرورة استراتيجية وضرورة تطور نحو الأحسن.

السؤال الأخير في هذا الحديث: ما هو دور هذا البلد في هذا الصدام؟ عندما أقول هذا البلد، فأنا لا أتحدث من خلال إقليميات سايكس بيكو، وصكوك الانتداب، وإنما أتحدث من خلال إقليمية المعاناة، إقليمية الإحساس بالنار، وإقليمية المهاجرين والأنصار، وإقليمية الحنين عبر الحدود، وإقليمية خط الشروع لإنقاذ القدس، وأقلمية منطلق الصدام وطليعته. الصدام لا يكون صداما إن لم يواكبه ويرفده –حسب منطلق المعركة– عزم عربي شامل حسب اعتقادي. وكما أن الصدام هو مفتاح التحرير، فإن هذا البلد هو مفتاح الصدام.

الفصـــ١٠ـل

الجبهة الرابعة

سيدي* الرئيس.. حضرات الأخوان.. التقرير الذي قُرئ علينا أمس، وتقدير الموقف، بحسب رأي الأردن، يكاد يكون كاملاً من كافة الوجوه. بالطبع هناك بعض الاجتهادات الفرعية، وأكرر الفرعية، في بعض النقاط. لكن التقرير، بمجمله، تقرير جيد وواقعي، يعتمد على الحساب وعلى العقلانية. التقرير نتيجة الحساب، بطبيعة الحال، يثير بعض الأمل.

ولكن هذا النوع من الأمل الآن هو نوع إيجابي، يبصِّرنا بحقيقة الحساب كما يجب أن نراها نتيجة. هذا الحساب تبّين، بكل أسف، أن مجموعة الجهد المحشود حاليا للمعركة، هو أقل بكثير مما تستحقه المعركة، وعلى هذه الحقائق أن تفتح أعيننا على مقدار الجهد الذي يجب أن نبذله حتى نصل إلى المستويات التي أشار إليها التقرير، حتى يجعل أمر المعركة، والدخول بها، وتحديد وقتها، عملية مأمونة الجانب.

المعركة تعتمد على توقيت، والتوقيت يعتمد على الجهد المحشود. الجهد المحشود كما يبّين التقرير ما زال دون المطلوب. بطبيعة الحال، هذا لا يعني مطلقاً السكوت على العدوان. اذا فوجئنا بالعدوان، أو فوجئت أي جبهة عربيّة، بالعدوان من واجبنا جميعا الدخول في المعركة بالإمكانيات المتيسّرة لدينا، بغض النظر عن مستواها. أما إذا أردنا أن نقرر نحن توقيت المعركة، فلا بد من اتخاذ

---

*القيت هذه الكلمة في مجلس الدفاع العربي المشترك، المنعقد بمقر الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بالقاهرة في ٢٨ تشرين الثاني ١٩٧١ وهذه الكلمة في آخر ما كتبه وصفي التل حيث استشهد في نفس اليوم.

تقدير الموقف والحساب الوارد في التقرير بعين الاعتبار.

التقرير، بحد ذاته، يفرض مجموعة إجراءات للحساب. التقرير أولاً يبيّن بصورة واضحة أن عنصر الوقت عملية مهمة للغاية. لو توفر المال وتوفرت المعدات فوراً، فهذا لا يعني مطلقاً أننا حشدنا جهدنا للمعركة، لأن هناك وقتاً: وقت إنشاء القواعد الجوية؛ وقت التدريب عليها؛ وقت الحصول على السلاح. هذا كله بالطبع، مع تقدير عام للموقف الدولي الذي يساعد على تحديد الوقت المناسب للمعركة.

من نتائج هذا التقرير: التوقيت، والحقيقة أنه لا ينفع من أجل المعركة أن تكون هناك جبهة قويّة متكاملة، وجبهة أخرى غير قوية وغير متكاملة. التكامل على الجبهات العربية المختلفة أمر ضروري. أولاً من ناحية التساند العام في الجبهة. وثانياً من ناحية أنه لا يفيدنا أن نصمد من جهة وننهار من جهة أخرى. النقطة الثانية التي أكّدها التقرير، ونحن نؤمن بها، قضية الاكتفاء الذاتي لكل جبهة. والنقطة الثالثة التي نؤمن بها أيضاً، أن هذا الاكتفاء الذاتي ضروري أولاً لكسب الوقت، وضروري ثانياً للمناورة في داخل الجبهة المعنية بالذات. هذه الحقائق في التقرير، برأيي، تحتاج أولاً في تقرير هذه الاستراتيجية العظمى، إلى اجتماع عربي، على أعلى مستوى، لتقرير نقاط في غاية الضرورة، وفي غاية الإلحاح وفي غاية الأهمية.

قبل هذا الاجتماع، من واجبنا ان نضع خطة العمل؛ خطة للتخطيط، وخطة للتزويد؛ وخطة للمعركة. التخطيط بحاجة إلى قيادة سياسية وعسكرية؛ لئلا تصبح كافة الحقائق والعناصر الثمينة في هذا التقرير مجرد نقاط، كالتي في كتاب جيد عن الوحدة العربية مثلاً. الحقائق التي به صحيحة؛ الحساب الذي في هذا الكتاب صحيح؛ ولكنه يحتاج إلى خطة تنفيذ.

وكل خطة تنفيذ تحتاج إلى قيادات لتنفيذها من كافة نواحيها، السياسية والعسكرية والمالية والاقتصادية، وخلاف ذلك من المجاهيد.

في الحديث عن الأردن: التقدير الذي ورد في التقرير عن متانة الجبهة الأردنية، برأينا صحيح. ورأينا أن الجبهة الأردنية بحاجة إلى دعم متواصل حتى تصبح المعركة، أمراً مأمون الجانب، وليس مغامرة. من الحقائق التي أشعر أن من واجبي التنويه بها، أننا بمجموع جهدنا الذي يجب أن يُبنى على الحساب الوارد في التقرير، يجب أن لا نُجر إلى المعركة؛ يجب أو نسير إليها. هناك فرق بين أن ننجر إلى المعركة وبين أن نسير إليها بتوقيت نحن نقرره قبلياً، واعتماداً على جهدنا الحقيقي الصحيح المحسوب، وليس الجهد الوهمي.. إن أي خطأ يُرتكب في أي جبهة، أي سوء تقدير. ينعكس علينا جميعاً، وينعكس على المجهود العام. وهناك نقطة أساسية فيما يتعلق بالجو العام المثار حالياً حول المعركة. وأعتقد أنه من الواجب أن ننتبه الانتباه الكامل، حتى لا نعطي أعداءنا فرصة جرّنا إلى معركة، يوقّتون هم لها. هذا يحتاج إلى انتباه، وهو مقدمة للمعركة لا بد منها. فيما يتعلق بالجبهات التي ذكرت هناك جبهة رابعة أعتقد أن التقرير لم يفصّلها كل التفصيل. هذه الجبهة هي جبهة تثوير المنطقة المحتلة. وهي جبهة أساسية. عملية التثوير هذه تخصّ أولاً المقاومة. وتخصنا جميعاً كعرب، وتخصُّنا بصورة خاصة كدول مواجهة. عملية التثوير هذه تحتاج إلى حساب، وتحتاج إلى تخطيط ويؤسفني أن أقول أنه رغم محاولة الأردن المتواصلة للوصول إلى خطة عمل مع المقاومة لغايات التثوير هذه، فحتى هذه اللحظة لم نصل إلى اتفاق، ولكني مازلت واثقاً من أننا سنستطيع الوصول إلى اتفاق لخطة التثوير هذه. وهذه الخطة ليست ابتكاراً أردنياً، ولا اختراعاً أردنياً؛ إنها خطة فنية معتمدة أساساً على مقررات سابقة لمجلس الدفاع الموقر برئاسة الرئيس القذافي؛ حوّرت بعض الشيء حتى تناسب ظرفنا في الأردن. ونعتقد أن الجهد العربي يجب أن ينصب لعملية التثوير هذه لمزايا استراتيجية وسوقية وتكتيكية كثيرة. أعتقد أن قضية تثوير الأرض المحتلة، إذا أحسّنا تنفيذها ـ وليس هناك ما يمنع من إحسان تنفيذها، فلدينا الرجال، ولدينا القدرات الفنية، ولدينا التصميم، ولدينا الإرادة

على انجاحها ـ واذا نجحت فستكون أساساً للإخلال بتوازن العدو الداخلي في المنطقة المحتلة، وسيكون لها مردود كبير، قد يغيّر من تقدير الموقف العام، فيما يتعلق بالقوى الجوية، وعدد الفرق والكتائب وخلافه وخلافه.

هذا الموضوع أحب أن أفصّل به أكثر وأكثر لأنه حيوي. وهو حيوي من وجهة نظر المعركة، حيوي من جهة نظر الأردن بصورة خاصة؛ حيوي من وجهة نظر المشاكل أو الاختلاف في وجهات النظر القائمة حالياً بين الأردن والمقاومة.

التصوّر الأردني المطروح لهذه العملية، كما قلت لكم أيها السادة. ليس ابتكاراً، وإنما تصور معتمد على معطيات فنية أعتقد أن أي خبير في عملية التثوير، لو جاء حتى من بلد أجنبي، لوضع تصوراً يشبه هذا التصور أو يقترب منه. بطبيعة الحال، نحن نأمل من هذا المجلس الكريم أن يساعد في هذا التصور، وأن يساعد على التخطيط وإذا توفّقنا في ذلك -وكما قلت ليس هناك ما يمنع من التوفيق- فربما يؤثّر ذلك جذرياً على تقدير الموقف. إذا استطعنا أن نُخِلَّ بتوازن العدو في المنطقة المحتلة، قد لا نحتاج إلى كل الفرق المطلوبة في تقدير الموقف. فالإخلال بتوازن العدو، مجهود مركّز بطبيعة الحال، يحتاج إلى تخطيط وإلى تدريب، إلى دراية، وإلى حكمة قد تفوق في مستواها مستوى التخطيط النظامي المعروف.

هذه باختصار مجموعة ملاحظات الوفد الأردني على هذا التقرير القيّم الذي يسعدني أن أنتهز فرصة هذا الحديث لأُنوّه به، وأُنوّه بالحساب الصارم الذي ورد فيه، مع أن هناك ملاحظات لنا على بعض تفاصيل واجتهادات تفصيلية وجزئية. وتتعلق بمستوى الصلاحيات الممنوحة لمجلس الدفاع. هذه برأيي تفاصيل جانبية، لا تنتقص أبداً من قيمة هذا التقرير. ومن دقته، ومن حسنه. نقطة أخيرة. هناك اختلاف على الهدف الاستراتيجي البعيد للمعركة. بكل تواضع لا أعتقد أن هذا الاختلاف يجب أن يؤثر على تصرّفنا. الهدف الاستراتيجي من حيث النية، ومن حيث التصميم واحد، لا أعتقد أننا نختلف عليه. هدف التحرير قضية بديهية، نؤمن بها جميعا؛ وإنما كيف نصل إلى هذا الهدف بخطوات تكتيكية ومراحل؟

هذه قضية يقررها عزمنا؛ العزم العربي هو الذي يقرر المدى الذي نستطيع أن نسير فيه نحو هدفنا النهائي بالتحرير. لا فائدة في أن نقول إن هدفنا يجب أن يسير عشرة أميال، مثلاً، بينما جهدنا لا يمكن أن يوصلنا إلا إلى ثلاثة أميال لا أكثر. المراحل العملية ضرورية في السياسة وفي الحرب.

نقطة أخرى تابعة لهذا التقرير. أنه ليس هناك جهد عسكري صرف؛ وليس هناك جهد سياسي صرف. هناك محصلة للجهد تعتمد على السياسة وعلى العسكرية معاً. هي أسلحة لذراع واحدة. الدولة تستخدم هذا السلاح حسب الظرف. ولكن هذا الاستخدام وهذه المواصفات، يجب أن تكون في اتجاه المسيرة نحو الهدف النهائي. وهو، بالتأكيد محصلة الجهد العسكري والسياسي والاقتصادي. وحتى يصبح هذا التقرير بداية لجهد مبارك، أقترح تشكيل لجان فنية من هذا المجلس الكريم لتقرير حجم الدعم والاحتياجات. وماذا يستطيع العرب تقديمه من كافة الوجوه بالنسبة للاحتياجات. ويجب أن نصل -كما قلت- إلى خطة: خطة قتال؛ خطة معركة؛ خطة دعم؛ خطة سياسية؛ خطة الخطط الفنية والعسكرية والسياسة تحتاج إلى قيادة، أو قيادات يجب أن نتفق عليها؛ وبالتالي أن نخرج اعتمادا على هذا التقرير، بخطوات عملية، تُحول حديثنا في التقرير، وتوصياتنا في التقرير، إلى نقاط ثابتة على الطبيعة. نقطة أخيرة، أحب أن أشير إليها، وهي ختام ما أشرت إليه في مطلع حديثي. قلت عن تكامل الجبهات، أنه لاينفع لغاية المعركة، أن نكون أقوياء في جبهة، وضعفاء في جبهة أخرى. من الواجب أن يكون ثقلنا مؤثراً في كافة الجبهات، النكسة في أية جبهة تنعكس علينا جميعاً، وعلى هذا فإن كل جبهة ثمينة علينا جميعاً كعرب، وثمينة علينا جميعاً كبلدان تواجه العدو. بطبيعة الحال، هذا الحديث كله يأتي في ظرف به بديهيات كثيرة، حول منغصات أو عوائق العلاقات العربية، ليس بالموضوع الكامل العملي الذي يستلزمه الصبر في توصيات وفي تقدير الموقف، هذه نقطة، نقطة أخرى؛ بينما مقتل الأردن ومقتل سوريا، عسكرياً هو بالمفصل الموجود على

الحدود السورية الأردنية. هذا المفصل، هذه الحدود. مغلقة بيننا وبين أشقائنا في سوريا، التنسيق بيننا وبين الأشقاء في هذه الجبهة الخطيرة جدا، يجري بصورة شخصية، ومحدودة، تحتاج إلى تنسيق أكثر ووضوح أكثر، وإزالة كل الأسباب التي تعرقل المسيرة العامة نحو المعركة. نقطة أخرى، كما كان التقرير صريحاً في الحساب، من واجبنا أن نكون صريحين مع أنفسنا: التنسيق السياسي والعسكري العربي خلال الأشهر الماضية، ليس على ما يرام. يجب أن نعترف بهذا؛ وبالتالي فإن من أهم واجبات هذا المجلس الكريم، ومن أهم واجبات هذه الجلسة، أن نعيد هذا التنسيق، وهذا التعاون وهذا التخطيط المشترك، إلى أقوى ما يمكن، حتى نستطيع بالفعل أن نتوجه إلى المعركة، ونحن مطمئنون إلى أننا أغلقنا كافة النوافذ التي تعميق مسيرتنا نحو المعركة.

وشكراً

شارك رئيس الوزراء الأردني الأسبق، الشهيد وصفي التل، كقائد ميداني، في حرب فلسطين ١٩٤٨، وسجّل تجربته في القتال، وتحليله الإستراتيجي عن الأعمال الحربية في عامي ٤٨ و ٤٩، مستخلصًا عناصر الفشل العربي في تلك الحرب، من منظور عسكري فني وسياسي واجتماعي في آن. وقدّم، بذلك، نصوصًا ما تزال تحتفظ بحيويتها وضرورتها حتى اليوم. أما نصوص التل، المتعلقة بحرب ١٩٦٧، فهي من أفضل المقاربات الاستراتيجية لهزيمة حزيران. وهي مكتوبة من وجهة نظر نضالية، هدفها التأكيد على أن الهزيمة ليست قدرًا، وأن تحقيق النصر على «إسرائيل» ممكن، حالما يتم انجاز الشروط المؤاتية - سياسيًا واجتماعيًا وعسكريًا - على أساس إخضاع «كل نبضة جهد» للمعركة مع الصهيونية. وهي المعركة التي لا يمكن، بحسب التل، تجنّبها.

ISBN 978-9953-507-95-8

9 789953 507958

نشر بدعم من البنك الأهلي الأردني Jordan Ahli Bank الأهلي ahli